وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة قاصدي مرباح- ورقلة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

الحركة الأدبية في الجزائر من التتبع الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة والأدب العربي

تخصص:أدب جزائري قديم

إعداد الطالب: **إشراف الأستاذ الدكتور:**

ناصر بوصـوري **بلقاسم مالكية**

أعضاء لجنة المناقشة:

اسم ولقب عضو اللجنة	الدرجة العلمية	مؤسسة الانتماء	الصفة
أ – حاجي أحمد	أستاذ التعليم العالي	جامعة ورقلة	رئيسا
أ– بلقاسم مالكية	أستاذ التعليم العالي	المدرسة العليا ورقلة	مشرفا ومقررا
د– هاجر مدقن	أستاذ محاضر (أ)	جامعة ورقلة	مناقشا
أ – مشري بن خليفة	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجزائر(2)	مناقشا
أ – أحمد موساوي	أستاذ التعليم العالي	المركز الجامعي النعامة	مناقشا
د – سرقمة عاشور	أستاذ محاضر(أ)	جامعة غرداية	مناقشا

السنة الجامعية:2016/ 2017م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

أتقدّم بالشكر الجزيل إلى أستاذي الفاضل :الأستاذ الدكتور

بلقاسم مالكية على سعة صدره وصبره ،وعلى ما قدّم لي من

توجيهات ونصائح كانت كل مرة تُقوّمُ سير البحث وتقوده إلى

سلوك السبيل القويم فيه.

كما أشكر السَّادة الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة

على ما بذلوه من جهد في قراءة البحث وتقويم ما فيه من عثرات لا بدّ

منها لكل باحث مبتدئ.

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا وحبيبنا محمد أفضل الخلق أجمعين،الحمد لله على آلائه ظاهرة وباطنة،والشكر والثناء عليه على توفيقه لي في هذا البحث الذي أقدمه للمناقشة،علَّه ينال الرضا والقبول من أستاذي المشرف و من لجنة المناقشة.

إن الحديث عن الحركة الأدبية في المغرب الأوسط جميل وشاق في الآن ذاته،ذلك أنَّه لم يُخص – في حدود ما أعلم– ببحث يتحدَّث عن الموضوع ويتناوله بالتفصيل من الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الأوسط وحتى نهاية عصر الدول والدويلات التي تعاقبت على حكمه.لذلك فقد كان موضوع بحثي موسوماً بـ: **"الحركة الأدبية في الجزائر من الفتح الإسلامي حتَّى سقوط دولة بني حماد"**

ومما لا شكَّ فيه أنَّه كان لدخول الجزائريين الدين الإسلامي والتَّمسك به واستعمال اللغة العربية في مجالات الحياة كلها تقريبا أثر على الحياة الأدبية كما على الحياة الاجتماعية والسياسية وغيرها.وبعد فترة من الزمن تمكَّن سكان المغرب الأوسط – الجزائريون – من إنتاج أدبهم الخاص بهم المعبِّر عن حياتهم،خاصَّة بعدما أنشأ الرُّستميون دولتهم على أرض الجزائر بتاهرت وامتدَّت شرقا وغربا،واهتمَّت بالعلم والتعليم وتأسيس المكتبات، وكان للدول الأخرى التي تأسست ببلاد المغرب الأوسط نفس الاهتمام بالعلم والثقافة،حتى غدت مقصدا لكثير من الشعراء والأدباء والعلماء من مختلف الأصقاع من العالم الإسلامي،كما كانت ملاذاً آمنا حتَّى لغير المسلمين.وتركت لنا تراثا دلَّ على ما وصلت إليه عبقرية إنسان ذلك الزمن،لكن جُل إن لم نقل كُل ذلك التراث ضاع ولم يبق منه إلا نزر قليلٌ لا يعطي صورة واضحة ومُكتملة عن تلك العهود،لكنه يدلُّ على أنه كان هناك حركة أدبية وعلمية وثقافية تفاوتت من عهد إلى آخر قوةً وضعفاً.

وقد كان دافعي إلى خوض غمار هذه التجربة البحثية أن أجلو بعضاً من ذلك التراث القابع بين دفات الكتب التاريخية والتُّراثية،وأن أضعه بين يدي الدارسين والباحثين على غرار ما فعل وسيفعل كثير من الزملاء في البحث في ميدان الأدب الجزائري القديم،و لا يخفى على أحد افتقار مكتباتنا إلى البحوث التي تتناول تاريخ الحركة الأدبية في المغرب الأوسط،يضاف إلى ذلك يقين بوجود أدب جزائري قديم لم يصل كاملا إلى الطلبة والباحثين في ميدان الأدب العربي،كما أن جامعتنا تفرض على الحاصل على درجة الماجستير أن يواصل في نفس التخصص الذي حصل فيه

على الماجستير.

ومن ثمَّة كانت الإشكالية المطروحة أمامي هي:هل للجزائر أو المغرب الأوسط حركة أدبية لها حضورها الكمي والنَّوعي كغيرها من البلدان؟وذلك في الفترة الممتدة من الفتح الإسلامي لهذه البلاد وحتى سقوط الدولة الحمادية. و هل كان بها أدب وأدباء في تلك الفترات المتعاقبة من وجودها؟ ومن هم هؤلاء الأدباء؟وكيف كانت الحركة الثقافية والاجتماعية والسياسية بها عموماً؟ و كيف تطورت مع الزمن؟ وبم تميَّز أدبها عن غيره؟ وما هي الأجناس الأدبية التي أبدع فيها الجزائريون؟ و ما هي الأغراض التي نظم فيها شعراء تلك المرحلة أشعارهم؟وما هي الأجناس الأدبية التي بقيت من آثار أدباء وكتاب ذلك الزمن؟ وكيف كانت أساليب أولئك وأولئك؟ وما هي الإضافات التي جاءوا بها أم كانوا مقلدين لغيرهم مشرقا ومغربا؟...

وكان لابُدَّ من اِتِّبَاع منهج في البحث فلم أملك إلا اللجوء إلى المنهجين **التاريخي والفني**،وذلك لأنَّ طبيعة البحث تعلَّقتْ بجانب من التاريخ الأدبي للمغرب الأوسط،وكان لابد من فحص تاريخي وتتبع لمراحل تطور الحركة الأدبية بهذا القطر من العالم العربي والإسلامي، و ذلك للوقوف على ما تعلَّق من أحداث بالمغرب الأوسط وخاصة في الجوانب الأدبية والثقافية والتأثيرات الاجتماعية والسياسية فيها،ومن خلاله أيضاً تتبّع سِيَّر وتراجم أدباء تلك الدول المتعاقبة على حكم المغرب الأوسط،أما المنهج الفني فكان لشرح الجوانب الفنية في إبداعات أدباء المغرب الأوسط في تلك العهود،ولتصنيف ما كتبوه من نصوص شعرا ونثرا في مختلف الأغراض الشعرية و الأجناس النثرية، و كذلك من أجل الوقوف على ما تضمنته إبداعاتهم في مختلف المراحل والحقب التي عرفتها الجزائر،و على ما فيها من جمالية وما قام به أدباؤها من توظيفه لأساليب العربية في شعرهم ونثرهم.

وقد اعتمدت على بعض الدراسات و البحوث التي تناولت الأدب المغربي عامة أو الجزائري خاصة،أذكر على سبيل المثال لا الحصر :"**المغرب العربي تاريخه وثقافته** " للأستاذ **رابح بونار**،وقد تناول فيه الأدب في دول المغرب العربي عامة من الفتح الإسلامي إلى بداية القرن العشرين ؛مقسِّماً فتراتها إلى نشوء ثقافي و نهضة وازدهار ونضج ثمَّ انحطاط مع تفصيل لكل فترة عن أدبائها وعلمائها وما أنتج فيها في الميدان الثقافي، و كذا "**تاريخ الأدب الجزائري**" للأستاذ **محمد الطمار** الذي خصَّ به الجزائر دون غيرها من أقطار المغرب متحدثا عن تاريخ أدبها من الفترة الممتدة من قبل الفتح الإسلامي إلى العصر الحاضر،وقد فتحت لي هذه الكتب الطريق وبيَّنت لي بعض المعالم في الفترة التي تناولها البحث بالدراسة، ودلتني على عديد الأدباء وما أبدعوا من نصوص في

مختلف الأجناس الأدبية والأغراض الشعرية،إلا أنها كانت تفتقر إلى الترتيب والتفصيل في كثير من الجوانب،فلا نجد مؤلفيها يخصصون الحديث عن كل جنس أدبي مثلا،أو يحددون الأغراض الشعرية بعناوين محددة لتلك الأغراض.

و لا يفوتني هنا أن أشير إلى كتاب الراحل الدكتور أبي القاسم سعد الله الموسوم بـ: تاريخ الجزائر الثقافي (من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن التاسع الهجري) الذي صدر في طبعته الأولى عن عالم المعرفة للنشر والتوزيع في 2015م بالجزائر،و فاتني أن أستعين به في بحثي هذا لأنني كنت قد أنهيته أو كدت،ولم أقتن نسخة الكتاب إلا وأنا أكتب مقدمته.

كما اطلعت على بعض الدراسات التي كان ميدان بحثها يتطرق إلى الحركة الأدبية في دول المغرب إجمالا؛منها :كتاب **الدكتور شوقي ضيف** الموسوم بـ:"**تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات (الجزائر المغرب الأقصى موريتانيا السودان)** " وكتاب **عبد الرحمن ياغي** المعنون:''**الحياة الأدبية بالقيروان وموقف ابن رشيق منها**" وكذلك الدواوين التي جمعت أشعار ما نظمه شعراء الدول المتعاقبة على المغرب الأوسط.

أمَّا من الكتب التُّراثية فقد عدتُ إلى كتاب " **خريدة القصر وجريدة العصر" لمؤلفها العماد الأصفهاني**.الذي جمع مجموعة من أدباء المغرب الأوسط وتناول بعضا من سيرهم،كما روى بعض أشعارهم ، وكذلك **تاريخ ابن خلدون** الموسوم بـ: ''**ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**''

أما من حيث الخطَّة فقد قسمت بحثي إلى مقدمة وثلاثة أبواب؛في كل باب فصلان،أما المقدمة فقد ذكرت فيها ما تعلَّق بسير البحث والدراسات السابقة والمساعدة على اقتحام هذا الجانب من تتبُّع الحركة الأدبية في المغرب الأوسط،وما تعلَّق بمصادره ومراجعه وأسباب اختياره وخطوات البحث وصعوباته،و أما أبواب البحث فهي مقسَّمة إلى مجموعة من الفصول؛كل فصل منها حول أحد المحاور فكان الباب الأول حول السياقات التاريخية؛ و منه الفصل الأول الذي كان مخصَّصاً للجوانب الاجتماعية والسياسية التي مسَّت حياة المجتمع في بلاد المغرب الأوسط والحديث عن تقاليد السكان الأصليين من البربر و اتحادهم بالمجتمع الإسلامي بعد الفتح و ميلاد مجتمع جديد يجمع بين الاثنين وتلك السرعة الكبيرة في اندماج المجتمعين في مجتمع واحد يجمعه الدين الإسلامي وازداد التقارب بين الأمتين الأصلية والوافدة حتى صارتا أمَّةً واحدة موحَّدة تحمل لواء

الدين الجديد إلى بلاد الأندلس وأوربا وما تلاه من تأسيس الدول المتعاقبة على المغرب الأوسط وأحوال المجتمعات بها.و الحديث حول الجوانب السيّاسية التي كانت سائدة في المغرب الأوسط و الحديث عن الأنظمة التي حكمت البلاد بدءً من الدولة الرُّستمية حتى الدولة الحمادية مروراً بالدولة الأغلبية والدولة الفاطمية،واختلاف هذه الأنظمة في سياسة الحكم وما نتج عنها من مراحل استقرار و ازدهار أو مراحل ظلم و انكسار، وما ساد آنئذٍ من مذاهب مختلفة كالإباضية أثناء الحكم الرُّستمي أو المذهب الشيعي الإسماعيلي إبَّان الوجود الفاطمي العبيدي أو سيطرة المذهب المالكي في فترات أخرى،والذي بقي إلى أيامنا هذه إذْ يعتبر مذهب البلاد المغاربية كلها تقريباً،وبعض مظاهر الصراع المذهبي الذي انتشر في تلك العهود.أما الفصل الثاني فقد خُصِّصَ للجوانب الثقافية والحركة العلمية التي شهدها المغرب الأوسط بدءً بالبعثة العلمية التي أرسلها الخليفة الأُموي عمر بن عبد العزيز إلى بلاد المغرب والتي كانت فاتحة الثقافة العربية الإسلامية في البلاد المغربية دون إغفال ما سبق تلك البعثة من تعليم سكان البلاد القرآن الكريم واللغة العربية والفقه خلال الفتوحات الأولى وصولاً إلى تأسيس الدولة الرُّستمية والحديث عن الحركة العلمية والثقافية والأدبية خلال فترة حكمها للمغرب الأوسط وما شهدته تلك الدولة من حركية ثقافية تمثّلت في إنشاء المدارس للتعليم المجَّاني لعامة المسلمين،والاهتمام كذلك بتعليم المرأة وتأسيس المكتبات وانتشار حركة التأليف في مختلف التخصُّصات وجهود أئمتها في ذلك بحكم أنهم كانوا رجال علم وسياسة في الوقت نفسه،وسعوا جهدهم ليجعلوا من مدنهم حواضر تنافس تلك الحواضر التي كانت في المشرق،وميلاد الأدب الجزائري في ذلك العهد مع الشاعر التاهرتي بكر بن حماد، كما شاع في هذا العصر التعايش بين المذاهب الإسلامية، والحديث عن الحركة الأدبية في الدولة الأغلبية التي كان لها نفوذ على أجزاء كبيرة من المغرب الأوسط – الشرق الجزائري حاليا– وقد عملت هذه الدولة على نشر اللُّغة العربية وتعليمها،مع الإشارة إلى ما عرفته طبنة والزّاب من نهضة ثقافية وعلمية كبيرة واشتهار أهل طبنة بالرحلة في طلب العلم والرجوع إلى بلدهم لتعليمه لأبنائها، كما كان للطبنيين انتشار و وجود في مصر والأندلس وذاع صيتهم في ميدان الأدب،وكان للأغالبة اهتمام بدور المطالعة بلغ بهم أن أسَّسوا دار حكمة كما كان بأرض العراق دار الخلافة الإسلامية آنذاك،وقد كانت دولة تابعة للخلافة العباسية ولكنَّها تتَمَتَّع بالاستقلال عنها، كما كان لهم مبالغة في إكرام الشعراء،وعرفت المُكاتبات والمراسلات تطورا خاصّاً في التَّفنُّن في أساليب الكتابة والتَّعبير،ثم الانتقال للحديث عن الحركة الأدبية خلال فترة الفاطميين الذين بدأوا وجودهم بفرض المذهب الإسماعيلي على النّاس ولكنهم وجدوا منهم مقاومة،ولما تبيَّنوا خطر الأدب اتجهوا إلى الاهتمام به ونشطت الحركة الأدبية بتأجيج الصراع المذهبي الشيعي والسّني فانتشرت القصائد والمقالات و الخطب

والمناظرات الكثيرة للدفاع عن المذهبين،فازدهرت الحركة العلمية والتأليفية نتيجة لذلك الصراع المذهبي،و جنَّدت الدولة الفاطمية فرسان الكلمة للدفاع عن أفكارها وأغدقت عليهم المال والخلع فكانوا ناطقين رسميين باسمها مدافعين عنها بكل ما أوتوا من سحر بيان وقوة منطق،فكان للشعر مكانته الخاصة في ذلك العهد باعتباره من وسائل الدعوة الفاطمية،وأعانت كثرة المناسبات التي استحدثها العبيديون على ازدهاره وانتشاره.

و لم تخرج الدولة الحمادية عما عرف في الدول السابقة لها،فقد كانت هي الأخرى تولي أهمية كبيرة للأدب والثقافة وانتشرت العلوم وازدهرت حتى غدت عاصمتهم مقصدا للشعراء من كل الأصقاع بسبب اعتناء حكامها بالحركة العلمية وبتأسيس المدارس وإنشاء المكتبات وإقبال الناس على التعلُّم،وبرز عدد كبير من الأدباء والعلماء والأطبّاء والنحويين والنُّقّاد،وانتشرت المذاهب المختلفة،وطارت شهرتهم في الآفاق فتقاطر على بلاط الحماديين كثير من العلماء والأدباء من الشام والعراق والأندلس وتونس وحتى من الأعاجم،و زاد إقبال الطلبة على الدروس التي كانت تلقى في المدارس و الزوايا والمساجد وتعرَّبت بلاد المغرب الأوسط مع الزحف الهلالي و ظهر نوع من الأدب الشعبي،وبلغت القلعة وبجاية مبلغا عظيما من التطور والازدهار في كل الميادين خاصَّةً الميدان العلمي وأنشئت المعاهد و قصدها حتى الأجانب و رافق ذلك تطور عمراني واقتصادي،وبلغت الكتابة مبلغاً عظيما ليس أكبر منه غير رتبة قادة الجيش.

أمَّا الباب الثاني فكان خاصّاً بالحركة الأدبية وأعلامها في المغرب الأوسط،وفيه تمَّ الوقوف على أبرز أعلام الحركة الأدبية من الفتح حتى سقوط الدولة الحمادية، وكان الفصل الأول منه بالبدء من بعض أعلام الفتح ممن تركوا خطبا أو وصايا – على قلَّة ما تركوا – مع الإشارة إلى أولية أدب المغاربة خاصة ما يُنسب إلى طارق بن زياد وما أثير حول نسبة الخطبة الشهيرة له،وما يقال إنه شعر لسابق البربري المطماطي في نصح الخليفة عمر بن عبد العزيز،ثمَّ التطرُّق إلى تطور الحركة الأدبية في العهود المتتالية،والبداية مع الدولة الرُّستمية التي شهدت أول ظهور فعلي للأدب الجزائري وذكر بعض أعلامها من أئمة الدولة والشعراء وما أنتجوا نثرا وشعرا في مختلف الأغراض ،و بعدها التطرُّق إلى العهد الأغلبي وما كان فيه من أعلام وحركة أدبية تخصُّ حواضر المغرب الأوسط مثل منطقة طبنة والزاب،ومن عُرف من أبناء تلك المناطق وما اشتهروا به في فنون الأدب المختلفة ورحلتهم في طلب العلم وتعليمه وكذلك ما أبدعوا خاصة في ميدان الشعر، و دون إغفال ما كان من اهتمام أمرائها بالأدب وخاصة المؤسس الأول للدولة وعملهم على إكرام وتقريب رجال العلم بصفة عامة حتى صارت مقصد بعضهم، و جاء في الفصل الثاني الحديث عن أمر الأدب وأعلامه

من أدباء الدولة الفاطمية التي تأسست على أنقاض الدولتين الرستمية والأغلبية،وقد اهتمَّت بالأدب بعد أن أدركت خطره في نشر دعوتهم،وقصد العبيديين عددٌ لا يستهان به من الشعراء رفعوا راية التَّشيُّع ونافحوا عنه بكل قوة إضافة إلى ما عرف عن تعاطي خلفاء هذه الدولة وقادتها الشعر،وتمَّ كذلك الإشارة إلى وجود النثر وانتشاره خاصة الخطابة للحاجة الماسَّة إليها في نشر الدعوة وإقناع الناس باعتناقها،ونختم الحديث عن الحركة الأدبية وأعلامها بالحديث عن الدولة الحمادية وقد ساعدنا في معرفة ما جاء حول أعلام هذه الفترة ما ذكره صاحب'' الخريدة''العماد الأصفهاني والذي يجمعهم أنهم ممن وفد على مصر في ذلك الزمن،وذكر غير الوافدين أيضاً،كما أتى على ذكر الناثرين من الكتاب في عهد بني حماد.

وفي الباب الأخير من هذا البحث فقد كان الحديث فيه عن الجوانب الفنية،وتناول فصله الأول الأجناس النثرية وما بقي منها في طيات كتب التراث والتاريخ في الفترة التي امتدَّت من الفتح إلى سقوط الدولة الحمادية،من خطب و وصايا ورسائل وما اشتملت عليه من جوانب فنية مسَّت ما خصَّ بنائيتها و ما فيها من جمالية وما وُظِّف فيها من بلاغة.وما ميَّز بعض العهود عن غيرها مثل المناظرات في العهد الأغلبي والسجلاَّت في العهد الفاطمي،وفي الفصل الثاني كان الحديث عن الأغراض الشعرية التي وّجدت في الفترات المتلاحقة من مراحل البحث بداية من المدح ومروراً بالوصف و الهجاء والغزل،والرثاء والزهد ونهاية ببعض الأغراض التي لم تكن ذات وجود قوي في شعر أدباء المغرب عموما مثل وصف مجالس اللهو الخمر،ومن خلالها الحديث عن الجوانب الفنية فيها وما ميز قصائدها ومقطّعاتها وما غلب على بعض العصور من أغراض وما تفرّد به بعضها عن غيره،لينتهي البحث بخاتمة تضمنت ملاحظات ونتائج ما وصل إليه البحث في الحركة الأدبية بالمغرب الأوسط من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد.

وككل بحث فإنَّ الصعوبات لا بدَّ منها،كما لا شكَّ في وجودها،ولعل بداية الصعوبات كانت فيما حدث لي في التسجيل الثالث حيث طُلب مني الرجوع إلى تخصص الماجستير،وهو الأدب الجزائري القديم وكنت قد شرعت أنجز الموضوع الأول الذي سجلت فيه،مما نتج عنه تأخُّري في إتمام البحث في الآجال ومن ضمن الصعوبات التي واجهتني جِدَّة الموضوع،فإنَه حسب علمي لم يطرق هذا الموضوع من قبل،كما أن مصادره ومراجعه ليست واضحة معلومة معروفة بل هي خليط من كتب التاريخ وكتب السير وكتب التراث وغيرها،مما يتطلَّبُ جهدا متواصلا وبحثاً في عديد المجالات،لكن بفضل توجيهات أستاذي المشرف **الدكتور بلقاسم مالكية** فقد هانت كل تلك الصعوبات،فكنت أستفيد منه في كل لقاء يجمعني به ،بما يقدم من اقتراحات تنير الدرب وتفتح

الطريق للفكرة مباشرة.

ولا أنسى أن أتقدم بالشكر الجزيل لأستاذي المشرف **الأستاذ الدكتور:بلقاسم مالكية** على ما قدّم لي من نصائح وتوجيهات كانت نبراساً لي على مدى مراحل هذا البحث،وما اقترح عليَّ من تعديلات كانت ناجحة وخدمت البحث،كما أشكر فيه صبره ودماثة خلقه.

وفي الأخير،فإنَّ هذا جهد المقلِّ المقِرِّ بالتقصير،ومع ذلك أرجو أن يكون مفيدا ولبنة من لبنات ما يُقدَّمُ من بحوث في هذا الميدان الذي أعتقد أنه مازال في حاجة إلى كثير من الأقلام الجادَّة والمجتهدة لإجلاء كثير من غوامضه ونفض الغبَّار عنه،حتى نبرهن على أنّنا نملك إرثا حضاريا وثقافيا بأبعاد إنسانية.

آفلو: يوم الجمعة

25من ديسمبر 2015م

الباب الأول:

السياقات التاريخية

الفصل الأول:

الجوانب الاجتماعية و السياسيَّة

1/الجوانب الاجتماعية:

إذا تتبعنا تاريخ الجزائر من الفتح الإسلامي الذي كان في منتصف القرن الأول للهجرة إلى نهاية الحكم الحمّادي وسقوط دولتهم قبيل منتصف القرن السادس للهجرة، أمكننا أن نعرف الكثير من المعلومات الخاصة بالجوانب الاجتماعية عن الدول التي توالت على أرض الجزائر،وسنستشِّف من خلالها ما اشترك بينها وما اختلف في عاداتها وتقاليدها ومختلف مناحي الحياة الاجتماعية لتلك الدول التي كان له وجود في أرض الجزائر.

وقبل ذلك نبدأ حديثنا عن البربر فهم كما يقول ابن خلدون « سكان المغرب القديم ملؤا البسائط والجبال من تلوله و أريافه و ضواحيه وأمصاره،يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخُوص والشجر و من الشَّعْر والوبر،ويظعن أهل العزِّ منهم والغلبة لانتجاع المراعي،فيما قرُب من الرِّحلة،لا يجاوزن فيها الريف إلى الصحراء والقفار الأملس.»[1]

ويتابع ابن خلدون الحديث بإسهاب في الصفحات التالية،فيفصِّلُ في أصلهم ونسبهم وقبائلهم، ويذكر أقوال المؤرخين والعلماء واختلافاتهم

[1]. ابن خلدون،تاريخ ابن خلدون،الجزء السادس،دار الفكر للطباعة و النشر والتوزيع،د ط، 1431هـ/2000م، ص 116.

حول ذلك،ويرُدُّ على ما قالوا به،إلى أن يقول:«والحقُّ الذي لا ينبغي التعديل على غيره في شأنهم أنَّهم من ولد كنعان بن حام بن نوح ...وأن اسم أبيهم مازيغ.»[2]

و في بداية الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الأوسط حافظ البربر على حياتهم الاجتماعية وعاداتهم وتقاليدهم التي توارثوها عن آبائهم وأجدادهم،«والبربر أمة من أقدم أمم العالم وأشهر أجياله،عاصرت العرب والفرس واليونان والروم،معروفة بعزِّ الجانب وإباية الضيم والدفاع عن الشرف.وقد زاحمت الأمم ودافعت الملوك عدّة آلاف من السنين» [3] دافعت دفاعاً مستميتاً عن وجودها،ورغم طول استعمار كثير من الدول والأمم لها عبر تاريخها الطويل إلا أنها كانت وباستمرار وإصرار ترفض الاندماج في تلك الأمم الغازية لأرضها الطامعة في نهب خيراتها،ولكنهم سرعان ما اندمجوا في المجتمع العربي الجديد بعد ما رأوا أخلاق وشيم الإسلام والمسلمين؛ فالناس في نظر الإسلام سواسية لا فضل لأحدهم على الآخر، لا فرق بين أمير وحقير أو غني وفقير إلا بالتقوى والعمل الصالح،يتساوون في أداء ما عليهم من واجبات ويتساوون كذلك في الحصول على مالهم من الحقوق،و«أقبل البربر على الإسلام يعتنقونه،وكانوا قد ذاقوا مرارة ظلم الفاتحين للبلاد قبل

---

[2]. ابن خلدون،تاريخ ابن خلدون،الجزء 6،مرجع سابق،ص 127.

[3]. مبارك بن محمد الميلي،تاريخ الجزائر في القديم والحديث،الجزء الأول،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،د ط، د ت، ص80.

الإسلام.فالإسلام كان لهم فرصة للخلاص من الإهانة والاستعباد،والإسلام يدعو إلى المساواة والإخاء بين المسلمين وإلى الحرية والشرف.وإسلام الجزائريين كان له أثر عظيم في المجتمع،من حيث الدِّين من جهة ،ومن حيث اللُّغة من جهة أخرى»[4]، وقد كان ذلك مبعث تساؤل كثير من المستشرقين الذين درسوا تاريخ الجزائر والبربر القديم،ومصدر تعجب بحيث لاحظوا سرعة اندماج البربر بالعنصر العربي وقد ظلوا يرفضون غيره عبر تاريخهم الطويل « عجب كثيرٌ من المستشرقين في السرعة التي انتشر بها الإسلام في الجزائر و غيرها من أقطار المغرب، إذ لم يمض نحو قرنٍ أو بعبارة أدق لم يمضِ القرن الأول الهجري،حتّى أصبحت الأقطار المغربية أقطاراً إسلامية،ومبعث هذا العجب عندهم أن الفينيقيين ظلوا وحدهم– في البلاد أكثر من ستة قرون ولم يستطيعوا أن ينقلوهم إلى لغتهم وحضارتهم وديانتهم وعاداتهم. وخلفهم الرومان نحو ستة قرون أخرى وظلَّ تأثيرهم لا يكاد يعدو مدن الساحل الشّمالي،وحاولوا نشر المسيحية في تلك المدن،ولم يعتنقها فيها من البربر إلا قليلون.و نزلتها بيزنطة وشعبها الإغريقي،وكان تأثيرهم في المدن الشّمالية محدوداً،وظلَّ البربر محافظين على دينهم الوثني ولُغتهم وعاداتهم،حتّى إذا فتح العرب الجزائر وغيرها من بلاد المغرب أخذت

[4]- محمد الطّمار،تاريخ الأدب الجزائري،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،د ط، 2006م،ص 60.

جماهير البربر تعتنق الإسلام وتحاول النطق بلغته.» [5]وبذلك أضاف أهل البلاد أخلاقاً جديدة إلى أخلاقهم التي عرفوا بها اكتسبوها من انضوائهم تحت لواء الإسلام،فذابت تلك الفوارق الاجتماعية التي كانت موجودة في فترات سابقة وازداد التماسك والتكافل الاجتماعي بين القوم،ورضُوا بما حصل لهم،وقد كانوا عانوا التمييز والفرقة والاضطهاد،خاصة وبلادهم كانت مطمعا لكثير من الأمم الطامحة لضمها إلى ممالكهم ،وكان سكان الجزائر كما يذكر المؤرخ الجزائري الشيخ عبد الرحمن الجيلالي ـ رحمه الله ـ «ثلاث طوائف في البربر و هم السكان الأصليون والبيزنطيون الذين حكموا البلاد على أيام الفتح الإسلامي لها وكانوا سادتها وكانوا قلَّة.والأفارقة وهم طائفة خالطت البيزنطيين والرومان،وتولّوا الوظائف الكبيرة في بلاد البربر كما أنهم كانوا يقومون بالتجارة وشؤون المال .ممَّا مكَّنهم من لعب دورٍ عظيم في تاريخ البلاد قبل الإسلام»[6]

ومما يلاحظ كذلك من الناحية الاجتماعية وخاصة من جانب انفتاح البربر على العرب الفاتحين واندماجهم بهم أنَّه كان دون عناء و لا مشقة،نظراً لأخلاق المسلمين الفاتحين واستقامتهم،ونظراً«لشدة الشَّبه بين هذه القبائل الجنوبية والجاليات العربية،سواءً ذلك

---

[5]. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات (الجزائر المغرب الأقصى موريتانيا السودان)،دار المعارف ،القاهرة ،ط1995،1م،ص 76.

[6]. ينظر،عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام،ج1،دار الثقافة ،بيروت لبنان،ط1400،1هـ /1980م،ص 138.

في حياتهم البسيطة الساذجة أم في أذواقهم وميولهم واتجاهاتهم السيّاسية »[7]

وعلى مرّ الأجيال ازدادت القرابة بين البربر والعرب وتوطدت العلاقات الاجتماعية ،وذابت الفوارق بين الأمتين رويدا رويداً وانصهر المجتمعان في مجتمع واحد ليس بين أفراده فوارق بل كلهم إخوة تحت راية التوحيد.«وشعر البربر بفضل السّلطة العربية فخدموها بإخلاصٍ وتطوَّعوا جنوداً فيها مع حسّان بن النُّعمان،ومع موسى بن نصير،وكانت لهم يدٌ طُولَى في فتح الأندلس على عهده بقيادة مولاه طارق بن زياد البربري مثلهم،وكان نشر الإسلام بها إنما هو خدمة بربرية خالصة للإسلام،ولتأييد الخلافة بدمشق»[8]ولم يكتف المجتمع الجديد بهذا ،بل إن أطيافاً أخرى وأجناسا مختلفة عاشت في ظل الدول والدويلات التي عرفتها الجزائر في تلك الفترة من تاريخها ؛فمنذ بدء الفتح الإسلامي لبلدان المغرب وقدوم الجيوش العربية إلى هذه البلاد، طاب مقام الكثيرين منهم «وكان كثير من جنودها جميعاً يقيمون في الجزائر وغيرها من الأقاليم المغربية،ولم يكونوا جميعاً عرباً بل كان بينهم كثيرون من أهل الرافدين والشام ومصر وإيران،ومن كل هذه العناصر استقرَّتْ سلالات في الجزائر وعاشت مع أهلها وامتزجت بهم امتزاجاً سريعاً بحكم ما يجمع بين الجانبين من الدِّين واللُّغة وأخذ ينزل في المدن السّاحلية بعض المسيحيين واليهود لما رأوا في الإسلام وأصحابه من المعاملة السَّمحة»[9]،وقد اعتنق البربر الإسلام وصاروا جنده البواسل،وأصبح منهم القادة ؛والتاريخ يذكر أن فاتح الأندلس البطل طارق بن زياد كان بربرياً،اعتنقوه«واندمجوا بالعنصر العربي.وكيف يصعب ذلك وفي عروق البربر يجري من الدم العربي ما يَبُثُّ فيهم روح التآنس والتعايش مع العرب ويؤهلهم للتآخي والعمل المشترك لبناء الجزائر الجديدة العربية.أضف إلى ذلك أنَّ لغتهم حامية سامية

---

[7]. عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، مرجع سابق،ص139.

[8]. رابح بونار،المغرب العربي تاريخه وثقافته،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،ط 2، د ت، ص 28.

[9]. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات (الجزائر المغرب الأقصى موريتانيا السودان)،مرجع سابق، ص52.

والعربية سامية.والإسلام قد سوّى بين العنصرين وأصبح العرب والبربر جميعاً إخوة .أما الذين سبقوا العرب إلى هذه الأرض فكانت غايتهم استغلال الأهالي واستعبادهم ليس إلاَّ.فلا بدع إذاً أنْ نجح العرب في تعريب البربر و جلبهم إلى الإسلام، وأن أخفق غيرهم في تكييفهم»[10]

وما إن حلَّ القرن الثاني للهجرة،حتى تغيرّت الأحوال وتبدلت الأوضاع والظروف في المغرب العربي عموماً،وفي المغرب الأوسط على وجه الخصوص،فقد تبدّلت معاملة القادة والأمراء وانتشر الظلم وساءت معاملة ولاة بني أمية ،وكان ذلك نتيجة حتمية لما يجري على السّاحة السياسية بأرض الخلافة فقد«كانت منازعات الأحزاب على أشُدِّها طول العصر الأموي وعصفت برجال الدولة ثارات العصبية،فكثُر الاضطهاد وتعدّدتْ الخصومات،وكان للأمويين طائفة عظيمة من الأعداء السياسيين لا يكفون عن الشَّغب ولا يكفُّ الأمويون عن تعقبهم بالأذى،فكثُر فرار هؤلاء من البلاد والتماسهم الأمان في ناحية بعيدة عن مركز الدولة،وكان المغرب من النواحي التي كثُر التماس هؤلاء الفارين للأمان فيها لاتساعها وتشعُّب مسالكها وكثرة قبائلها،وكان الكثير من أهل هذه الأنحاء ينطوي على السخط على العمال لما يصيبه من الأذى على أيديهم فكانت تلك القبائل ترحب بهؤلاء اللاجئين لأنهم وإياها على هوىً واحدٍ،ولهذا كثُر وفودهم على المغرب والتجاؤهم إلى قبائله»[11]

وبذلك وفد على بلاد المغرب الأوسط الكثير من الهاربين من المشرق لمعارضتهم السياسية لإدارة شؤون المسلمين،ولخلافهم مع الحكام،وقد «فرَّ عبد الرحمن بن رستم من القيروان إلى تاهرت بالمغرب الأوسط،واجتمعت إليه طوائف البربر الإباضية من لماية ولواتة

[10]. محمد الطمار،تاريخ الأدب الجزائري،مرجع سابق،ص 60.

[11]. حسين مؤنس،فتح العرب للمغرب،مكتبة الثقافة الدينية،د ط، دت ،ص 292. 293.

ورجالة ونفزاوة فنزل بها،واختطَّ مدينتها سنة أربع وأربعين ومائة.» [12]وكان في ذلك العهد عبدالرحمن بن رستم قد خلف أبا الخطاب المعافري . الذي استقل عن السلطة العباسية في بغداد وأعلن نفسه حاكما ـ على القيروان في العصر العباسي،إلا أنه بعد انهزام هذا الأخير أمام القوة التي أرسلها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بقيادة"ابن الأشعث"والي مصر في تلك الفترة الذي تمكن منه واستعاد القيروان،فاضطرَّ بذلك ابن رستم إلى الفرار إلى المغرب الأوسط[13]،وهناك أنشأ أول دولة بأرض الجزائر بعد الفتح الإسلامي لها،وكان لهذه الدولة شأن عظيم فيما بعد، إذ أنَّها تبوّأت مكانة عظيمة بعد تأسيسها مباشرة ،و وفد إليها كثير من الناس من مختلف البقاع،وتأسست بعاصمتها تاهرت إمارة إسلامية مبدؤها الشورى والحكم بالكتاب والسنّة إلا أن ممارسة الحكم كانت لآل البيت الرُّسْتُمي،فكانت الإمارة تؤول في كل مرّة إلى رجل ينتمي إلى بني رستم،ولعل ذلك يعود إلى أنهم ساروا في النّاس سيرة محمودة فلم ينقلبوا عليهم،وقد دام حكم بني رستم في تاهرت فترة امتدت مابين عامي ستين ومائة للهجرة(160هـ) وتسعٍ وتسعين ومائتين للهجرة(299هـ) أي أكثر من قرن وثلاثين سنة،ولم يخرج عن حكمهم إلا بعض الأشخاص الذين أحدثوا بعض البلبلة والفوضى.

وجدير بالذكر هنا أن نعرف لماذا قامت تلك الثورة ضد الخلافة المركزية في دمشق أو بغداد بعدها،وهل كانت ثورة متعصبة

---

[12]. ابن خلدون،تاريخ ابن خلدون،الجزء6،مرجع سابق،ص 147.

[13]. ينظر. للاستزادة في الموضوع . ابن خلدون،تاريخ ابن خلدون ،عبد الرحمن بن محمد الجيلالي،تاريخ الجزائر العام و محمد مبارك الميلي،تاريخ الجزائر في القديم والحديث .

لعرقية معينة أو بدافع معين،يؤكد المهتمون بهذه النقطة وردّاً على ادعاءات المؤرخين الغربيين الذين كانوا يذهبون في كل مرة إلى أن تلك الثورات إنما كانت ضد الوجود العربي الدخيل على حدٍّ زعمهم،يؤكد هؤلاء أن تلك الثورات كانت رد فعل عما وقع من مظالم من الحكام والولاة في حقهم،ومن تلك الردود ما كتبه الباحث التونسي الدكتور الحبيب الجنحاني،حيث يقول:«إن الدراسات التاريخية،ولا سيما ماكتبه"قوتيي"،و"جوليان" و"ج.مارسي" تركّز عن قصد على نقطة حسّاسة،وهي أنَّ ثورات الخوارج في المغرب هي رد فعل من السُّكان الأصليين،البربر ضدَّ العرب الفاتحين الذين هم دخلاء على البلاد،فهي عنصرية جنسية بربرية ضدَّ العنصر العربي الدّخيل،وهي فكرة خاطئة هدفت إلى محاولة إثبات رفض السُّكان الأصليين،وقد أسلموا،وحسُن إسلامهم،للعرب الأجانب عن البلاد.»[14]

ويبيِّن الباحث نفسه بعد ذلك سبب تلك الثورات بقوله:«إن ثورات الخوارج المعْتمِدة على العصبية القبلية البربرية كانت ردَّ فعل ضدَّ تصرُّف ممثلي الحكم المركزي في دمشق أولا،ثمَّ بغداد ثانياً،وضدَّ معاملة أبعد ما تكون عن المبادئ الإسلامية التي اعتنقها البربر،وآمنوا بها إيماناً

[14]. الحبيب الجنحاني،نظرة تقييمية لدراسات تاريخية حديثة عن حركات الخوارج في المغرب العربي في العصر الأوسط،مجلة الأصالة،العددان 14و15،السنة الثالثة،1393هـ 1973م،الجزائر،ص68.

عميقاً ابتداءً من بداية القرن الثّاني للهجرة.»[15]

أسَّسَ الرستميون دولتهم الفتية بالجزائر واتخذوا من "تاهرت" عاصمة لهم،وقد أخبر ياقوت الحموي عن "تاهرت" بقوله:«تاهرت:بفتح الهاء،وسكون الرّاء،وتاء فوقها نقطتان،اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب،يقال لإحداها تاهرت القديمة،وللأخرى تاهرت المُحْدَثة،بينها وبين المسيلة ست مراحل،وهي بين تلمسان وقلعة بني حماد،وهي كثيرة الأنداء و الضَّباب و الأمطار،حتى أن الشّمس بها قلَّ أن تُرى.»[16]

يعزِّزُ هذا التعريف من حيث الطقس السائد بتاهرت ما قاله أحد شعرائها مبيِّناً شدة البرد بها وقلة إشراق شمسها حيث يقول:[17]

ما أخشن البرد وريعانه

وأطرب الشمس بتاهرت

تبدو من الغيم إذا مابدتْ

كأنها تُنْشرُ من تخْتِ

فنحن في بحر بلا لُجَّةٍ

تجري بنا الرِّيح على السّمت

---

15. المرجع السابق،ص 69.

16. ياقوت الحموي،معجم البلدان،المجلد الثاني،دار صادر بيروت،1397ه 1977م،ص7.

17. البكري،المسالك والممالك،المجلد الثاني،دار الكتب العلمية،بيروت لبنان،ط1424،1ه/2003م ص248.

نفرح بالشمس إذا ما بدت

فرحة الذمّي بالسّبْتِ

وما نقله البكري أيضا حكاية عن رجل من أهل تاهرت نظر إلى توقد الشمس بالحجاز فقال:احرقي ما شئت فوالله إنك لذليلة بتاهرت[18]

وقد عرفت هذه الدولة،كما ذُكر آنفا إقبال كثير من الناس عليها للعيش في كنفها لما عرفت به من تسامح بين المذاهب و حتى الأديان،فقد «عاش في حضنها طوائف دينية أجنبية عن الإسلام والمذاهب الإسلامية الأخرى، فلم يظهر لها تعصُّبٌ،ولم تقيِّد حريَّة النّاس.» [19]يؤكد هذه الحقيقة مؤرخهم المعروف ابن الصّغير«ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحُسْن سيرة إمامه وعدله في رعيته وأمانه على نفسه وماله، حتى لا ترى داراً إلا قيل هذه لفلان الكوفي، وهذه لفلان البصري،وهذه لفلان القروي،وهذا مسجد القرويين ورَحْبَتِهم،وهذا مسجد البصريين،وهذا مسجد الكوفيين،واستعملت السبل إلى بلد السودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب

[18] . نفسه،ص67.(بتصرف يسير).

[19]. محمد الطمار،تاريخ الأدب الجزائري،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،د ط، 2006م،ص73.

الأمتعة»[20]

عاش المجتمع الرُّستمي في تكافل وتراحم،وانتشرت به الحرف والصناعات وقصده كثير من راغبي الاستقرار بعد أن ذاع صيت الدولة بين البلدان،وقصدها العلماء وأرباب الصناعة والحرف المختلفة لأنها كانت في مرحلة البناء«وعماد المجتمع الخلق الحسن والعادات الراقية والعِلْم الغزير.فبطبيعة الحال أن يكون راقياً.والتاريخ يشهد بأن الفتن كانت قليلة لا تأتي إلا من دسائس الملوكيين المغرضين لأنهم يكرهون الإمامة الإسلامية التي لا تخاف في الله لومة لائم في نصرة الحق و لا تألو جهداً في نشر العدل والتي يتنافى مبدأها والمحاباة والظلم والطغيان.فالدولة كانت حسنة الجوار،لا تعتدي على الغير،ولا تريد اتساعاً بحد السيف و القوَّة ،تفضِّل أن تأخذ بيد الشَّعب للوصول به إلى ذرى الرُّقي والازدهار المادي والأدبي.فشيَّدت القصور والمساجد والمنتزهات وقصد العاصمة أهل العلم وأرباب الصناعات والحرف من شتَّى الأقطار الإسلامية،وتحسَّنت شؤون البلاد الاقتصادية،فازدهرت الفلاحة والصِّناعة والتجارة.فعمَّ البلاد الاستقرار والأمن والرَّخاء.»[21]

ومنذ تأسيسها،عملت الدولة الرّستمية على بناء علاقات تبادل مع جيرانها على أساس من المودَّة والاحترام المتبادل ونجحت في إقامة علاقات حسن جوار مع كل جيرانها الأقربين وتبادلت المصالح مع غيرهم من الدول البعيدة نسبياً عنها جغرافياً«ويذكر التاريخ أن الدولة

[20]. ابن الصغير المالكي،أخبار الأئمة الرّستميين،تح وتعليق محمد ناصر وإبراهيم بحاز،دت ،د ط، ص 33/32.
[21]. محمد الطمّار،تاريخ الأدب الجزائري،مرجع سابق،ص72.

الرُّستمية كانت ميّالة إلى السِّلم وأن كافة حروبهم مع جيرانهم كانت للدِّفاع فقط باستثناء مرّةٍ واحدة اتَّخذوا فيها موقف الهجوم،لما حاصر عبد الوهّاب بن رستم طرابلس سنة 196هـ/812م»[22]

وزيادة على هذا وذاك،فقد كانت الدولة الرّستمية تتفوّق في جانب آخر لعل كثيراً من الدول والدويلات التي شهدها المغرب الإسلامي عموماً والمغرب الأوسط على وجه الخصوص لم تسمح به في النطاق الذي تبسط سيطرتها عليه،ألا وهو حرية الفكر والدين،فقد اشتهرت الدّولة الرُّستمية بالحرية الفكرية والدّينية،في وقتٍ انتشرت العصبيات بين المذاهب وتحزَّب كلُّ فريق لنُصرة مذهبه والدِّفاع عنه.وطبَّق هذا المبدأ الإمام عبد الرحمن بن رستم هذا «فلم يَقْمَعْ المخالفين لمذهب الدّولة،بل سمح لهم بالعيش في كنفها،فكانت لهم بيوتهم ومساجدهم الخّاصة التي يعرفون بها»[23]

أما دولة الأغالبة التي تأسّست في القطر التونسي الشقيق في أواخر القرن الثاني الهجري،وقد «تقلَّد إبراهيم بن الأغلب التميمي أمر أفريقية والمغرب من قبل الرشيد هارون سنة خمس وثمانين ومائة فاضطلع بأمر هذه الولاية،وأحسن السِّيرة و قوَّم القتاد ورأب الصدع وجمع الكلمة .و رضيت الكافة واستقلَّ بولايتها

---

[22]. محمود إسماعيل عبدالرزاق،الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري،دار الثقافة،الدار البيضاء،المغرب،ط1406،2هـ/1985م،ص185.

[23]. مهنا بن راشد بن حمد السّعدي،الشيخ عمروس ومنهجه الفقهي والعقائدي من خلال كتاب أصول الدّينونة الصّافية،مطابع النَّهضة،(مكتبة الجيل الواعد)،ط1424،1هـ/2004م،ص98.

غير مُنازع و لا متشوه،و توارثها بنوه خالفاً عن سالف.» [24] وكانت القيروان عاصمة للأغالبة،وامتدّ نفوذها إلى مناطق من الشرق الجزائري (قسنطينة [*] ومنطقة الزّاب)«وقد امتدّ نفوذهم في "المغرب الأوسط" إلى مدينة "بجاية" في الشّمال ومدينة"طبنة" التي كانت تقع في وسط إقليم الزّاب الجزائري» [25]،وكان المجتمع الجزائري الذي كان يعيش في منطقة طبنة«خليطاً كما شهد بذلك المؤرخون الذين زاروها وقتئذ.وما ذهبوا إليه صحيح لأن تلك المدينة كان يسكنها عناصر مختلفة في الأطوار التي عاشتها؛ كان بها البربر وعناصر من الجند الرُّوماني و الوندالي والبيزنطي،ثمَّ العرب، ثمَّ جنود بني الأغلب وهم كذلك خليط من فارسيين وسوريين وعراقيين وغيرهم لم يكونوا إذاً من أرومة واحدة،ولكنَّ الإسلام وحَّد بينهم وألف قلوبهم ونظَّم سلوكهم، و ربطهم،زيادة على الدِّين،والمذهب المالكي والقوانين الوضعية النّاشئة عن العادات والتَّقاليد والتّنظيم السّياسي والاجتماعي والاقتصادي.» [26]

وقد امتدَّ وجود الدولة الأغلبية مدَّة فاقت القرن من الزّمان،حيث أنها على ما تذكر كتب التاريخ تمَّ تأسيسها على يد إبراهيم

---

[24]. ابن خلدون،تاريخ ابن خلدون،الجزء6،مرجع سابق،ص 149/148.

* جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي قُسَنْطينة:بضمِّ أوله،وفتح ثانيه ثمّ نون،وكسر الطّاء،وياء مثناة منتحت،بعدها ياء خفيفة،وهاء ،مدينة وقلعة يقال لها قسنطينة الهواء،وهي قلعة كبيرة جدا حصينة عالية لا يصلها الطير إلاّ بجهدٍ،وهي من حدود إفريقية ممايلي المغرب لها طريق واتصال بآكام متناسقة جنوبيها تمتدُّ منخفضةً حتّى تساوي= =الأرض وحولها مزارع كثيرة وإليها ينتهي رحيل عرب إفريقية مغربين في طلب الكلأ،وتزّاور عنها قلعة بني حمّاد ذات الجنوب في جبال وأراضٍ وعرة.ص 349،من المجلد الرابع.

[25]. نفسه،ص 85.

[26]. محمد الطمار،تاريخ الأدب الجزائري،مرجع سابق،ص86.

بن الأغلب المستقل عن الخلافة العباسية عام أربع وثمانين ومائة للهجرة(184هـ)الموافق لعام ثمانمائة للميلاد(800م)،واندثرت على يد الشيعة في سنة ست وتسعين ومائتين للهجرة(296هـ) الموافق للسَّنة التاسعة بعد المائة التاسعة ميلادية(909م) تاريخ فرار الأمير الأغلبي زيادة الله بن الأغلب من البلاد وتركها في أيدي الشيعة العبيديين،ولابد من الإشارة إلى أن المؤسِّس الأول لدولة الأغالبة إبراهيم بن الأغلب «كان فقيهاً، أديباً،شاعراً،خطيباً،ذا رأيٍ ونجدةٍ وبأسٍ وحزمٍ وعلمٍ بالحروب ومكايدها،جريء الجَنان،طويل اللِّسان، لمْ يَلِ إفريقية أحسنُ سيرةٍ منه،ولا أحسنُ سياسةٍ ولا أرأفُ برعية،ولا أوفى بعهدٍ،ولا أرعى لحرمةٍ منه، فطاعت لهُ قبائل البربر وتمهّدت إفريقية في أيامه.»[27]

وقال عنه ابن الخطيب:«وكان إبراهيم هذا فقيها عالماً شاعراً خطيباً ذا رأيٍ وبأسٍ وحزمٍ وعلم بمكايد الحروب،جريء الجنان،طويل اللسان،قمع الشَّرَّ بإفريقية،وضمَّ الكلمة،وضبط الأمور،وأحسن التّدبير،وأوسع العطاء،وهو أول من اِتَّخذَ العبيد لحمل سلاحه،واستكثر من طبقاتهم،واستغنى عن اِستعمال الرعيةِ في شيءٍ من أموره،وكان يتولَّى

[27]. ابن عذارى،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،الجزء الأول،تحقيق ومراجعة ج.س كولان وإ.ليفي بروفنسال،دار الثقافة بيروت لبنان،ط3،1400هـ 1980م ،ص 92.

الصلاة بنفس بالمسجد الجامع من القيروان.»[28]

تعتبر الدولة الأغلبية أول دولة في إفريقية تتمتّع باستقلال ذاتي تحت مظلة الدولة العباسية،وذلك بعد أن «أصدر هارون الرشيد أمره في أواسط جمادى الثانية 184هـ ـ جوان 800م بعزل محمد بن مقاتل العكّي عن ولاية إفريقية وتولية إبراهيم بن الأغلب عليها وجعلها وراثية في عقِبه ومنحه شبه استقلال داخلي،وهذا ما يسمّى في اصطلاح الإدارة ونظام الحكم العباسي بإمارة التفويض أو الاستكفاء وهي الإمارة العامة.وهو يرمي بذلك إلى تمكين المغرب من الدفاع عن حوزة الخلافة العباسية أمام الدولتين الناشئتين بالمغرب:دولة العلويين ـ الإدريسية ـ القائمة يومئذ بالمغرب الأقصى،ودولة الأمويين بالأندلس،ومن هنا ابتدأ استقلال إفريقية الذاتي،فكانت بذلك ولاية المغرب هي أول من استقلّ بالحكم من ولاية من الولايات العباسية في العالم الإسلامي يومئذ وكان مما ساعد الأغالبة على الإقدام على هذه الخطّة هو بعد موقع البلاد عن دار الخلافة العبّاسية ومساندة البربر لهم على ذلك في أول الأمر.»[29]

وقد كانت المناطق الواقعة في أرض الجزائر حاليا تعيش فترة من الازدهار الاقتصادي مما انعكس إيجاباً على المجتمع الجزائري

---

[28]. لسان الدين بن الخطيب،أعمال الأعلام،القسم الثالث،تح أحمد المختار العبادي و محمد إبراهيم الكتاني،دار الكتاب،الدار البيضاء المغرب،د ط، 1964م،ص 14.

[29]. عبد الرحمن الجيلالي،تاريخ الجزائر العام ،مرجع سابق،ص 95/94.

آنذاك،وكذلك على الحياة الاجتماعية بصفة عامة؛وخاصة منطقة الزّاب فإنه يُذكر أنه «كان بها قصور وحدائق غنّاء ما يفسّر أن البلد كان يتمتّع باقتصادٍ يبعث على الارتياح.وكيف لا وهو أكبر بلد بالمغرب بعد القيروان وأهمُّ سوق وسط إقليم الزّاب تؤمُّها القوافل التِّجارية من كل جانب:من إفريقية وغرب المغرب الأوسط والصّحراء،ثمَّ تحتضِنُ صُنّاعاً حاذقين سيّما في صنع الزّرابي،ثمَّ أرضه خصبةٌ تعتني بها يدٌ ماهرةٌ لها خبرة كبيرةٌ بالرّي.وكانت السُّلطات من ناحيتها جادَّةً في نشر الأمن الذي من شأنه أن يُنمّي الحركة الاقتصادية ويجعل السُّكان ينعمون ويأخذون نصيبهم من الحضارة الإسلامية في راحةٍ واطمئنان.» [30]،ولا شكَّ أن ازدهار الحياة الاقتصادية يكون له بيِّنُ الأثر على مناحي الحياة المختلفة وخاصة في الجانب الأدبي والإبداعي ،وهذا ما سنتعرف إليه في الفصل الذي سنخصصه للحديث عن الجوانب الثقافية بالمغرب الأوسط في ظل الدولة الأغلبية.

ومما يجدر ذكره في هذا المقام تلك الأحداث والاضطرابات الاجتماعية التي شهدتها الجزائر على عهد الدولة الأغلبية في إقليم الزّاب«وأغلبها يرجع إلى نفور الشعب الجزائري من سوء معاملة السُّلطة الحاكمة المتمثِّل في ظلم بعض ولاّتها و جورهم.وقد قام بعملية القمع

[30]. محمد الطمّار،تاريخ الأدب الجزائري،مرجع سابق،ص 86.

والزّجر يومئذ إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب فقضى على أهل الزّاب قاطبة كبيراً وصغيراً وحَمَلَهُم على العَجَل ـ عربات النّقل ـ فألقى بهم في الحفر سنة 268هـ ـ 781م كما أوقع بأهل بلد بلزمة ـ على مسافة 27 كيلومتراً في الشّمال الغربي من مدينة باتنة ـ سنة 280هـ ـ 893م.وقام بمثل ذلك أبو العبّاس بن إبراهيم الأغلبي سنة 286هـ ـ 899م فأوقع ببني بلطيط ببسكرة فقاتلهم وشرّدهم في البلاد،ثمّ كان منه بعض إصلاح لما جرّته هذه الوقائع من التخريب والتّدمير.وعاد أبو عبد الله الأغلبي بأمر والده إبراهيم بن أحمد إلى أهل الزّاب فحملَ عليهم في جيشٍ عظيمٍ سنة 288هـ ـ 901م.ثمّ كان استيلاء محمد بن خزر الزناتي وتغلُّبه على الزّاب سنة 319هـ ـ 931م فسقطت بسكرة بيده.ذلك كله يعود إلى انزعاج الأهالي من جور الحكومة وشططها في المغرم وتأبّيها على طبقات الشعب المغربي.»[31]

وكان لتلك الأحداث التي عرفتها الجزائر في تلك الفترة من تاريخها بالغ الأثر في التعجيل بسقوط الدولة الأغلبية،وكانت فرصة لأتباع المذهب الشيعي المتسلل إلى بلاد المغرب من المشرق لنشر أفكارهم عن طريق دعاة هذا المذهب الذين اتخذوا من التبشير بظهور المهدي المنتظر

[31]ـ عبد الرحمن الجيلالي،تاريخ الجزائر العام،مرجع سابق،ص198.

وسيلة للتقرب من الناس واستعطافهم لدعمهم من أجل قيام دولتهم بأرض المغرب الأوسط.

وبسقوط الدولة الأغلبية على أيدي الفاطميين،قام هؤلاء و أنشأوا بدورهم دولتهم على أنقاضها في سنة ست وتسعين أو سبعٍ وتسعين ومائتين للهجرة (296- 297هـ)الموافق للسَّنة التاسعة بعد المائة التّاسعة للميلاد (909م)؛هذه الدولة تأسست على يد عبيد الله المهدي مؤسس الخلافة العبيدية «و نسبة هؤلاء العبيديين إلى أول خلفائهم و هوعبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر المصَدّق بن محمد المكتوم بن إسماعيل الإمام بن جعفر الصّادق» [32]،وعلى مافي هذا النسب من جدل وخلاف إلا أن ابن خلدون يؤكد صحة نسبه المذكور «و لا يُلتفتُ لإنكار هذا النَّسب. فكتاب المعتضد إلى ابن الأغلب بالقيروان وابن مدرار بسجلماسة يغريهم بالقبض عليه لَمَّا سار إلى المغرب شاهدٌ بصحَّةِ نسبهم وشعر الشريف الرضي في قوله:

أَلْبسُ الذُلَّ في بلاد الأعادي وبمصرَ الخليفةُ العَلَوِيُّ

منْ أبوهُ أبي ومولاهُ مولاي إذا ضمَّني البعيدُ القَصِيُّ

لَفَّ عرقي بعرقه سيِّدا النّا س جميعاً،محمَّدُ وعلِيُّ [33]

[32]. ابن خلدون،تاريخ ابن خلدون،الجزء الثالث دار الفكر ،بيروت لبنان،1431هـ/2000م ،ص 449.
[33]. نفسه،ص 449.

عاش فترة طويلة من حياته بالمشرق العربي في السرية،خوفا من العباسيين،ولم يعلن عن نفسه إلا بعد انتقاله إلى بلاد المغرب

وكان«داعيته الأكبر أبوعبد الله الصنعائي الشيعي بالمغرب يعمل على توطيد الدَّعوة الشِّيعية وتركيز الخلافة وتهيئتها لسيِّده المهدي،فمكث ببني كتامة بجبل أوراس عشر سنين قام فيها بالدَّعوة والأعمال الحربية ولما اطمأنَّ إلى نجاحه في الدّعوة بعث إلى عبيد الله يستقدمه ـ وهو يومئذ مختفياً بمصر فخرج المهدي مع ولده أبي القاسم وأبي العباس أخ الصنعائي فارتحلوا جميعا في زي التجار وجاؤا إلى المغرب.»[34]

ومنذ ظهورهم على مسرح الأحداث عملوا على التمكين لدعوتهم في مختلف أقطار الدولة الإسلامية الناشئة،فقد «أخذ أئمة الإسماعيلية منذ منتصف القرن الثاني الهجري يوجهون جهودهم إلى نشر دعواتهم في كثير من أحجار العالم الإسلامي. وقد لقيت تلك الدعوة نجاحاً كبيراً في بلاد المغرب،كان من ثماره خضوع كثير من مدن المغرب لرعايتهم، ثم قيام الخلافة الفاطمية بتلك البلاد في أواخر القرن الثالث الهجري.ولم يكن سلطان الفاطميين موطّداً في بلاد المغرب في النصف الأول من القرن الرّابع الهجري ولذلك اتجهت جهود خلفائهم إلى ضبط الأمور

[34]- ، عبد الرحمن بن محمد الجيلالي،تاريخ الجزائر العام،مرجع سابق ،ص 214.

بتلك البلاد.»[35]

عرفت فترة الفاطميين في الجزائر شدة كانت في البداية جرّاء ما حدث من حروب وفتن مسّت طوائف شتّى من المجتمع الجزائري في تلك الأثناء،فقد«كان المذهب المالكي سائداً حينئذ في "الزّاب" لم ينل منه المتكلمون ولا الخوارج.ولكن لم يلبث أن ظهر مذهب الشيعة المعادي لكل مذهب آخر،وحاول صاحبه أن ينشره بين النّاس بالإكراه والعنف لا بالحجَّة والبيان كما كان الأمر قبل أن يدخل "المهدي".ومبادئ الشيعة متطرفة.فأغضبت وأثارت أهل السُّنَّة عليهم،فناظروهم وساجلوهم،ولكنّهم قاسوا من جرّاء ذلك مِحناً لا تُنْسى.فاستشهد عددٌ عظيمٌ منهم،ولم ينجُ من أذى الإسماعيلية من السُّنّيين إلا من غادر البلاد إلى المشرق أو الأندلس.وكان منهم الطبنيون...فإن سياسة الفاطميين أضرّتْ بالحياة الاجتماعية والدينية والاقتصادية في أوائل أيامهم وقضوا على الأحزاب المعارضة واسْتتبَّ لهم الأمر»[36]

ومع كل ذلك فإن الدولة الفاطمية الشيعية «قامت في المغرب على أكتاف المغاربة من بربر كتامة وصنهاجة في أواخر القرن الثالث الهجري(297م)،ثمّ انتقلت إلى مصر بعد منتصف القرن الرابع

---

[35]. محمد حسن العيدروس،المغرب العربي و حكم الدولة الفاطمية نصوص وثائقية تاريخية،دار الكتاب،القاهرة، ط1، 1432هـ/2011م، ص 141.

[36]. محمد الطمار،تاريخ الأدب الجزائري،مرجع سابق،ص103.

الهجري(358م)، واستطاعت أن تُمدّ نفوذها من القاهرة إلى معظم بلاد الشرق العربي إلى أن سقطت أخيرا على يدي صلاح الدين الأيوبي سنة 567هـ (1171م)».[37]

ولكن ذلك لم يدم طويلا، فعرفت البلاد ازدهارا في الميادين الاقتصادية والاجتماعية بعد فترة عصيبة مرّت بها «فعاد حينئذٍ إلى البلاد ما فقدته من الاستقرار وعاد إليها الرّخاء.فأُنْشِئتْ معامل حربية لصنع الأسلحة "ببونة" و"القالة"،وتكوّنت معامل الزُّجاج ونسائج الصُّوف والحياكة،وكان يُستخرجُ من مرسى القالة الصّدف والودع والمرجان.فنشطت التِّجارة برّاً وبحراً،واستأنفت القوافل حركاتها عبر الصّحراء إلى بلاد السُّود.وكان مرفأ الأسطول للحطّ والإقلاع "بجاية" ومراسٍ أخرى ونشطت الفلاحة أيضاً. كلُّ هذا أثَّر في اقتصاد البلاد التي عمّتها الرّفاهية والدَّعةُ.»[38]

وكان لهذا الازدهار بعد فترة العسر والصعوبة التي عرفتها البلاد الأثر الطيب على الحياة العقلية والأدبية التي يأتي الكلام عنها في مكانه من هذا البحث،خاصة بعدما قويت شوكة الفاطميين في البلاد وامتدَّ نفوذهم شرقا وغرباً،فقد قضى الفاطميون على الدولة الرّستمية

---

[37]. محمد حسن العيدروس،المغرب العربي و حكم الدولة الفاطمية نصوص وثائقية تاريخية،مرجع سابق،ص 142.
[38]. نفسه،ص 103،104.

بالجزائر وتمكنوا من الاستيلاء على عاصمتها تاهرت وسيطروا على القيروان التي كانت عاصمة الدولة الأغلبية في تونس وراح نفوذها يزداد وتوسّعت حتى سيطرت على مصر وأسَّس "جوهر الصقلي "القاهرة وبتأسيسها قرر المعزُّ أن تكون هذه الأخيرة عاصمة لملكه.

وإذا انتقلنا للحديث عن الدولة الحمادية ،وهي آخر الدول التي تهمُّ البحث،«هذه الدولة هي شعبة من دولة آل زيري و كان المنصور قد عقد لأخيه حماد على أشير و المسيلة،و كان يتداولها مع أخيه يطوفت وعمِّه أبي البهار،ثُمَّ استقلَّ بها سنة سبع وثمانين وثلثمائة أيّام باديس من أخيه المنصور و دفعه لحرب زناتة سنة خمس و تسعين وثلثمائة بالمغرب الأوسط من مغراوة زبني يفرن... واختطَّ مدينة القلعة بجبل كتامة سنة ثمان و تسعين و ثلثمائة.»[39]

و إنه يمكننا أن نرصد ملاحظات عديدة حول هذه الدولة، والمجتمع الحمّادي؛تلك الدولة التي تأسست على يد حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي الذي اختطَّ القلعة وجعلها عاصمة دولته الفتية،وذلك على اختلاف في سنة التأسيس؛فمنهم من يرى أنه كان في السنة الثامنة بعد المائة الرابعة(408هـ)،ومنهم من يرى أن تأسيسها كان قبل ذلك بثلاث سنوات أي في السنة الخامسة بعد المائة الرابعة(405هـ) ومنهم

[39]. ابن خلدون،تاريخ ابن خلدون، ج6،دار الفكر ،بيروت لبنان،1431هـ/2000م،ص 227.

من يرى أن تأسيسها كان في نهاية القرن الرابع الهجري أي سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة[40]

ومهما يكن من أمر الاختلاف في هذا،فإن التأسيس قد تمَّ بعد خلافات مع الزيريين الذين كانت لهم السلطة ،ولكن طموح حماد في الاستقلال عن بني زيري وهم أبناء عمومته بعد أن اختطَّ "القلعة" وجهّزها أعلن استقلاله بها ،ولكنه لم يهنأ بذلك ،وحدثت حروب طاحنة بينهم وبين ابن أخيه باديس كثيرا ما كانت تنتهي لصالح ابن أخيه،إلى أن توفي باديس فعاد النصر ليبتسم له مرة أخرى،واستتب له الأمر بعد ذلك.و«وقد كُتب لهذه الدّولة أن تظهر إلى الوجود على يد أبناء المغرب الأوسط من رجال صنهاجة وكتامة،ممن شبُّوا في ظلِّ الإسلام وتمرَّسوُا بمدنيته في مجال التَّسيير والقيّادة والتّعمير،وهو ما هيَّأهُم لأن يأخذوا زمام أمر هذه البلاد بأنفسهم مُسْتقلِّين عن المركزية العُبيدية التي قامت على كاهلهم،وتحوّلت إلى بلاد المشرق مُعَوِّلةً على عصبيتهم وقوّتهم.»[41]

وبعد هذا عملت الدّولة الفتية على توطيد وجودها،وانفتح المجتمع

---

[40]. ينظر في هذا الخصوص:عبد الرحمن بن محمد الجيلالي،تاريخ الجزائر العام،الجزء الأول،و محمد بن مبارك الميلي،تاريخ الجزائر في القديم والحديث،وعثمان سعدي،الجزائر في التاريخ.

[41]. سليمان عشراتي،الشّخصية الجزائرية(بانوراما المشهد الحضاري لميلاد الدّولة الحمّادية)،الجزء الثّاني،دار الغرب للنّشر والتّوزيع،دت،د ط، ص05.

الجديد على كل الطوائف،وأقام علاقات مع الدول المجاورة ففي «المجتمع الحمّادي كانت هناك طوائف أخرى لاجئة إليه لجوء الاستقرار والاندماج،فعندما ضعُف سلطان المسلمين في الأندلس وصقلية وغيرهما من الأماكن التي تعرضت لعمليات إبادة و إزعاج من جانب الزحف الصليبي،كان الحماديون هم الملجأ الذي يأوي إليه هؤلاء »[42].

وفي ميدان بناء علاقات تبادل تجاري مع جيرانها،وعلاقات صداقة قائمة على حسن الجوار والتعاون في شتّى المجالات،فإنّنا نجد الحمّاديين «قد وطّدوا في أوَّل عهدهم صلاتهم الودِّية بروما،والجمهوريات الإيطالية الأخرى،وأبرمَ الناصر معاهدة"بيزا" وخوَّلَ لتُجّارها حقَّ المتاجرة مع بلاده،وتواصل مع "البابا" "غريغوري السّابع"الذي أجابه برسالة أبلغه فيها سروره على قبوله تعيين أسقف مسيحي في عنّابة،وعلى إطلاقه سراح أسرى مسيحيين،وتعهُّده بإطلاق سراح كلِّ من يقع في الأسْر بمملكته.»[43]

وهذا يثبت أن المجتمعات الإسلامية في مختلف الدول والإمارات كانت مفتوحة على كل الأجناس والديانات،عاشت بينها تلك الأجناس المختلفة ومن كل الديانات الأخرى،تتمتع بحقوقها كاملة مثلها مثل

---

[42] ـ عبد الحليم عويس،دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري،دار الصحوة، القاهرة،ط2، 1411هـ 1991م ،ص237.

[43] ـ يحي بوعزيز،أعلام الفكر والثّقافة في الجزائر المحروسة،الجزء الأول،دار الغرب الإسلامي،ط1995،1م،ص 14.

المسلمين و«كان المجتمع الحمّادي مفتوحاً،يضُمُّ في جسمه نماذج مختلفة الجنس والفكر،وبصرف النظر عن أن هذه الحقيقة تكاد تكون سمةً عامةً في المجتمعات الإسلامية في هذه القرون،فإنها كانت سمةً بارزةً،على نحو خاص،بالنسبة إلى الدولة الحمادية،فطبيعة سياستها،وموقعها في المغرب العربي والملمات التي ألمتْ بالمغرب والأندلس في القرنين الخامس والسّادس للهجرة،كل هذا ساعد على أن يكون المجتمع الحمّادي مفتوحاً على نحوٍ بارزٍ»[44]

ولذلك فإنّنا نجد المجتمع في هذا العهد ـ أي الحمّادي ـ «متكوّناً من عدَّة قبائل منها قبيلة تلكاتة وكتامة و زناتة» [45]،وكلُّها قبائل جزائرية بربرية تنتمي إلى المغرب الأوسط وتتخذ من أرضه موطنا لها لا بديل عنه.

وقد كانت عاصمة الدولة الحمادية في تلك الفترة مدينة القلعة التي اختطّها حمّاد«بجبل كيانة سنة 398هـ ـ 1007م و بنى فيها المباني وأحاطها بسور فني فازدهرت وصارت قبلة للعلماء والأدباء يؤمونها من سائر أرجاء المغرب والأندلس.»[46]

وشهدت القلعة وبجاية والناصرة وغيرها من المدن الحمادية

---

[44]. عبد الحليم عويس،دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري،دار الصحوة للنشر والتوزيع،القاهرة،ط2، 1411هـ 1991م،ص235.

[45]. عمورة عمار،موجز تاريخ الجزائر،دار ريحانة للنشر والتوزيع،ط2002،1م،الجزائر،ص 62.

[46]. عثمان سعدي،الجزائر في التاريخ،مرجع سابق،ص 278.

فترات ازدهار متميزة وصارت تلك المدن مقصد الكثير من العلماء والأدباء وأصحاب الحرف والصنائع،وعرفت حضارة وعمرانا فقد بنيت بها القصور الجميلة وتوفرت بها السلع ونشطت التجارة مع أوربا وإفريقيا،إلى خلافة يحي بن عبد العزيز«الذي كان منحلا منصرفا إلى اللهو والمجون،إيذاناً بانتهاء هذه الدولة التي أدّتْ دوراً كبيراً في تاريخ المغرب العربي والعروبة والإسلام.وأسدل الستار نهائياً على هذه الدولة بدخول عبد المؤمن بن علي مدينة بجاية وقلعة بني حماد سنة547هـ.»[47]

وبذلك انتهت فترة من أزهى الفترات في تاريخ المغرب الأوسط رغم ما كان فيها من اضطرابات في البدايات الأولى لتأسيس دولة بني حماد.

2/ الجوانب السياسية:

سنتطرق في هذا الجزء لسياسة الحكم التي سادت المغرب الأوسط خلال الفترة الممتدة من الفتح الإسلامي لهذا البلد إلى غاية نهاية الدولة الحمادية،وعلى امتداد هذه المسافة الزمنية سنتعرف على مختلف النظم التي سادت في بلاد المغرب الأوسط،ومن خلال ذلك

[47]. نفسه ،ص 280.

نحاول أن نعرف مراحل تسيير الدول المتعاقبة على حكمه،وكذا ما دار في تلك الفترة من تاريخ الجزائر من محطات جديرة بالوقوف عندها؛من رخاء وازدهار أو ظلم من الولاة واندثار لسياستهم وثورات قامت ضد بعضهم الآخر إلى تلك الدول التي قامت متزامنةً أو على أنقاض بعض،أو تلك التي شهدت صراعات داخلية أو خارجية.كما نبحث في المذاهب والعقائد التي كانت منتشرة في تلك العهود من تاريخ المغرب الأوسط،وذلك من أجل الوقوف على محطّات هامّة تاريخ المغرب الأوسط في مختلف المناحي.

ونبدأ بفترة الفتح وخاصة بعد الفتح النهائي لبلاد المغرب عموماً وبلاد المغرب الأوسط على وجه الدِّقَّة والتَّحديد،فإنه من المعروف أن أوائل الفاتحين إنما حكموا البلاد المفتوحة بالكتاب والسُّنَّة وكذلك كان شأن بلاد المغرب الأوسط .

فـ«لا نشكُّ ونحن في هذا الدّور الأول من تاريخ الفتح الإسلامي للمغرب،في أن المغرب يومئذٍ كان في تديُّنه بالإسلام متمسِّكاً به على طريق المذهبية أو الدّعوة السياسية في عقيدته أو في عبادته ومعاملاته كلاًّ،بل نراه بعيداً عن ذلك كلِّه حيث لم تكن حينئذ مدارس أو آراء لهذه المذاهب مدروسة منظَّمة ولا مناهجها وقواعدها معروفة إذ ذاك،والكثير منها كان منعدماً لم يُكتب له وجود بعد،فكانت العقيدة

والعبادة والمعاملة وكل ما جاء به الصّحابة والتّابعون معهم لفتح هذه البلاد هو ما تلقّنوه وسمعوه من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو حفظوه عن بعضهم بعض ممن شاهده منهم من الأصحاب :من قول أو عمل أو تقرير.»[48]

وكان إلى جانب من دخل الإسلام من سكان المغرب الأوسط قوم بقوا على وثنيتهم أو مسيحيتهم أو يهوديتهم من البربر من قبائل الجزائر في ذلك العهد ولكنهم كانوا قلّة إذْ أنَّ أغلب البربر لما علموا حقيقة الإسلام،وخاصة بعد الأعمال التي قامت بها الكاهنة من تدمير للقرى وإتلاف للمحاصيل الزراعية وقطع للأشجار وحرق للغابات اعتقاداً منها أن العرب مثلهم مثل الأمم السابقة التي احتلت بلاد البربر إنما جاءت أرضهم لأجل استغلال خيراتها ونهب وسلب ما يقع تحت أيديهم من ممتلكاتها،فكان ذلك بمثابة وبال عليها،ودفع البربر إلى مساعدة المسلمين ضدها،ومنذ ذلك الحين أصبح المغرب الأوسط تحت ظل الراية الإسلامية إلى يوم الناس هذا.

إذن فإن ما قامت به الكاهنة من أعمالٍ طالت المزارع والحقول وأتت على الأخضر واليابس ظنّاً منها أن ذلك سيصرف الفاتحين عن بلادها،لكنَّ ذلك كان بمثابة انقلاب السِّحر على السّاحر

[48]. عبد الرحمن بن محمد الجيلالي،تاريخ الجزائر العام،الجزء الأول،مرجع سابق،ص 165.

فأمسى بذلك قومها عنها ساخطين،بما اقترفت في حقِّهم و كان سبباً في انهزامها أمام قوات الفاتح العظيم حسّان بن النُّعمان.ومنذ تلك اللحظة أصبحت الجزائر تحت راية الإسلام،وصار أهلها من أشدِّ المنافحين عن الدِّين الجديد الذي اعتنقوها بعد قناعة تامّة أنه ليس احتلالاً لوطنهم ؛وتكوّن من أبنائها جندٌ عظيم فتحت الأندلس بأيديهم وتحت قيادة بطل من أبطالهم.

ولكن ذلك الوضع الذي عرفته بلاد المغرب الأوسط لم يدُم على حاله،فقد جدَّ فيه الجديد ودخلت إلى بلاد المغرب عموماً طوائف ومذاهب ؛عرفها بدايةً المشرق العربي وانتقلت إليه تدريجيا إمّا بحثا عن مكان تحت الشَّمس أو هروباً من واقع كانت تعيشه الدّولة الإسلامية الفتية والتي دخلتها طوائف وأجناس ومذاهب شتّى، كان له تأثير كثير أو قليل على مجرى الأحداث في ذلك العهد،ولابدَّ أن نشير أن تلك التغيُّرات بدأت بعد التّوسُّع الجغرافي للخلافة الإسلامية والحركة العلمية التي شهدتها الدولة الإسلامية وظهور مذاهب المتكلمين،وانتشار حركة التأليف والترجمة مما مكّن المسلمين من الاطلاع والتعرف على كثير من الفلسفات والمعتقدات التي كانت سائدة بين الأمم السابقة،وكانت قد بدأت في الظهور كما يشير الباحثون بعد وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلَّم ـ ونجد في التقديم لكتاب "الملل والنحل" للشهرستاني كلاماً يؤيد

هذا و ممَّا جاء فيه:«لا سيّما مشكلة الحكم التي ظهرت بعد وفاة النبي ـ صلى الله عليه وسلّم ـ بصورة مباشرة،حيث أدّى الخلاف بشأنها إلى تمزُّق وحدة المسلمين،وانقسامهم إلى اتجاهات مختلفة،اتخذت طابعا سياسياً في بادئ الأمر،قبل أن تتسع دائرة الخلاف الدِّيني والإيديولوجي بينها،ممّا أسهم في ظهور العديد من الفرق الإسلامية التي تشعّبتْ إلى عدَّة فرق متباينة في مفاهيمها وطروحاتها الدِّينية والسيّاسية والاجتماعية.»[49]

هذا الظهور للمذاهب والفرق لم تكن بلاد المغرب الأوسط بمنأىً عنه،فقد كانت هذه البلاد ملاذاً للهاربين من أصحاب هذه الملل والفرق من بطش الدولة الأموية أو العباسية،وذلك لبعدها عن مركز الخلافة في دمشق أو بغداد « ورغم بعد المغرب الإسلامي عن منشإ تلك الفرق إلا أنّ بعضها سينتقل إليه ليزاحم المذهب السُّنّي أو مذهب الجماعة – الذي تأصّل بفضل عدد من العوامل – كالمذهب الخارجي،والشّيعي،وحتى بعض فروع المذهب السُّنّي،كالمذهب الحنفي ومذهب المعتزلة ولقد أثَّرت تلك المذاهب في حياة المجتمعات المغربية على جميع الأصعدة حيناً من الدَّهْر،ليتلاشى بعضها تماماً كالمذهب الشيعي والصُّفري،وينكمش البعض أو يتأقلم مع المذهب السُّني ،مثل

[49]. الشهرستاني،الملل والنحل، تح أمير علي مهنا و علي حسن فاعور، الجزء الأول،دار المعرفة بيروت لبنان،ط14143،3ه/1993م،ص5.

المذهب الإباضي.» [50]،كما أن ظروفاً أخرى مكَّنَتْ لظهور هذه الفرق؛ منها على وجه الخصوص وجود الأرضية مهيَّأةً لها بعد تعرض سكان البلاد إلى الظُّلم من قبل بعض الولاة والقادة الذين اختلفوا على بلاد المغرب الأوسط«وشكَّلت سنوات بعد ذلك المعقل الرئيسي لحركات المعارضة السياسية والفكرية لنظام الخلافة الأموية،لقد انتشرت بها تيارات الخوارج الصفرية والإباضية وأفكار المعتزلة والواصلية والشيعة والزيدية.»[51]

وفي الحقيقة أن بلاد المغرب عموما والجزائر(المغرب الأوسط)— خصوصاً لم تكن ملاذا آمناً للنازحين والهاربين بأفكارهم ومذاهبهم من المشرق العربي من المسلمين فقط،بل كانت ملجأً آمنا حتى لأصحاب الديانات الأخرى فإنَّه« لم يخلُ المغرب الأوسط من الأقليات الدِّينية غير الإسلامية في العصر الوسيط ،كانوا يعيشون في دار الإسلام في أمن وأمان،ويؤدُّون طقوسهم الدِّينية في الكنائس والمعابد والبيَّع،وهي حقوق التزم بها المسلمون،مادامت هذه الأقليات أو كما يسمونهم" أهل الذِّمة" يدفعون "الجزية"»[52].

---

[50]. عبد الله خنشالي،أثر النّزعات المذهبية و الرّوحية في الشعر المغربي(من ق2 إلى ق 4هـ)،أطروحة دكتوراه في الأدب العربي القديم،جامعة الحاج لخضر ،،باتنة،2008. 2009م،ص 25.

[51]. علاوة عمارة،دراسات في العصر الوسيط في الجزائر والغرب الإسلامي،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،2008م،ص 99.

[52]. عبد العزيز فيلالي،دراسات في تاريخ الجزائر والغرب الإسلامي،دارالهدى،الجزائر،2012،ص53.

وإذا تكلمنا عن المذاهب الفقهية المعروفة في الشريعة الإسلامية للأئمة الأربعة،فإن الجزائريين بدورهم عرفوا هذه المذاهب التي بدأ ظهورها وانتشارها في المشرق ثم انتقلت إلى بلدان المغرب العربي إجمالاً«وقد عرف أهل المغرب أولاً مذهب أبي حنيفة،ثمَّ ظهر مذهب مالك في القيروان والأندلس،ودخل الجزائر من هاتين الجهتين،وحَمَلَ عليه الناسَ المعزُّ بن باديس،وقطع ماسواه من مذاهب السنِّية وغيرهم.»[53]

وكان للفرق الإسلامية على اختلاف مشاربها وجود في أرض الجزائر كما في غيرها من بلاد المغرب والبلاد العربية،فقد ظهرت الكثير منها في المغرب الأوسط وكان لها أتباعها ومريدوها في مختلف المناطق في الجزائر غربا وشرقاً وجنوباً«ويوجد بينهم الواصلية والخوارج والشيعة،أتى بمذهب الواصلية طائفة منهم زيد بن سنان الزناتي من أهل القرن الثاني،وكان منهم طوائف بنواحي تيهرت ومزاب والزاب.

والخوارج منهم الصفرية بنواحي وهران وتلمسان وبتلغمت فيما بين الأغواط ومزاب،ومنهم الإباضية بمملكة تيهرت،وبقوا بعد سقوط بني رستم بمزاب و ورقلة و وادي ريغ والحضنة وجبل أوراس والزاب والجريد.والشِّيعة منهم الزيدية بالمملكة الإدريسية والإسماعيلية بالمملكة

[53]. محمد بن مبارك الميلي،تاريخ الجزائر في القديم والحديث،مرجع سابق،ص168.

العبيدية.»[54]

لكن ما يجب أن يذكر هنا هو أن إقبال الناس على تلك المذاهب لم يكن عن قناعة وعلم،بل كان نتيجة صراعات قبلية وانقسامات بينها«وكان انقسام البربر على تلك المذاهب لما بين قبائلهم من منافسات وعداء،فتلك المذاهب فيهم نتيجة السياسة لا ربيبة العلم.»[55]

كما أن ما تعرض له البربر من ظلم من طرف بعض الولاة كان سبباً كذلك في إقبالهم على تلك الدعوات ومنها الخوارج فإن البربر« لم يجدوا لهم أفضل من الأخذ بدعوة الخوارج التي يَنُصُّ دستورها على عدم اشتراط القُرشية في الخلافة،وبقوا ينتظرون الفرصة لذلك حتى سنحت لهم على عهد أمير إفريقية عبد الله بن الحبحاب الذي كان وقتئذ مهتمّاً ومنشغلاً بتجهيز جيش لفتح صقلية،فاندفع البربر يومئذ نحو تكوين دولة لهم مستقلة عن الحكومة المركزية.وانتحلوا مذهبي الصفرية والإباضية من الخوراج» [56]، وقد أورد صاحب "الملل والنحل" تعاريف عن هذه الفرق التي ظهرت في ذلك العهد وكان لها انتشار في أغلب البلاد الإسلامية فقد جاء فيه عن الصفرية«هم أصحاب زياد بن الأصفر.خالفوا

---

[54]. محمد بن مبارك الميلي،تاريخ الجزائر في القديم والحديث،مرجع سابق،ص169.

[55]. نفسه،ص169.

[56]. عبد الرحمن بن محمد الجيلالي،تاريخ الجزائر العام،مرجع سابق،ص 152.

الأزارقة،والنجدات،والإباضية في أمور منها:إنهم لم يُكفِّروا القعدة عن القتال،إذا كانوا موافقين في الدين والاعتقاد.» [57]أماعن الإباضية فقد ورد في الملل والنحل أنهم «أصحاب عبد الله بن إباض الذي خرج في أيّام مروان بن محمد،فوجَّه إليه عبد الله بن محمد بن عطية،فقاتله بتبالة وقيل إن عبد الله بن يحي الإباضي كان رفيقاً له في جميع أحواله وأقواله.» [58] وأخبر عن عبدالله بن أباض الدرجيني في طبقاته بقوله«كان عبد الله بن أباض إمام أهل الطريق وجامع الكلمة لما وقع التفريق،فهو العمدة في الاعتقادات،والمبيِّن لطرق الاستدلالات والاعتمادات،والمؤسس لأبنية هي مستندات الأسلاف،والمهدِّمُ لما اعتمده أهل الخلاف،وكان رأس العقد،ورئيس من بالبصرة وغيرها من الأمصار والمتقدِّمُ في حلبة الفضل بين أولئك الأخيار،قعدَ عن اللَّحاق فاشتراه من غير إنكار،وقنع بالخمول من غير قصور ولا إقصار،وقلَى ما اعتمده ابن الأزرق في المحمّدية،وعدل عن طريقي البيهسية والنجدية.»[59]

انتشر مذهب الإباضيين في المغرب الأوسط في ظل الدولة الرُّستمية،والتي كان مذهبها الرئيس إلا أن ما ميّز أئمة بني رستم أنهم لم

---

[57]. الشهرستاني،الملل والنحل،مرجع سابق،ص159.

[58]. نفسه،ص 156.

[59] . الدرجيني،طبقات المشائخ بالمغرب،الجزء الثاني،مرجع سابق،ص 214.

يفرضوا مذهبهم على النّاس فرضاً،بل إنهم تعايشوا مع بقية المذاهب الأخرى فقد«كان ابن رستم مؤسس هذه الدولة على مذهب الإباضية فوضع قواعد دولته على أسس مذهبه الخارجي وكان مع ذلك هو و جميع من خَلَفَهُ على عرش تيهرت متسامحاً مع جميع أهل المذاهب الأخرى من أهل الرّأي وغيرهم،فقد كانت المناظرات والمباحثات العلمية تُعْقد بين أيدي الأئمة في مسائل الاعتقاد وغيرها و ذلك بصدر رحب.» [60] وأكثر من ذلك فقد عاش في ظل الدولة الرّستمية أقوام من ديانات أخرى وكانت لبعضهم مكانة رفيعة في الدولة الرُّستمية منهم« العالم التاهرتي اليهودي يهودا بن قريش التاهرتي،الذي كان عالماً لغوياً يجيد العربية والعبرية والبربرية والفارسية والآرامية كتب في علم اللغة المقارن بين العبرية والآرامية والعربية.»[61]

أما مذهب الشيعة الذي تبنته الدولة الفاطمية وفرضته على أهل المغرب بقوة سلطانها المهيمن على بلاد المغرب عامة،فإنَّ «أول من نشر أفكار الشّيعة بالجزائر منيب بن سليمان المكناسي نزل بأعمال تيهرت و نواحي وانشريس فنشرها هناك بين العامّة،ثمَّ جاء بعده السُّفياني والحلواني نشراها أيضاً ما بين أهالي مرماجنة من بلاد مجانة وسوق حمار بنواحي قسنطينة،وهكذا استمرّت الدَّعوة الشيعية في سيرها

---

[60]. عبد الرحمن الجيلالي،تاريخ الجزائر العام،ج1،مرجع سابق،ص 173.

[61]. عثمان سعدي،الجزائر في التاريخ، دار الأمة للطباعة والنشر و التوزيع،الطبعة الأولى،الجزائر،2011م،ص 248.

سرّاً حتى جاء أبو عبد الله الصّنعاني فأفشاها بهذه الأوطان ثمَّ تعيَّنَ الأخذ بها أيّام أبي عبيد الله المهدي.»[62]

وقد عرفت بلاد المغرب على ذلك العهد اضطرابات كبيرة بعد إصرار الفاطميين على فرض المذهب الإسماعيلي الشيعي على أهل المغرب،وقد عملت طيلة بقائها على التمكين له وقد «قضت الدولة الفاطمية في المغرب . أكثر من نصف قرن . وتولّى الحكم في هذه المدّة أربعة من خلفائها وقد بذل هؤلاء الخلفاء جهوداً كبيرةً للتّمكين للدّولة وتقويتها بالعناصر المقيمة بها سواءً كانت من العرب أو البربر.»[63]وحتى في فتحها لمصر بقيادة جوهر الصقلي استقوت الدولة الفاطمية بتلك العناصر من العرب والبربر على حدٍّ سواء وكان في حملته قبائل كثيرة كما تشير المصادر التاريخية،وهذا يدل دلالة واضحة على اعتماد الدولة الفاطمية على القبائل العربية في فتوحاتها وتحركاتها «فالعبيديون هم الذين أخرجوا العرب من المغرب،ثمَّ كانوا هم الذين أعادوهم إليه لما نبذ الصنهاجيون طاعتهم.»[64]

أما في عهد الدولة الحمادية ببلاد المغرب الوسط ورغم ما عرفته من ازدهار عمراني وتطور علمي وأدبي،إلا أنها شهدت عديد الفتن الداخلية والحروب الخارجية مع جيرانها الأقارب والأباعد فقد«كانت الحياة السياسية مضطربة جداً في العصر الحمادي وكان تنافس شديد بين

---

[62]. عبد الرحمن الجيلالي،تاريخ الجزائر العام،ج1،مرجع سابق،ص 228.

[63]. مصطفى أبو ضيف أحمد عمر،القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1982م،ص 57.

[64]. مبارك بن محمد الميلي،تارخ الجزائر في القديم والحديث،الجزء الثاني،مرجع سابق،ص 178.

أفراد العائلة الحمادية.» [65]، وإلى جانب تلك الفوضى الداخلية والتنافس المحموم حول الكرسي بين أفراد الأسرة الحاكمة فإنَّ الجبهة الخارجية أيضا كانت مشتعلة فـ«بجانب هذه الحروب الأهلية وقعت معارك كثيرة بين الحمّاديين والزّيريين و زناتة وبني هلال والمرابطين والصقليين والإيطاليين وتغيَّرت علاقات أصحاب المغرب الأوسط مع الفاطميين.» [66]،وكل ذلك كان له تأثيره على استمرارية وجود الدولة الحمّادية واستقرارها.

ومع ذلك فقد«كان أمراء هذه الدولة بدءاً من أولهم حماد بن بلكين رجالا عظماء،يهتمون بأحوال الشعب والرّعية ويدعمون نفوذهم وسلطانهم في آن واحد،ويسعون ما وسعهم السَّعيُ إلى نشر الأمن و الأمان في مختلف أرجاء الإمارة،لأنَّ ذلك من الأسباب القوية للتَّقدُّم الاقتصادي والازدهار العلمي و الحضاري،ولذلك عملوا على تنشيط الزراعة والفلاحة والاهتمام بأمر الإنتاج الزراعي والحيواني،والبناء التّجاري،ونشر العمران في أرجاء البلاد لا سيَّما العواصم المدمرة التي قاموا بإنشائها(أشير،القلعة، بجاية) وغيرها من المدن الكبرى والموانئ الواسعة العظيمة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط.» [67]

---

[65]. رشيد بورويبة،الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1977م 1397هـ،ص116.

[66]. نفسه،ص 117.

[67]. عبد الفتاح مقلد الغنيمي،موسوعة تاريخ المغرب العربي،المجلد الثاني،الجزء الثالث،مكتبة مدبولي،القاهرة،ط1414،1هـ/1994م،ص 266.

وبرغم ما شهدته الدولة الحمادية من أحداث جسام وصراع كبير داخل الأسرة الحاكمة ومؤمرات كثيرة«فإن ذلك لم يمنع من أن يكون لبني حماد علاقاتهم السياسية والاقتصادية(التجارية) والثقافية الخارجية مع العديد من الدول المجاورة سواءً في المشرق أو المغرب أو بلاد أوربا رغم أنهم تقوقعوا داخل حدودهم السياسية والتزموا سياسة لا تتَّفقُ مع حركة التّاريخ الإسلامي والظروف والأحداث العالمية التي تجري في تلك الحقبة التاريخية وما تعرَّض له العالم الإسلامي من خطر القوى الأوربية بعد طرد المسلمين من جزر البحر المتوسط وظهور حركة الاسترداد في الأندلس بصورة قويّة،فإنّ بني حماد لم يحركوا ساكناً لكل هذه الأحداث.»[68]

إلا أن الدولة الحمادية الصنهاجية يشهد لها التاريخ بما قدمته للمذهب المالكي«الذي يعتبر بمثابة الخصوصية الثقافية والفكرية لبلاد المغرب فإنَّ التمكين له لم يحدُثْ إلا بعد جهاد مرير وصراع كبير خصوصاً أيّام الفاطميين،حيث قاوم فيه شيوخ المالكية جميع الإكراهات والإغراءات.كما يُلاحظ أن أهم تحوُّل برز في مجال المذهبية ذلك الذي وقع أيّام الصنهاجيين الذين تمكنوا من بلاد المغرب بعد رحيل الفاطميين فخالفوهم مذهبياً وبالتّالي سياسياً،و يبرز في هذا الشّأن حماد بن بلكين

[68]. نفسه، صص 360 361.

كأول زعيم صنهاجي جاهر بالمذهب المالكي وأعلن التّحوُّل من الولاء للشّيعة إلى الولاء للسُّنَّة سنة 50هجرية،ليسير في نفس التّوجه بعد المعزُّ بن باديس.»[69]

وقد عمد أمراء الدولة الحمادية إلى تقريب الفقهاء من المالكية إليهم« الذين وصلوا إلى مراتب راقية في أجهزة الدولة وعلى رأسها القضاء أو الإفتاء للجماهير عبر المساجد.»[70]

وقدكان لانتشار المذهب المالكي بالغ الأثر في استتباب الأمن في ربوع الدولة الحمادية،ذلك أن هذه العناصر المكونة لهذه البيئة الثقافة الحمادية وجود مذهب الإمام مالك وانتشاره من دون المذاهب الإسلامية الأخرى،مما أدى إلى توحيد التوجُّه الفكري لأغلب سكان المغرب العربي عامة،وللحمّاديين بوجه أخصّ،فسلمت بذلك دولة بني حماد من ذلك النّزاع المذهبي الذي كان له أثرٌ سلبيٌ في المشرق العربي في بعض الأحيان.

ومن رجال العلم والفقه والأدب ذلك العهد، يذكر أبو الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوي صاحب قصيدة ''المنفرجة'' وتلميذه ابن الرمامة ومروان البوني والحسن

---

[69]. عبدالقادر بوعقادة،التحول المذهبي في العهد الصنهاجي الحمادي الزيري وأثره على بلاد المغرب الأوسط،آفاق الثقافة والتراث،دبي ،الإمارات،السنة التاسعة عشرة،العدد 74،رجب1432هـ/يونيو(حزيران)2011م،ص7.

[70]. نفسه،ص 14.

بن علي المسيلي وغيرهم من الفقهاء ورجال العلم والأدب الذين بقي ذكرهم خالداً بفضل ما جادت به قرائحهم،وبفضل ما احتفظت به الكتب.

الفصل الثاني

الجوانب الثقافية

الجوانب الثقافية:

يؤكد كثير من الباحثين أنَّ الحركة العلمية والثقافية والأدبية لدول المغرب الإسلامي بعد الفتح الإسلامي انبثقت في أعقاب البعثة العلمية التي قام بإرسالها الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز لتعليم الناس أمور دينهم،«فإنه يمكن القول إن البداية الحقيقية والمنظّمة لتثقيف المغاربة كانت مع قدوم تلك البعثة التي أرسلها الخليفة عمر بن عيد العزيز لأنه بجهود أفرادها دخل من بقي من المغاربة إلى الإسلام وبهم فتحت الكتاتيب أبوابها وتلقّى النّاس ثقافة منظّمة في ظروف سياسية واجتماعية جيدة».[71]

وما إن استقرَّ المقام برجال تلك البعثة بأرض المغرب حتى شرعوا يعلمون الصغار والكبار،فإنه لما أصبح خليفةً عمر بن عبد العزيز ـ للمسلمين سنة تسع وتسعين للهجرة (99هـ)«يرسل إلى إفريقية والقيروان بعثةً من عشرة فقهاء ليعملوا على نشر الدين الحنيف في الدِّيار المغربية واختار أحدهم وهو إسماعيل بن عبيد الله حفيد أبي المهاجر والي القيروان بين فترتي عقبة بن نافع الذي فتح المغرب الأقصى ونشر فيه الدين الحنيف،وكان الحفيد مثل جدِّه

[71]. بشير رمضان التليسي،الاتجاهات الثقافية في الغرب الإسلامي(خلال القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي)،دار المدار الإسلامي،ط1 ،2003م ، ص 70.

تقوىً وسياسةً حكيمةً،فأصلح الجباية وسوَّى فيها كما أمر عمر بن عبد العزيز بين البربر والعرب،وعمل بقوَّةٍ مع زملائه الفقهاء التسعة الذين أرسلهم معه عمر على نشر الدّين الحنيف في المغرب،ودخله منهم أفواج لا تكاد تُحصى.»[72] وليس معنى هذا أن الحركة العلمية و الأدبية لم تُعرف قبل ذلك الزمن،بل كان هناك حركة تعليمية منذ فتح عقبة بن نافع للبلاد،فقد خصَّص رجالاً من أصحابه لتعليم القرآن الكريم لأهل المغرب كما ثبت في عهد موسى بن نصير بعده أنه ترك عند بربر طنجة سبعة عشر أو سبعة وعشرين رجلاً من العرب يعلمونهم القرآن والفقه في الدين« وكان أول من قام على الحركة العلمية بالجزائر الفاتحون الناشرون للإسلام ،إذ كان الجندي الفاتح بمجرد ما يضع قدمه في بلدة أو قبيلة يأخذ في تحفيظ معتنقي الإسلام القرآن الكريم أو بعض سوره وبعض كلم العربية في التخاطب وفروض الإسلام ونوافله،وأخذت الحركة العلمية في الجزائر تنمو سريعاً بفضل الكتاتيب والمساجد وما فيها من حلقات الشُّيوخ حيثُ تُلقى المحاضرات في مختلف العلوم الشَّرعية واللُّغوية،وزاد الحركة سرعةً في النُّمو تأسيس المدارس والزوايا وإنشاء المكتبات فيهما وفي المساجد ،وكانت ترعى الحركةَ

[72]- شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات(الجزائر المغرب الأقصى موريتانيا السودان)،مرجع سابق،ص 26.

العلميةَ الدُّولُ التي نشأت بالجزائر؛ الدولة الإباضية في تاهرت و دولة بني حمّاد في بجاية وقلعتها.»[73]

ومن الذين عملوا على نشر الثقافة والعلم في أوساط الجزائريين في تلك المرحلة؛مرحلة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب حسان بن النُّعمان الذي أرسله الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان في حملة هي الأكبر من نوعها حيث لم يحدث أن ضاهتها حملة على إفريقية بنفس العدد والعُدَّة،حيث «اتخذ حسان بعض التنظيمات الإدارية،فدوَّن الدّواوين ونظَّم الخَراج،وجدَّدَ بناء المسجد الجامع في القيروان وبعث العمال إلى سائر الجهات كما وزَّع الفقهاء ينشرون الإسلام واللُّغة العربية.»[74] وكان هذا دأب كل الولاة الفاتحين لبلاد المغرب الأوسط يعملون على توطيد الصلة بالدِّين الجديد عند البربر،ويحسنون معاملتهم ويشاركونهم في كل شيء.

ومنذ ذلك الحين «وبفضل هؤلاء التابعين وضعت أول بذور العلم والفقه الإسلامي حيث تتلمذ على أيديهم الطبقة الأولى من علماء إفريقية من أمثال أبي كريب المعافري،وعبد الله بن عبد الحكم البلوي وأبي خالد عبدالرحمن بن زياد بن

---

[73]- شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات(الجزائر المغرب الأقصى موريتانيا السودان)، مرجع سابق، ص 06.

[74] . محمد عيسى الحريري،الدولة الرُّستمية بالمغرب الإسلامي(حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس)دار القلم للنشر والتوزيع،الكويت،ط3، 1408هـ 1987م، ص 38.

أنعم المعافري وأبي محمد خالد بن عمران التجيبي وسعيد بن لبيد المعافري وأبي زكرياء يحي بن سلام وغيرهم.»[75]

والحديث عن الحركة العلمية يجرنا إلى الحديث عن اللُّغة التي كانت تنقل تلك الحركة العلمية وتزيد من وتيرة سرعتها،وتوصلها إلى طبقة كبيرة من أبناء المجتمع الجزائري في تلك الفترة من الزمن، ولا بدَّ من الإشارة إلى أن الجزائر عرفت عبر تاريخها الطويل استعمال عديد اللُّغات في دواليب الإدارة والحكم خلال ما تعاقب عليها من دول استوطنت واحتلت هذا البلد منذ القدم،فقد عرفت الفينيقية واللاتينية إضافة إلى اللُّغة الأم ويشير الباحثون إلى أنه«كانت اللُّغة اللّاتينية منتشرة في السّاحل الشّمالي للجزائر قبل الإسلام،وكان الشَّعب الجزائري يتكلّم البربرية لغة آبائه وقومه ،وأخذت العربية تقهر اللُّغتين في ألسنة البربر،لأنها لغة دينهم الحنيف، وبدون ريب تعرَّبت المدن الكبيرة منذ القرن الثّاني للهجرة،وخاصة المدن الشّمالية أما في الدّاخل والجبال فيظلُّ يغلُبُ على النّاس التّخاطبُ بالبربرية في حياتهم اليومية،وأتمّت الزَّحْفَةَ الأعرابية في منتصف القرن الخامس الهجري(5هـ)تعرّب الجزائر»[76]

وربما حديثنا عن العربية يجعلنا نتساءل عن وجود أدب في

---

[75]. ابن وردان،تاريخ مملكة الأغالبة، تحقيق وتقديم محمد زينهم محمد عزب،مكتبة مدبولي القاهرة،ط1،1408هـ 1988م،ص 396.

[76]. شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات(الجزائر المغرب الأقصى موريتانيا السودان)،مرجع سابق، ص 07.

تلك الفترة المتقدمة من تاريخ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الأوسط،ونجد جواب ذلك بين طيات الكتب التراثية والتاريخية التي تناولت تلك الفترة بالحديث،ذلك أن البربر كانوا حديثي عهد بالدِّين واللغة العربية،أمّا الفاتحون فلم يكن انشغالهم بالأدب إلا بالسليقة التي عُرفت عن العربي منذ القِدَم،ولم تحتفظ لنا الكتب إلا ما نُسِب إلى الفاتحين الأوائل؛فهناك خطبة تُنْسب إلى الفاتح العظيم عقبة بن نافع الفهري،وخطبة ثانية تُنْسَبُ إلى القائد موسى بن نصير ألقاها بجامع القيروان.ولئن كانت الحركة العلمية والأدبية بسيطة في بدايتها،تركّزت على التعليم الديني وما يرتبط به من علوم تخدمه،وخاصة العربية،فإنَّ هذا التركيز له ما يبرِّرُه،فقد كان أهل البلاد يتعلّمون تعاليم الدِّين الجديد ويتعلّمون معها اللغة العربية التي هي مفتاح فقهه وفهم ما جاء فيه من أوامر ونواهٍ.

ومع مرور الأيام والسّنين تعلَّم كثير من البربر اللغة العربية لحاجتهم الماسة إليها، فهي طريقهم إلى فهم الدّين الذي اعتنقوه ووسيلة هامة لممارسة عقائده«فأخذ البربر يقرأون القرآن ويتعلّمون العربية باحتكاكهم المستمر بالعرب والإنصات إلى الدروس الدِّينية التي كانت تلقى بالعربية.فأمكنهم مع توالي الأيام أن يتحدّثوا بهذه اللغة ويكتبوها ويخطُبوا بها؛إلا أن انتشار الإسلام كان أسرع من انتشارها،فقد يصبح

البربري مسلما ولكنَّه يستطيع مع ذلك أن يبقى مُحتفظاً بلغته الأولى وتقاليده،لأن العرب لم يفرضوا عليهم فرضاً تعلُّم العربية إلا ما كان من قراءة الفاتحة بها في الصّلاة.ولم يقوَ تأثير اللغة العربية في الوسط الجزائري إلا حيث استقرَّ العرب في البلاد،و زاد هذا التأثير قوة عندما حلّ بنو هلال وسليم ورياح وزغبة بالدِّيار الجزائرية.فأصبحت في ذلك الحين حركة الاستعراب قويةً»[77]

وكان لفترة حسّان بن النُّعمان كما يشير عديد البحّاثة دور فعال في استتباب الأمر للمسلمين،فقد دخلها وهي تعجُّ بالفوضى، ولم يغادرها إلا و هي ولاية إسلامية غاية في التنظيم والاستقرار؛يقول أحدهم:«إن حسّان بن النُّعمان صاحب الفضل الأول في ذلك،فقد دخل البلاد سنة إحدى وثمانين للهجرة (81هـ)،فوجدها مضطربة ثائرة،ووجد أمر الإسلام فيها مشفيا على الزوال،وغادرها سنة خمس وثمانين (85)للهجرة، 705م ولاية إسلامية منظمة،بل غادرها وأهلها مُقبلون على الإسلام إقبالاً عظيماً،ويكفي دليلاً على ذلك أن معظم الجيش الإسلامي في إفريقية كان من البربر وكان من الطبيعي أن تكون خاتمة هذه الأعمال ظهور حياة الاستقرار والامتزاج بين الجنسين لأول مرة في تاريخ الإسلام،هذا الامتزاج الذي طعّمه الإسلام سيتبلور عنه

---

[77]. محمد الطمار،تاريخ الأدب الجزائري ،مرجع سابق،ص 61.

ظهور الحضارة المغربية الإسلامية في عصر الإمارات والدُّول الكبرى التي تعاقبت على حكم المغرب.»[78]

وفي مختلف المراحل التي مرَّ بها المغرب الأوسط كان اهتمام ولاته وأمرائه وسلاطينه يزداد بالعلم والثقافة وبالأدباء والعلماء والكتّاب،ومن اهتمامهم بذلك أنه«كان كُتّاب الحكومات أدباء علماء،وكثير من أمراء الأغالبة والأدارسة وبني عبيد وعمالهم علماء أدباء.وعواصمهم كانت قِبلة آمال أهل العلم وكعبة طلابه.قرَّبوا إليهم العلماء والشُّعراء،و أنشأوا بيوت الحكمة وهي دُور العلم،وأقاموا بها الورّاقين يؤدّون وظيفة الطِّباعة اليوم،وأقبل النّاس رجالاً ونساءً على العلوم والآداب لتنشيط الحكومات على ذلك،وظهر فحول الفقهاء ونوابغ الأدباء وحمكاء الأطباء والمؤرخون والإخباريون والجغرافيون،وظهرت المؤلفات في العلوم الدِّينية واللِّسانية والطّبيعية و الصِّناعية والفلاحية»[79]

وتعتبر الدولة الرستمية أول دولة تقام على أرض الجزائر سنة 160هـ على أرجح الأقوال،ومؤسسها هو عبد الرحمن بن رستم،وقد لاقت هذه الدولة الترحيب التام من أهل المغرب الأوسط نظراً للظروف التي مرت بها الخلافة الإسلامية في المشرق،والظلم

[78]. مجموعة من المؤلفين،تاريخ الجزائر الوسيط من خلال المصادر،منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نفمبر 1954م،الجزائر،د ط، 2007م،ص 92.

[79]. مبارك بن محمد الميلي،تاريخ الجزائر في القدم والحديث،مرجع سابق،ص 167.

الذي مسَّ البربر من بعض قادة و ولاة بني أمية فالتفَّ حولها الكثير من الناس لما رأوا في مؤسسها الأول من الصلاح والتّقوى وإقامة العدل بين النّاس على أساس من الشّورى ،واهتمت الدولة الفتية بعديد الجوانب العلمية والفنية والأدبية«وصارت تاهرت عاصمة البلاد،ولقد لعبت هذه المدينة دوراً هاماً في العلوم والفنون والأدب حيث أنها كانت محطَّ الرِّحال من جميع الآفاق،حتّى أنَّها دُعيت "بعراق المغرب" و"بالعراق الصَّغير"وقد برز في هذا العهد بالجزائر عددٌ لا بأس به من الأدباء من كُتّابٍ وشعراءَ،إلا أنَّه بسبب توالي الفِتن والحروب لم يَبْقَ من إنتاجهم إلاَّ النَّزْرُ اليسير،ونابغة هذا العهد هو الشّاعر المفلق أبو عبد الرحمن بكر بن حمّاد التّاهرتي» [80]،وتشير إحدى الدراسات إلى أن حركة التأليف الأدبي والشعري لم تعرف في بلاد المغرب ولم يعرف لهم شاعر ذو مستوى عال إلا بظهور بكر بن حماد،حيث يقول:«فقد كانت بداياتهم في التأليف الأدبي،وحتّى في الشعر،بدايات عقيمة،فإلى نهاية القرن الثالث الهجري لم يظهر لهم تأليف واحد في الأدب كما لم يظهر بينهم أيُّ شاعر ذي شأن سوى بكر بن حماد،ولكنه كان شاعرا مُقِلاً ..و مُذبذباً بين المديح والزُّهد،وانتهى صداه يوم موته،ولم يبقَ من شعره،في بلاده الإفريقية نفسها سوى نُتفٍ لا تبين.»[81]

ويبدو أن الدولة الرستمية وعاصمتها تيهرت قد بلغت مبلغاً عظيما في الحضارة

---

[80]. محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان،إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر،المجلد الأول، مطبعة هـ داود بريكسي،ط2،الجزائر،1426هـ،2006م،ص12.

[81]. أبو القاسم محمد كرُّو،دراسات في الأدب والنَّقد،منشورات دار المعارف للطباعة والنشر،سوسة/تونس،د ط، 1990م،ص 12.

والتقدم العلمي والأدبي وحتى العُمراني لم تشهد مثالاً له إلا الدولة الحمادية؛وهي آخر الدول التي سنختم بالحديث عنها في هذا البحث« فلقد بلغت تيهرت يومئذ شأواً عظيماً من المدنية والعمران ومن توفر أسباب الحضارة والرّفاهية حتى أنها كانت تُشبّه وتُقارن بقرطبة وبغداد ودمشق وغيرها من عواصم الشرق اللامعة،فكانت تُدعى بعراق المغرب وكان بها من القصور العالية والمنازل الرّفيعة والحصون الحصينة والعمارات والمساجد والمنتزهات ما يشبه منشآت هذه البلاد» [82]ولم يكتف أئمة بني رستم بالجانب المادي من الحضارة بل كان لهم اهتمام كذلك ببقية الجوانب التي سارت جنباً إلى جنب مع التطور الحضاري والعمراني والاقتصادي حتى اكتسبت تلك المكانة وذلك الرقي والازدهار الذي بلغته على امتداد وجودها حتى نهاية القرن الثالث الهجري فـ«قد كان بالجزائر من العلماء والأدباء ما يحقُّ لها أن تفتخر بهم يومئذ على البلاد مثل:أبي الفضل أحمد التاهرتي،ومشاهير آل بيت الطبني زيادة الله،وسعيد بن واشكل التاهرتي،والنعمان بن المنذر زاهد مجانة وهو من تلامذة الإمام سحنون،وقاضي ميلة علي بن الصبّار،وبكر بن حماد الشّاعر وغيرهم...» [83]واجتهد علماء ذلك العهد حتى بلغ بهم أن أتقنوا اللغات الأخرى وتفوقوا فيها وأسسوا لنظريات جديدة في ذلك العصر،ومنهم«يهوذا بن قريش التاهرتي ـ في القرن الرابع الهجري ـ فإنه كان متضلعا في كل من اللغات العربية والعبرانية والآرامية والفارسية والبربرية ،وحاول المقارنة بين بعضها،وهو واضع علم النحو التنظيري،وله في ذلك

---

[82]. عبد الرحمن الجيلالي،تاريخ الجزائر العام،الجزء الأول،مرجع سابق،ص 174.

[83]. المرجع السابق،ص 174.

كتاب موجود بمكتبة أوكسفورد من بلاد الإنجليز هو من أنفس ما كُتِبَ في الموضوع»[84]

وصارت بذلك تيهرت أو تاهرت قطبا ثقافيا هاما في بلاد المغرب له مكانة كبيرة في العالم الإسلامي في تلك الفترة من تاريخه«وقد أضحت سجلماسة وتاهرت من المراكز الثقافية الكبرى في بلاد المغرب وأمَّها طلابُ العلم من سائر أنحائه وخاصَّةً تاهرت التي تعدّدت بها اللُّغات واللهجات وجاب علماؤها مدن الشرق والمغرب رغبةً في طلب العلم وتحصيله كما خرج منها أيضاً طلاَّبُ العلم إلى القيروان وقرطبة.»[85]

ومما زاد في اهتمام الناس بالعلم والثقافة في تلك الفترة من تاريخ الجزائر أن أئمة تلك الدولة كانوا على جانب كبير من العلم ،وكان فيهم الأدباء والعلماء الفقهاء كما أنهم كانوا يقومون بمهمة تعليم الناس بأنفسهم وإلقاء الدروس والخطب على الرعية مما عزّز من مكانة العلم والعلماء والأدباء والشعراء في هذه الدولة وأعطاهم مكانة مرموقة في المجتمع الرُّسْتُمي،على الرغم بما كان يقوم به هؤلاء الأئمة من مهَمَّة الحكم وإدارة شؤون الدَّولة الفتية لِمَا للسياسة والحكم من أعباء ثقيلة ،ولكنَّ ذلك كله لم يمنعهم من القيام بمهمّة تعليم النّاس لما للتعليم من أهمية وخطر في حياة الأمم.

ولم يكتفِ أئمة بني رستم بمهمة إدارة الحكم وتقديم الدروس للعامة من الرّعية «إنما اشتركوا أيضاً في حركة التأليف،فيُروى أن عبد الرحمن بن رستم كان له ديوان خُطب نفيس

---

[84]. نفسه،ص 174.

[85]. محمود إسماعيل عبدالرزاق،الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري،دار الثقافة،ط2،1406هـ 1985م،ص 298.

ذكر الورجلاني أنه رآه،وله رسائل متعدِّدة،وجوابات كثيرة في فنون العلم بعضها موجود وبعضها مفقود،وصنَّف عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم كتاباً سمّاه"مسائل نفوسة".وله فتاوى مشهورة في كتب الفقه الإباضي.وكان أفلح بن عيد الوهاب عالماً بالحساب والفلك والتنجيم ،كما كان أديبا شاعراً ،ذكر الباروني أن له عدَّة مؤلفات ورسائل وأجوبة جامعة لنصائح ومواعظ وحكم.»[86]

وكانت للُّغة البربرية مكانتها الرفيعة في فترة أئمة الدولة الرُّستمية فقد«كانت تشارك اللغة العربية في أيّامهم وأُلِّفَ بها كثير من الكتب وخاصّةً في الدّعوة الإباضية.»[87]

واهتم الرستميون بأمر التعليم وصار من أولوياتهم لما له من خطورة في تكوين الأجيال والمحافظة على استمرارية الدول لذلك «انتشر في تاهرت في العهد الرُّستمي،فكان الرُّستميون يدرِّسون في مساجدهم مجّاناً علوم الدين واللُّغة وكانت هذه العلوم تطغى على الحياة الفكرية.»[88]

ومما يذكر في تاريخ الدولة الرُّستمية أن هناك جماعة إباضية تكوَّنت أُطلق عليها تسمية "حَمَلَةُ العِلْم" توجَّهوا إلى مدينة البصرة

---

[86]. محمد عيسى الحريري،الدولة الرُّستمية في المغرب الإسلامي(حضارتها وعلاقاتها بالمغرب والأندلس)مرجع سابق، ص 337.

[87]. شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات،(الجزائر المغرب الأقصى موريتانيا السودان)،مرجع سابق،ص36.

[88]. جودت عبد الكريم يوسف،العلاقات الخارجية للدولة الرّستمية،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1984م،ص110.

العراقية إحدى حواضر العلم والثقافة في ذلك العهد ـ «لتلقّي العلم على يد داعية الإباضية الأكبر أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة.فإنَّ هذه الجماعات حين عادت إلى بلاد المغرب بدأت في نشر ثقافة المذهب الإباضي،وذلك في حلقاتهم التي انتشرت في جهات المغرب الأدنى و إفريقية، وفي تلك الحلقات لقَّنَ حَمَلَةُ العلم أتباعهم علم الأصول والفروع والسِّيَّر والتوحيد والشَّريعة و آراء الفرق وعلوم اللُّغة والفلك والرياضيات.وكانت هذه الحلقات بمثابة المدارس التي تُلقِّنُ طلبتها العلوم العقلية والنقلية في وقت واحد،كما كانت مركزاً لتعريب البربر وتحضيرهم.»[89]

ولم تكن همّة أئمة بني رستم تتوق لما يتوق إليه في العادة الملوك والسلاطين من اقتناء وسائل اللهو والمتعة،بل اهتمامهم انصب على العلم ونشر اللُّغة العربية «... وبعد استقرارهم لم يكونوا ككثير من الولاة يولون اهتماماً كبيراً بالملك وأُبّهته،وإنّما اشتغلوا بنشر العلوم الإسلامية وتدعيم قواعد الإسلام حسب ما يدعو إليه المذهب الإباضي من الرُّجوع لكتاب الله وسُنَّة رسوله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وقاموا بتركيز اللُّغة العربية لأنها الوسيلة الوحيدة لفهم الإسلام على حقيقته والاطلاع

[89]. محمد عيسى الحريري،الدولة الرُّستمية في المغرب الإسلامي(حضارتها وعلاقاتها بالمغرب والأندلس)مرجع سابق، ص235 236.

على أسراره وحكمته.»[90]

ومن بين هؤلاء الأئمة من لم يمنعه الاشتغال بالسياسة والحكم،أن يُبْدع شعراً يثبت ما للرجل من قَدَمٍ راسخةٍ في ميدان الكلمة الجميلة والحكمة البالغة،واستمع إليه يقول في إحدى القصائد التي وصلت إلينا:

العلم أبقى لأهل العلم آثاراً
يريك أشخاصهم روحا وأبكارا
حيٌّ وإن مات ذو علم وذو ورع
ما مات عبدٌ قضى من ذلك أوطارا
وذو حياة على جهل ومنقصة
كميت قد ثوى في الرمس أعصارا

وبلغ من اهتمام الرُّستميين بالعلم والثقافة أنهم أنفقوا الأموال لاقتناء الكتب في مختلف المجالات والتَّخصُّصات وتذكر بعض الروايات أن الإمام عبد الوهاب بن أفلح أرسل إلى البصرة من يشتري له كتباً من المشرق وسلمه مبلغ ألف دينار ولما وصل إلى إخوة له هناك اشتروا بالأموال ورقاً وقاموا باستنساخ الكتب وقاموا بإرسالها إليه،ويقال إن مقدار ذلك كان حمل أربعين جملاً[91]

---

[90]. سليمان داود بن يوسف،محاضرات الفكر الإسلامي الحادي عشر،ورجلان،1397هـ/1977م،منشورات وزارة الشؤون الدّينية،المجلد الأول،ص213.

[91]. ينظر محمد علي دبوز،تاريخ المغرب الكبير،ج2،ط1،دار إحياء الكتب،1382هـ/ 1962م.

ولنا أن نتخيل ما تمَّ ذِكْرُه عن مكتبة العاصمة الرُّستمية التي كانت تسمَّى "المعصومة" والتي تذكر بعض الكتب أنها كانت تحوي ثلاثمائة (300)ألف كتاب في مجالات العلم المختلفة«...ففي العاصمة الرُّستمية تيهرت اهتمَّ أئمة الدّولة الرّستمية بتأليف الكتب واقتنائها.ممّا أدّى إلى تكوين مكتبات عديدة وضخمة بتيهرت،ومن أشهر مكتبات تيهرت مكتبة"المعصومة" السّالفة الذكر التي تقول بعض المصادر إنَّها صومعة مملوءة بالكتب،في مختلف الفنون والمعارف،وقد قام العبيديون بقيادة أبي عبيد الله الشيعي بإحراقها بما حوته من كتبٍ،بعد أن أخذوا ما فيها من كتب الصناعة والرياضيات والفنون الدنيوية.وقد كانت مكتبة المعصومة تحوي آلافاً من المجلدات،يذكر الباحث محمد دبوز بأنها تجاوزت ثلاثمائة ألف مجلد،وكان من بين هذه المجلدات،ديوان يعرف بـ"ديوان تيهرت"،ذكره الدرجيني (الطبقات)،وقال عنه الباحث إبراهيم بحاز:"لا نعرف عنه شيئاً".»[92]

على أنَّ هذا الاهتمام الذي أولته الدولة الرّستمية للعلم لم يخصَّ فقط إنشاء مدارس لتعليم أبناء الدولة الناشئة في أحضان المغرب الأوسط بل تعداه إلى فتح علماء بني رستم بيوتهم للمتعلمين وطالبي

[92]. مهنا بن راشد بن حمد السعدي،الشيخ عمروس ومنهجه الفقهي والعقائدي من خلال كتاب أصول الدينونة الصافية،مرجع سابق،ص128.

العلم وكان من ضمن تلك البيوت بيوت تقصدها النساء لطلب العلم«... فكان العلماء يفتحون منازلهم يقصدها طلاب العلم،ومن ذلك منزل أبي ذر أبّان بن وسيم الذي كانت تقصده النِّساء للتّعليم.» [93]ويذكر من بين هؤلاء النسوة اللائي تبوّأن مكانة في المجتمع الرّستمي ونبغن في مختلف العلوم وكان لهن دور في ما شهدته دولتهم من رقي علمي وثقافي«أخت الإمام أفلح التي برعت في علم الحساب والفلك والتنجيم.»[94]

وكان للمجتمع الرّستمي اهتمام خاص بتعليم المرأة باعتبارها حاملة لواء المذهب الإباضي ومربية الأجيال التي ستحمله في مستقبل الأيام،لذلك فقد« خطا تعليم المرأة في المجتمع الرُّستمي خطوات جيدة حيث تعرَّضت كتب السِّير الإباضية إلى عددٍ غير قليل من النِّساء اللائي اشتهرن بالعلم وبرزن في الفقه،نذكر منهنَّ "الغاية" زوجة أبي القاسم يزيد بن مخلّد فقيه الحامة التي كانت من أهل الصّلاح والاجتهاد،وكانت تُحسن إعانته على ما هو في سبيله،وكانت تحضُرُ دروسهُ مع تلاميذه من وراء السّتار.»[95]

و كان لاهتمام المجتمع الإباضي بتعليم المرأة و ما أولاها من

---

[93]. نفسه،ص131.

[94]. السيد عبد العزيز سالم،تاريخ المغرب الكبير،المجلد الثاني،دار النهضة العربية،د ط ،بيروت،1981م،ص 575.

[95]. تالية سعدو،الحركة الفكرية بالدولة الرستمية وإسهام المرأة الإباضية فيها،مجلة عصور الجديدة،العدد الأول،2011م،الجزائر،ص 69.

عنايةٍ خاصةٍ؛ما جعلها تتبوأ مكانتها المميزة في مجتمعها وتسعى جاهدة لرقيه في حركته الثقافية والفكرية وقد«ساهمت بدور هام في ازدهاره،ذلك لأنَّ المجتمع الإباضي حرص على نشر العلم ليس بين الرِّجال فقط بل وبين النِّساء أيضاً على يد مؤدبين من المحارم أو عن طريق الاتصال بمن اشتهرت من النِّساء بعلمهنَّ وثقافتهنَّ،أو في مجالس خاصّة،إذْ وجدت من النِّساء من هي عالمة ومستفسرة عن مسائل دينها،وكانت المرأة الإباضية بالخصوص باعتبار أن تلك الفترة كانت فترة سلطان المذهب الإباضي،كثيرة الاعتناء بالشَّعائر الدِّينية.»[96]

ولم تكن أخت أفلح و زوج أبي القاسم يزيد بن مخلّد من النساء العالمات والمتعلمات الوحيدات في الدولة الرُّستمية،فقد كان لغيرهن من نساء بني رستم دورهنّ الفعال في خدمة المجتمع الرستمي والعمل على ازدهار الحياة فيه ورقيها،وممن يذكرن في هذا المقام«العالمة "مارن" إحدى العالمات بدقائق المذهب الإباضي في جبل نفوسة.» [97]كما كان لغيرها من النساء الرُّستميات دور بارز في الحركة الفكرية والثقافية في ذلك العصر،تلك الحركة«التي عرفتها الدّولة الرُّستمية وجعلت منها حاضرة إسلامية،ومركزاً للإشعاع الثقافي الذي شاركت المرأة فيه،وساهمت بدور هام في ازدهاره ذلك لأن المجتمع الإباضي حرص

---

[96]. تالية سعدو،الحركة الفكرية بالدولة الرستمية وإسهام المرأة الإباضية فيها،مرجع سابق،ص69.

[97]. محمد عيسى الحريري،الدولة الرّستمية بالمغرب الإسلامي،مرجع سابق،ص338.

على نشر العلم ليس بين الرجال فقط بل وبين النساء أيضاً.»[98]

ومن النساء الرستميات اللاتي كان لهن دور بارز أيضا في مجال العلم والفكر والثقافة عالمة من غير العاصمة تيهرت مما يبين أن اهتمامهم لم يكن بعاصمة دولتهم فحسب، بل كان على نفس القدر في باقي أقاليمها وهي من جبل نفوسة في الأراضي الليبية حاليا؛وهي«أخت عمروس بنت فتح المساكني النفوسي،قاضي جبل نفوسة في أواخر الدولة الرُّستمية،كانت عالمة فقيهة مرافقة لأخيها في دراسته،تستمع إليه وتأخذ عنه،كما كانت المساعد الأساسي له لاستنساخ مدونة أبي الغانم الخراساني»[99]

وقد ذكر الدرجيني عمروسَ بن فتح النفوسي في طبقاته وأنه من علماء الطبقة السادسة(250 ـ 300هـ)[100]

وإلى جانب هؤلاء برز علماء كثيرون في العهد الرّستمي من غير علماء المذهب الإباضي «وكان بينهم علماء سنِّيون مالكيون كإبراهيم بن عبد الرحمن التنسّي المالكي،وقاسم بن عبد الرّحمن زكريا بن

---

[98]. تالية سعدو، الحركة الفكرية بالدولة الرستمية وإسهام المرأة الإباضية فيها،مرجع سابق،ص 69.

[99]. نفسه،ص70.

[100]. ينظر في هذا:الدرجيني،كتاب طبقات مشائخ المغرب،الجزء2،تحقيق إبراهيم طلاّي،مطبعة البعث قسنطينة الجزائر، دت، ص 320 وما بعدها.

بكر،وابن الصغير المالكي.»[101]

ولم يتوقف اهتمام أئمة الدولة الرُّستمية على عاصمتهم تيهرت بل تعداه إلى الأقاليم والولايات البعيدة نسبيا عن مركز الدولة،فقد أقيمت المدارس وأُنْشِئت المكتبات رغبة في أن ينال أبناء الدولة الرستمية حظّهم كاملا غير منقوص من العلم والثقافة ومن أجل مواكبة ذلك العصر الذي عرف حركة علمية كبيرة «...ومن مكتبات جبل نفوسة المشهورة"خزانة نفوسة"،وهي مكتبة عامة كانت تحوي الآلاف من الكتب،وتوجد بمدينة"شروس.» [102]، ولم يكن اهتمام الرستميين منصبّاً على العاصمة تاهرت فحسب،بل إن لقد تعدّى ذلك إلى الأقاليم البعيدة نسبياً عن عاصمة الدَّولة«ومن المراكز العلمية الهامّة في الدّولة الرُّستمية غير تاهرت،مدينة شروس،بجبل نفوسة،ومدينة جادو،وقرية أجناون،وجزيرة جربة،و ورجلان،ومن أشهر العلماء الذين اشتهروا بجبل نفوسة الشيخ مهدي النفوسي،ومحمد بن يانس،وأبوالحسن الأبدلاني،و عمروس بن فتح،و أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني،و معبد الجناوني.وقد أتاح تعايش العلماء على اختلاف مذاهبهم وأفكارهم في تاهرت عاصمة الرُّستميين الفرصة لتكوين مدرسة لها معالمها الخاصة وسماتها الواضحة

[101]. محمد عيسى الحريري،الدولة الرُّستمية بالمغرب الإسلامي،مرجع سابق،ص337.

[102]. مهنا بن راشد بن حمد السعدي،الشيخ عمروس ومنهجه الفقهي والعقائدي ،مرجع سابق،ص129.

المتميّزة في تاريخ الفكر الإسلامي في بلاد المغرب.»[103] و جدير بالذكر في هذا المقام أنَّ«من أهمّ آثار الخوارج في الحياة الثقافية في بلاد المغرب تصدّيهم لمواجهة حركة التَّشيُّع التي قام بها الفاطميون الذين حاولوا نشر مذهبهم بوسائل العنف والشدَّة.»[104]

ولم يكن شغف الرّستميين بالكتب وإنشاء المكتبات إلا لأنهم أرادوا أن تكون لهم مكانة بين الدول التي كانت تجاورهم أو حتى البعيدة عنهم تشجيعا لطلب العلم والمعرفة،خاصة في عصر نهضتهم (296/186هـ)بعد النشأة والتأسيس فإنه يجدر الإشارة إلى أنه «قد كانت رغبتهم في تشجيع الحركة العلمية شديدة،حتّى أنهم كانوا كلّما ظهر بالمشرق كتابٌ يهمُّهم جلبوه إليهم و زوَّدوا به مكتبتهم التي أسسوها لهذه الغاية النبيلة وكان جميع أئمتهم رجال حكم،ورجال علم،فعبد الرحمن بن رستم كان عالماً وله تأليف في التَّفسير،وابنه عبد الوهّاب برز في العلوم الدِّينية،وله كتاب"نوازل نفوسة"،وهو مجموعة الفتاوى التي كان علماء نفوسة يستفتونه فيها،وأفلح ابنه نبغ في الأدب.»[105]

---

[103]. محمد عيسى الحريري،الدولة الرُّستمية بالمغرب الإسلامي،مرجع سابق،ص 338.

[104]. محمود إسماعيل عبد الرزاق،الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري،دار الثقافة،المغرب،ط1406،2هـ/1985م،ص 300.

[105]. رابح بونار،المغرب العربي تاريخه وثقافته،مرجع سابق،ص 61.

ويرى بعض الباحثين أن ظهور الأدب الجزائري القديم ارتبط بظهور الدولة الرُّستمية«و أول ظهور للأدب العربي الجزائري يوافق ظهور هذه الدولة العجيبة التي قلَّما شهد التّاريخ مثلها نظاماً وتدبيراً.فالطريف أن يكون أول تعبير أدبي يصدر من أفواه الملوك الرُّستميين.فهذا عبد الوهّاب بن رستم ثاني الأمراء يؤلِّف الكتب في تفسير القرآن ويبرعُ في الخطابة ورسائل الإخوانيات.وهو الذي جمع حوله العقول النّائرة من مشارقة ومغاربة.وتلاه ابنه أفلح وهو شاعر الرُّستميين وقد بلغ حبُّه للعلم و الأدب مبلغاً عظيماً»[106]

ولم تكن كلُّ البلاد في ذلك العهد خاضعة لأئمة تاهرت الرُّستميين الإباضيين بل كانت النّاحية الشّرقية منها أي مقاطعة قسنطينة الحالية تابعة لبني الأغلب أمراء إفريقية والقيروان كما أنَّ تلمسان وناحيتها في الجهة الغربية كانت تابعة للأدارسة ملوك فاس والمغرب الأقصى،ولذلك فقد وُجِدَ أدباء جزائريون في ذلك العهد عاشوا في ظلِّ الأغالبة والأدارسة وإن كنّا لا نملك شيئاً من نثرهم أو شعرهم.»[107]

ومادامت الإمارة والرياسة بإفريقية فإن كل إنتاج إبداعي أنتجه هؤلاء الأدباء والكتاب لاشكّ أنه ينسب إلى القطر التونسي

---

[106]. عبد الرحمن الحاج صالح، الأدب العربي القديم في الجزائر،مجلة آفاق،السنة الأولى،العدد الأول،يناير فبراير مارس 1963م،ص26.

[107]. محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان،إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر،المجلد الأول،مرجع سابق،ص 12.

الشقيق،لكن ذلك لا يمنع من أن هناك من ينتسبون إلى القطر الجزائري أو ما كان يعرف بالمغرب الأوسط في ذلك الزمن،وقد شهدت الجزائر أو بالأحرى جزؤها الشرقي في ظل الدولة الأغلبية،نهضة في كثير من الميادين«ونَعُمَ هذا القسم من الجزائر في عصر الدولة الأغلبية بنهضة عمرانية وحضارية وعلمية شأنه في ذلك شان عاصمته الكبرى القيروان.»[108]

ومما عرف عن الأغالبة اهتمامهم الشَّديد بتعليم اللغة العربية ونشرها بين النّاس كما كان يفعل جيرانهم فقد«عمل بنو الأغلب كما عمل جيرانهم بنو رستم على نشر اللُّغة العربية،فانتشرت العربية انتشاراً سلساً وسريعاً لتجاوُب البربر معها لقُربها من لغتهم ولأنّها لغة الدِّين الذي اعتنقوه و آمنوا به.وكان الزّاب مركزاً تشِعُّ منه الثّقافة العربية، و كانت طبنة واسطة عِقْد هذه الثقافة بين تاهرت والقيروان.كان سكان الزاب يتعلّمون بالزاب أساس الثقافة ثمَّ يتوجهون للقيروان للزِّيادة في التعلم ومنها للمشرق أحياناً.»[109]

ومما لا شكَّ فيه أن إقبالهم على تعلُّم اللغة العربية جعلهم يقبلون على ما ارتبط بها من علوم أخرى وما يخدُم الدِّين الإسلامي

---

[108]- شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات(الجزائر المغرب الأقصى موريتانيا السودان)، مرجع سابق،ص29.

[109]. عثمان سعدي،الجزائر في التاريخ،مرجع سابق، ص245.

الحنيف،مما يؤدّي إلى انتشارها آلياً بين النّاس « ومن الواضح أن مسائل الدِّين وعلومه كانت الأسبق في الانتشار والازدهار فانتشرت علوم القرآن قراءةً وتفسيراً وعلماً بناسخه ومنسوخه،ثمَّ علوم الحديث،فأدّى انتشارهما شيئاً فشيئاً إلى زيادة انتشار اللُّغة العربية،وتمَّ بعدها الاهتمام بعلم النَّحو فظهر بإفريقية وغيرها من مدن بلاد المغرب أكثر من نحوي بارعٍ ورد ذكر اسمه في كتب طبقات اللغويين والنحويين.

وبعد ذلك وجد المغاربة في دراسة اللُّغة العربية و الأدب العربي مرْتعاً خصباً للتعبير عن خلجات نفوسهم وللتّأليف في الفقه والحديث أول الأمر،ثمَّ تطوَّر كلُّ ذلك مع تعاقب الزَّمن،وظهور أجيال جديدة نشأت نشأة عربية خالصةً،وتلقّتْ تعليماً عربيّاً كاملاً فتفتّقت القرائح والأذهان،وبدأ ظهور الشعراء والخطباء،كما ظهر اللّغويون والنّحويون والفقهاء وعلماء المذاهب والمؤلفون فيها.»[110]

ومما يدل على اهتمامهم باللغة العربية أن ولاتهم كانوا يتخيرون علماء اللغة لتعليم أبنائهم ومنهم إبراهيم الأغلب فقد «كان إبراهيم أبو زيادة الله يختار العلماء بالعربية و ورواة الشّعر،فجاء أفصح أهل بيته

[110]. بشير رمضان التليسي،الاتجاهات الثقافية في الغرب الإسلامي(خلال القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي)،مرجع سابق ،ص 72.

لساناً،وأكثرهم أدباً وكان يعرب كلامه من غير تقعير.»[111]

وزاد اهتمام بني الأغلب بالعلم والثقافة والعمران،وعملوا على التمكين لأنفسهم بعد انضوائهم تحت لواء الدولة العباسية«وأصبحت "طبنة" من أهمِّ مراكز بني الأغلب الحاكمين باسم العباسيين في "إفريقية" ومنطقة الزَّاب الجزائري.» [112]،ومنذ ذلك الحين صارت "طبنة" وهي ثاني أكبر مدينة بعد القيروان تهتم بكل ما يتّصل بوجودهم فـ« لم يكتف سكان "طبنة" وما إليها من الزّاب بالسّعي وراء ما يتصل بوجودهم المادي فنزعوا إلى الاستمتاع بالجمال الذي يتمثَّلُ في أساليب التّعبير و الآداب والفنون و إلى كشف المجهول.»[113]

وقد عنى البحاثة والدّارسون بدراسة الأدب في تلك الفترة وغيرها من الفترات ولهم شهادات في ذلك تعترف لهؤلاء بالنبوغ و المساهمة الفعالة في نهضة الأدب وازدهاره يقول أحدهم :«بعد رحلة بحث طويلة اتَّضح لي أن القيروان بل المغرب العربي لم يقلَّ دوره في نهضة الأدب العربي عن المشرق،ولو وصل إلينا شعره كاملا – لا سيّما بكر بن حماد والفزاري وعلي بن محمد الإيادي – لتغيَّر الحال ولرأينا أدباً رائعاً،لكن اهتمام الكتاب والمؤرخين بالحواضر الكبيرة كان على حساب

---

111. لسان الدين بن الخطيب،كتاب أعمال الأعلام، مرجع سابق،ص 16.

112. محمد الطمّار،تاريخ الأدب الجزائري،مرجع سابق،ص86.

113. نفسه،ص87/86.

حواضر الدُّويلات الصّغيرة كما هو معروف.»[114]

ويقول غيره عن الأدب المغربي والأندلسي مبينا ما ادعاه المشارقة بعد انتشار التآليف الكثيرة في مختلف فنون الكتابة: «و أظهرت الدراسات الأدبية ما عرف بأدب المغرب والأندلس،ودُرّس في الجامعات و دور العلم العربية وغير العربية تحت هذا الاسم،وحاول الباحثون في مجال ذلك الأدب البحث عن خصائص و ملامح تُمَيّزه عن أدب المشرق،وربَّما كانت محاولات المحدثين امتداداً لمحاولات أدباء المغرب والأندلس أنفسهم لإثبات ذاتهم خلال عصور التاريخ العربي والإسلامي في مواجهة غلبة الشرق، وعلى اعتبار أن العلم العربي الإسلامي علم وافد من المشرق إلى المغرب،فيصبح العلم عند المغاربة والأندلسيين علماً تابعاً،وكذلك أدبهم أدبٌ مقلّدٌ، ومن هنا كانت قيلةُ المشارقة عند ورود كتاب العقد الفريد إليهم،''بضاعتنا رُدَّتْ إلينا''.»[115]

وقد أنجبت الجزائر في تلك الفترة علماء أجلاء وأدباء كثيرين،كان لهم صيت ذائع في مختلف البلدان في المشرق والأندلس وفي شتى العلوم«ومن علماء الرّاب إسحاق الملشوني المولود بملشون وهي من قرى بسكرة قرب تهودة.كان عالِماً مؤرخاً،جالَسَ العالم سحنون

[114]. طه خليفة الحجازي،أدب القيروان في عهد الأغالبة والفاطميين،المكتب الجامعي الحديث،الإسكندرية،2012م، ص 05.
[115]. محمد سلام زغلول،الأدب في العصر الفاطمي(الكتابة والكُتّاب)، مُنشأة المعارف ،الإسكندرية،د ط، 1988م،ص 10.

بالقيروان الذي رشَّحه لدى الأمير محمد بن الأغلب لكي يُمتِّعه بعلمه في شهر رمضان.وعاش في أواسط القرن الثّالث الهجري.ومنهم أحمد بن علي البغائي ولد سنة 345هـ وتوفي سنة 401هـ،هاجر للأندلس سنة 376هـ حيث حظي بمنزلة مهمة بين علمائها و أدبائها.ومنهم الحسن بن علي البغائي الذي كان فقيهاً محدثاً.ومنهم أبوالقاسم يوسف البسكري الذي كان يدرِّس النحو.ومنهم علي بن منصور الطبني المحدِّث.ومنهم أبو القاسم الطُّبني.ومنهم أبو الفضل عطية الطُّبني الذي سافر للمشرق وتعلَّمَ وعلَّم في بغداد وهو شاعر.»[116]

وهناك أيضا شخصيات أدبية وأخرى ضمت إلى السياسة اشتغالها بالأدب يُذكَرُ منهم الشاعر مروان عبد الملك الطبني الذي يقول(من البسيط):

إنِّي إذا احتوشتني ألف محبرة
يكتبن حدَّثني طوراً وأخبرني
نادتْ بعقوتي الأقلام معلنةً
(هذي المفاخر لاقَعبان من لبن) [117]

وعن أسرة آل الطبني يقول أحد المؤرخين لتلك الفترة:«أصلهم من

---

[116]. عثمان سعدي،الجزائر في التاريخ،مرجع سابق، ،ص 254.

[117]. الحميدي،جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس،تح بشار عواد معروف و محمد بشار عواد،دار الغرب الإسلامي،ط1429،1هـ/2008م،تونس،ص410.

طبنة قاعدة الزّاب والوافد منهم على الأندلس في أيَّام ابن أبي عامر أبو مضر:محمد بن يحي بن أبي مضر الطبني وصفه الحجاري بالأدب والشعر ومجالسة الملوك وكان ممن جالس أبا الحزم بن جهور وابنه أبا الوليد وصحِب ابن شهيد وأنشد له:

لا يُبْعِدُ الله من قد غاب عن بصري
ولم يغِبْ عن صميم القلب والفكر
أشتاقه كاشتياق العين نوْمتها
بعد الهجود وجدب الأ{ض للمطر
وعاتبوني على بذل الفؤاد له
وما دروا أنَّني أعطيته عمري» (118)

ومن هؤلاء الشعراء أيضاً «أحمد سفيان بن سوادة بن سفيان بن سالم:توفي سنة 260هـ،وهو شاعر من رجال الأغالبة السياسيين،شغل منصب عامل بالزاب ثمَّ طرابلس،ثمَّ عاملاً بصقلية،وقاد بها معارك حقَّقَ من خلالها فتوحات.»(119)

وبلغ من اهتمام الأغالبة بالعلم والتَّعلم أنهم قلَّدوا ما وصلت إليه الخلافة في بغداد،فهاهو أحد أمرائهم ـ إبراهيم بن أحمد الأغلبي ـ«يؤسِّسُ في مدينة "رقّادة" التي بناها بجوار القيروان بيت حكمة على غرار بيت الحكمة للرشيد والمأمون ببغداد ،وهو أول جامعة للعلوم

---

[118]. ابن سعيد المغربي الأندلسي،المغرب في حلى المغرب،الجزء الأول،تح شوقي ضيف،دار المعارف،القاهرة،ط4، 1955م،ص 92.
[119]. عثمان سعدي،الجزائر في التاريخ، مرجع سابق،ص254و255.

نشأت في البلاد المغربية،وكان يُدرَّسُ بها الطِّب والفلك وتقويم البلدان والفلسفة»[120]

ومما عُرِف عن أهل "طبنة" أنهم اشتهروا بالرّحلة في طلب العلم وفنون الآداب حتى غدوا ممن يقصدهم طلبة العلم بعد الرّجوع إلى ديارهم قصد تدريس ما تعلّموا ولم يكتف هؤلاء بذلك بل سعوا إلى ما هو أكثر «و لتحقيق غايتهم يفارقون بلدهم ويضربون في الأراضي الإسلامية فإذا نالوا قسطاً وافراً من ألوان المعرفة عادوا إلى ديارهم فينثال عليهم الطّلبة من كلِّ صوْبٍ يأخذون عنهم الفقه والحديث والعلوم اللِّسانية والأدبية.فلم تلبث "طبنة" أن صارت دار علمٍ،ولكنّها لم تبلغ شأو "القيروان" في أوّل القرن الثّاني»[121]

ولم تكن تلك الأهمية المعطاة لطلب العلم وذلك التطور في مجال العلم والثقافة بغريب على دولة مثل دولة الأغالبة،وقد كان أحد أمرائها وهو إبراهيم بن الأغلب « شاعراً خطيباً ذا رأي و حزمٍ وبأسٍ وعلم بالحروب والمكايد وهذا ما قرَّب بينه وبين الفقهاء.»[122]

ومما يذكر لأمراء هذه الدولة أن بعضهم بالغ في إكرام

---

[120]. شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي عصر الدُّول والإمارات(الجزائر المغرب الأقصى موريتانيا السودان)،مرجع سابق،ص30.

[121]. محمد الطّمّار،تاريخ الأدب الجزائري،مرجع سابق،ص 87.

[122]. ابن وردان،تاريخ مملكة الأغالبة، مرجع سابق،ص34.

الشعراء،وقد بلغ بأحدهم وهو يزيد بن حاتم أن أعطى شاعراً يدعى مروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم في بيتين من الشعر؛خمسين ألف أمر بها من ماله الخاص وخمسين ألف جمعها له جنوده.[123]

ولكن"طبنة" لم تبق على سابق عهدها فقد تطورت شيئاً فشيئاً وتطوّرت معها مدن"الزّاب" و« لم ينتصف القرن الثّاني حتّى أخذت مدن الزّاب تُقلِّدُ عاصمة إفريقية الكبرى في العلوم الدِّينية واللِّسانية والأدبية.وأهل العلم سواء في "القيروان" أو في "طبنة" عيونهم متَّجِهة نحو الشّرق في اقتباس حضارته ومدنيّته و في تغذية عقولهم بثقافته العلمية الفنيّة.»[124]

ومما شجّع على طلب العلم اهتمام الملوك والأمراء والسلاطين في تلك العهود بجلب العلماء وتأسيس المدارس والمكتبات،وممن عملوا على ذلك وسعوا إليه سعيا حثيثاً واشتهروا به«إبراهيم الثاني الأغلبي باتخاذه في عاصمة"رقادة" بقرب القيروان بيتاً أو مؤسسةً سمّاها بيت الحكمة جلب إليها أصحاب علوم الأوائل وغيرهم من العلماء وأقام بها مكتبة ضخمة تتبعها قاعات للجلوس والمطالعة.»[125]

---

123. ينظر في تفصيل هذه الحادثة:ابن وردان،تاريخ مملكة الأغالبة، مرجع سابق،ص49.

124. نفسه،ص 87.

125. شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات،(الجزائر المغرب الأقصى موريتانيا السودان)،مرجع سابق،ص80.

ولا شكَّ أنَّ الأدب قد تطوَّر في تلك الحقبة من الزمن،خاصّة في ظل المؤسس إبراهيم بن الأغلب وإن كان أغلب الأدباء فقهاء«فإنَّهم يهتمّون بالمعنى ولا يحتفلون بالجمال الفني،ولكنَّ الأوضاع لم تبقَ على حالها،فقد قيَّض الله للأدب من يدفع به إلى الأمام،فإن مؤسِّس الدّولة "إبراهيم بن الأغلب"،كان عالما أديباً يجيد الشِّعر والنَّثر،والأمراء الذين تعاقبوا من بعده على كرسي المملكة كانوا كذلك.»[126]

ولمَّا كانت طبنة والزاب بتلك الأهمية في تاريخ الأغالبة فلابد أن يكون لها اتصالات مع غيرها من العمالات،ولابد لها من كتاب يضطلعون بتلك المهمَّة والتي لا يشغلها إلا من كان على دراية بالمكاتبات ودربة ومران على تدبيج الرسائل،فقد«كانت "طبنة" قاعدة الزّاب وعلى رأسها عامل يدير أمرها،فبطبيعة الحال أن يحتاج إلى مكاتبة الوالي بـ"القيروان"و زملائه بالمدُن الأخرى وإلى إصدار الأوامر،فلابدَّ،إذاً،من أن يكون لديه ديوان الرَّسائل،إلا أنّنا لم نعثر ـ ويا للأسف ـ على قطعة تطلعنا على مدى باع كتّاب أهل "طبنة" عندئذ.فلا شكَّ أنهم كانوا يتبعون في كتابتهم الخطَّة السّائدة في "أفريقية" التي تمتاز بالبساطة والوضوح وعدم التأنُّق الأدبي.إلا أن الكتّاب،بحكم

[126] . محمد الطمار،تاريخ الأدب الجزائري،مرجع سابق،ص 89.

التطوُّر الاجتماعي والسياسي من جهة،والرُّقي العقلي من جهةٍ ثانية،اجتازوا إلى مرحلة جديدة تتَّسِمُ بالتَّفنُّنِ في أساليب التّعبير.فالرّسائل الصّادرة عن ديوان الإمارة من شأنها أن تؤثِّر على أقلامهم فتدفعهم إلى صقل الألفاظ وإدخال على أسلوبهم العادي شيئاً من التّحسين والتّحبير.»[127]

على أن هذا الاهتمام بالعلم والأدب والثقافة والفنون لم يكن حكراً على دولة من الدُّول التي تعاقبت أو تزامنت على أرض المغرب الأوسط،بل يكاد يكون الأمر واحدا عندما يتعلق الأمر بما يعطي قيمة لتلك الدّولة،وهيبة وسمعة بين الدول والأمم،ولا شيء يمكّن من ذلك غير العلم والأدب والثقافة.

وقد كان للدولة الفاطمية نصيب من ذلك الاهتمام بالأدب والثقافة وبالعلوم عموماً فإنه «لما آل الأمر إلى الفاطميين نشطت الحركة الأدبية أيّما نشاط،فكانت مدينتا المسيلة وأشير تجمعان أكثر من مائة شاعر منهم أبو إسحاق بن الرّقيق الذي اشتهر بقصيدة في وقائع الفاطميين،وهو شاعر المعزّ لدين الله.وفي ذلك الزّمان نزل بأرض الجزائر الشّاعر الأندلسي ابن هانئ ومؤرخ الأمراء العبيديين وقصيدته ـ الجواري المنشآت ـ التي وصف فيها الأسطول الجزائري أشهر من أن تعرف .

[127]. محمد الطمار،تاريخ الأدب الجزائري،مرجع سابق،ص 89.

ومن الشعراء المبرّزين أحمد الماوردي ومحمد بن المتبب اللّذان تركا شعراً وصفياً عن ثورة أبي يزيد.ولابد هنا من ذكر محمد بن الحسين الطُّبني»[128]

برز هذا النشاط خاصة والدولة الفاطمية تحمل لواء مذهب الشيعة فـ«امتازت بحركية ونشاط في المراكز الجديدة للثقافة والأدب،أي في رقادة والمهدية وصبرة والمنصورية والمسيلة،وهي مراكز شيعية تنافسها المراكز السُّنّية التقليدية كالقيروان وتونس وسوسة،والإباضية كبلدان قسطيلية،فنشط فيها أدب شيعي أو سُنّيٌّ امتاز بملامح جديدة؛ فطغت على الحياة الأدبية الأبعاد المذهبية والوعي الحاد بالانتماء والالتزام.» [129] ما أجج الصراع المذهبي ،إلاَّ أنَّ ذلك انعكس إيجاباً على الثقافة والأدب فـ«إن الصراع القائم بين علماء وأدباء الشيعة و زملائهم السّنِّيين أعان الثقافة على الازدهار.فكلُّ فرقة تدافع عن آرائها و تتفنَّنُ في أساليب إقناع الخصم،فكثرتْ المقالات النَّثْرية والقصائد الشِّعرية.فالشّعْبُ كان بجانب الفقهاء ،ولكنَّ الشيعة أخذوا يُكرهون النّاس على التعلق بمذهبهم.»[130]

---

[128]. عبد الرحمن الحاج صالح،الأدب العربي القديم في الجزائر مجلة آفاق،مصدر سابق،ص 26.

[129]. محمد توفيق النيفر،الحياة الأدبية بإفريقية في العهد الفاطمي(296هـ – 362هـ)،ج 1،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان،مركز النّشر الجامعي،مارس 2004م،صص 22 ،23.

[130]. محمد الطمار،تاريخ الأدب الجزائري،مرجع سابق،ص 104.

وكان من آثار ذلك الصراع بين المذاهب، ذلك« النَّشاط العقلي والأدبي الذي رأينا شيئاً منه في مجال الكتابة والمناظرة والخطابة.وإن لم يبلغنا منه غير أثارات قليلة،ولكن لها،على كلِّ حال دلالتها.»[131]

ونشأ عن ذلك الصراع بين المذاهب وخاصة المذهب السني والمذهب الشيعي؛مذهب الدولة الفاطمية رغبة الناس عن المذهب الشيعي فإن السُّكان« لم ينسجموا مع مذهبهم الشيعي الإسماعيلي الذين اعتبروه غريبا عنهم،ولكن هذا لم يمنع الفاطميين من الاهتمام بالجانب العلمي ولو أنه كان يخدم بالدّرجة الأولى مذهبهم،فلقد ازدهرت الحياة الفكرية في عهدهم فكثرت حلقات العلم وانتشرت حركة التأليف وظهر الكثير من المؤلفين في الفقه الشيعي الإسماعيلي والأدب واللُّغة والطِّب.»[132]

وعندما رأى الفاطميون أنَّ سياسة العصا الغليظة لا تأتِي بفائدة،وانتبهوا إلى خطر الأدب وما يمكن أن يجلب من منفعة لهم ولمذهبهم غيّروا من سياستهم،و«المتتبع لتاريخ الدولة العبيدية في بلاد المغرب يلاحظ أن تأثيرات جوهرية حصلتْ في أيّامهم،فقد كانت محاولاتهم في دعم وتثبيت مذهبهم دافعاً لهم للاهتمام بأوجه النّشاط الثّقافي وبخاصة عندما أيقنوا أنَّ سياسة التّرهيب لا طائل من ورائها و أنّها مدْعاةٌ لمزيد من الكراهية والنُّفور منهم

---

[131]. محمد طه الجابري،مرحلة التشيع في المغرب العربي وأثرها في الحياة الأدبية، دار النَّهضة العربية للطباعة والنشر،بيروت،ط1، 1403هـ/1983م،ص 43.

[132]. عمورة عمّار،موجز تاريخ الجزائر،مرجع سابق،ص55.

من جانب أهل المغرب،لذا عمدوا إلى أن تكون دولتهم قويَّةً مهابةً سياسياً مُتقدِّمة حضارياً لذلك كان نشاطهم الثّقافي متعدِّد الوجوه متشعِّب الاتجاهات.وكان من بين تلك الاهتمامات العبيدية اهتمامهم بالأدب وبخاصَّةً الذي يخدم مبادئهم،ويُروِّجُ الدِّعاية لمذهبهم،وقد كان باعثهم على ذلك تلك النَّهضة الثقافية التي تشهدها الأندلس و بغداد رغم سيطرة قوى خارجية عليها.»[133]

ولما كانت دعوة الفاطميين دعوة مذهبية خاصة فإنها بعد تأسيسها«احتاجت هذه الدَّولة إلى قوَّة البيان تضيفها إلى قوة الجنود والأعوان ،وقدْ تمَّ لها ذلك قبل أن تطأ أقدام جيوشها أرض مصر.فكان لهم شعراء يتغنَّون بمفاخرهم وينظمون القصائد في مآثرهم،لما كانوا يُغدقون عليهم من العطايا الجزيلة والخلع والجوائز والأرزاق،ولقد دفعت هذه الرَّغبة في الحصول على هذه المنح والهبات بالشُّعراء من أهل السُّنَّة إلى محاكاة الشُّعراء الشّيعيين فاتَّصل بعضهم ببلاط الخلفاء الفاطميين مثل أبوالقاسم محمد بن هانئ الذي أسف عليه الخليفة المعز عندما علم بوفاته وقال:((هذا الرَّجُل كنّا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذك).»[134]

ولعلَّ هذا الاهتمام الفاطمي بالأدب والثقافة له ما

---

[133]. بشير رمضان التليسي،الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب،(خلال القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي)،مرجع سابق،ص 303.

[134]. عرب دعكور،الدولة الفاطمية التاريخ السياسي والحضاري،دار المواسم للطباعة والنشر،ط1425،1هـ /2004م،ص 238 / 239.

يبرّره،خاصة وأنّهم لم يهتموا بذلك بداية وإنما كان نتيجة لما رأوه في الأندلس غرباً وبغداد شرقاً وما تركه الأغالبة فـ«الواقع أنَّه على الرغم من عدم اهتمام العبيديين بداية تأسيس دولتهم بالأدب غير أنَّ ما تركه الأغالبة من نهضةٍ ثقافية.كان الأساس الذي استمدَّ منه العبيديون نهضتهم الأدبية الشّاملة.

وقد سار العبيديون أول الأمر لتثبيت دعائم دولتهم سياسياً ليتمكّنوا من تحقيق نهضة علمية بالمعنى الصّحيح،وما إن تخلّصوا من متاعبهم السياسية وانتقلوا إلى مدينتهم الجديدة (المهدية) المحصّنة حتى بدأت بوادر حركة ثقافية تلوح في الأفق فبرز عددٌ من الشُّعراء الذين أشادوا بالدّولة والدّعوة العبيدية وإنجازاتها في مجال العمارة والبناء وبأسطول العبيديين البحري،وما استطاع العبيديون تحقيقه خلال فتوحاتهم مشرقاً ومغرباً.لذا نشطت الحركة الأدبية عموماً والشِّعْر على وجه الخصوص فأنشد الشعراء الذين عاصروا الدولة الدولة العبيدية شِعْراً يتناسب مع تلك الأحداث.»[135]

وقام الشعراء بدورهم المنوط بهم في الدفاع عن الدولة العبيدية «و كذلك ينبغي أن يكون للشِّعر نصيبه في استقبال هذه الدَّولة الجديدة،وفي تصوير هذه الخصومات والمشاركة في التعبير عنها.فمن طبيعة

[135]. المرجع السابق،ص304.

هذه الخصومات أن تستثير شاعرية الشُّعراء وتُلهب قرائحهم،وتدفع بهم في تلك السبيل التي يعرفها الشِّعرُ كلَّ المعرفة،ومن تصوير المعارك.والإشادة بما فيها من كرٍّ وفرٍّ واستبسال وحميَّةٍ،وإثارة الحماسة لها والإغراء بها ،فماذا كان نصيبه من ذلك؟ لا نكاد نشكُّ في أنَّ نصيبه كان موفوراً،إذْ كُنَّا نعلمُ أنه كان للعبيديين شعراؤهم الذين يمجدونهم ويشيدون بمآثرهم ويذيعون مبادئهم ويسبغون عليها مختلف الزَّخارف والتَّهاويل،كما كان لخصومهم أيضاً شعراؤهم الذين يهاجمونهم ويُسفِّهون آراءَهم،كما تشيرُ إلى ذلك بعض الأخبار،وإن لم يبْقَ لنا غيرُ القليل منها.»[136]

ولا غرو أن يكون ذلك من أسباب ازدهار وتطوُّر الشعر في العهد الفاطمي،ويرى أحد الباحثين أن أسباب ذلك تعود إلى جملة من الأسباب مجتمعةً،يلخِّصها في كثرة المناسبات والأعياد – وقد شهدت فترة الفاطميين استحداث الكثير منها لم تكن معروفة أو موجودة من قبل– وكذلك كثرة المباني والمنتزهات،واتخاذ الشعر وسيلة دعوة سياسية إضافة إلى ما عُرف من شاعرية بعض خلفاء الدولة الفاطمية،كما كان للقضاة و الوزراء أثرٌ وتأثيرٌ في ازدهار الشعر في تلك

[136]. محمد طه الجابري،مرحلة التّشيُّع في المغرب العربي وأثرها في الحياة الأدبية،مرجع سابق،ص43.(بتصرف يسير).

الفترة من الزمن.[137]

وأما في عهد دولة بني حماد التي اتخذت من القلعة عاصمة لها،ثم انتقلت إلى بجاية فإن الحركة الثقافية والعلمية والأدبية عرفت تطورا ملحوظا،وسارت خطوات عملاقة،«فأهمُّ حادث حصل فيها انتقالهم ـ بعد الزَّحف الهلالي ـ إلى مدينة بجاية حيث ازدهرت الآداب والعلوم على مثل ما كانت في قرطبة وبغداد في نفس الوقت.وقد أصبحت هذه المدينة ملتقى الأدباء فممّن نزلها ابن حمديس الصقلِّي.»[138]

وذلك لما عُرف عن ملوكها من اعتنائهم الفائق بهذا الجانب الهام في بناء دولة قوية قادرة على الاستمرار والعطاء،وقد «عرفت الحياة الثقافية بفضل اعتناء الملوك الحمّاديين بها ازدهاراً كبيراً في مختلف العلوم فأقبل عليها العلماء من كل جهةٍ وانتعشت بذلك الثقافة في أوساط الجماهير الشّعبية فارتفع مستواهم العلمي وأُسِّست بها مدارس علمية و زوايا وأنجبت شعراء وأدباء ،وفقهاء وأطباء كباراً ،ومن أفضل شعرائها نذكر:عبد الكريم النَّهْشلي ومحمد بن حسين الطُّبني وأبي سهل الحَشْني وابن الفضل النّحوي وابن رشيق وأبو حفص عمر بن فلفول،ومن الأدباء الذين اشتهروا في النَّقد الأدبي النّهشلي وابن رشيق و محمد بن حماد

---

[137]. ينظر: حسن محمد الربابعة،من أدب مصر والشام في العصر الفاطمي،مؤسسة رام للتكنولوجيا والكمبيوتر،الأردن،ط1، 2006م.

[138]. عبدالرحمن الحاج صالح،الأدب العربي القديم في الجزائر،مجلة آفاق،مرجع سابق،ص 27.

الصنهاجي»[139]

وليس في هذا المجال فحسب،بل كانت مقصدا لكل طالب علم أو ذي صنعة فـ«وصل إليها من الثغور القاصية والبلد البعيد طلاب العلوم وأرباب الصنائع لنفوق أسواق المعارف والحِرف والصنائع بها.»[140]

ويؤكد الباحثون أن اهتمام الدولة الحمادية كان كبيراً بجميع النواحي العلمية والأدبية ،وبرز عدد لا بأس به من العلماء والأدباء في تلك الفترة كان لهم صيت ذائع في مجال تخصصهم،وقد شهد هذا العهد«نشاطاً هامّاً سواءً كان في الشعر مع النهشلي و الخشني و أبي الفضل النحوي وابن رشيق وابن حمديس وغيرهم أو في النَّقد الأدبي مع النَّهشلي صاحب "الممْتع" وابن رشيق صاحب "العمدة" والنَّثر الفني مع عمر بن فلفول والفلسفة مع البوني وعبد الحق البجائي وشعيب أبي مدين وأبي القاسم البسكري وابن محمد الأشيري وابن الرمّامة ويوسف الورجلاني،وفي النحو واللغة مع إبراهيم النّهشلي والخشني والتيهرتي وابن عبد المعطي.»[141]

---

[139]. عمورة عمار،موجز تاريخ الجزائر،مرجع سابق،ص 62.

[140]. ابن خلدون،تاريخ ابن خلدون،مرجع سابق،ص227.

[141]. رشيد بورويبة،الدولةالحماديةتاريخهاوحضارتها،ديوانالمطبوعاتالجامعية،الجزائر،1397هـ/1977م، ،ص 314/313.

وقد شهدت فترة حكم الناصر بن علناس تطورا واستقراراً،إذْ

« يعتبر الناصر خامس أمراء الأسرة الحمادية الذين حكموا البلاد

وطالت فترة حكمه حتَّى بلغت سبعةً وعشرين عاماً حافلةً بالأعمال

الجليلة والانتصارات الحربية و واضعاً الأسس لبناء دولة عصرية تضارع

الدول المعاصرة لها في المغرب الإسلامي من حيثُ القوة والتَّقدم الحضاري

والعمراني وبناءء الجيش»[142]

وكذلك كان الشأن بالنسبة إلى خليفته و وريثه في الحكم

الأمير المنصور الحمادي فـ« قد بلغت الدولة في عصره أقصى عصور

مجدها وأوجها،فقد عنى المنصور بالمنشآت والقصور و في أيَّامه أصبحت

بجاية من أعظم مدن إفريقية والمغرب الأوسط وأوسعها عمراناً وأكثرها

رخاءً وازدهاراً ٠٠٠و غلب على عهده طابع البناء الحضاري والثقافي،

والتطور العلمي والصِّناعي.»[143]

وندرك من خلال هذا أن الحمّاديين قد بلغوا مبلغاً عظيما في

ميدان الثقافة والعلوم،كما أن دولتهم كانت مقصداً لكثير من رجال

العلم والأدب فقد قصد عاصمتها ابنُ حمديس الشاعر الأندلسي واستقرَّ

بها ،ومدح المنصور كما فعل ابن هانئ مع الفاطميين وقد كان له مقام

---

[142]. عبد الفتاح مقلد الغنيمي،موسوعة المغرب العربي،المجلد 2، الجزء 4، مكتبة مدبولي القاهرة،ط 1، 1414هـ/1994م، ص 286.

[143]. نفسه، ص 295.

بها خاصة أيام استقرارها وازدهارها ذلك أن حكامها أغدقوا على رجال العلم والأدب وقرّبوا مجالسهم وأحسنوا كثيرا إليهم و« الجدير بالملاحظة أن القطر الجزائري عرف،في عهد بني حماد،بوادر نهضة ثقافية،وانطلاقاً لازدهار حضاري هام،يظهر بوضوح في وفرة الأدباء والعلماء،وعلو مستوى إنتاجهم،ولا سيَّما في مجال العلوم الدينية واللسانية،التي كانت لا تزال تحظى بإقبال جمهور الطلبة والمثقفين،وعنايتهم. ويبدو أن الاهتمام بالعلوم الدينية،وخصوصاً الفقه،يرجع أساساً إلى أثر الصراع المذهبي الذي عرفته البلاد منذ بداية القرن الثاني الهجري،وأدّى إلى نشأة العديد من المذاهب السياسية والاعتقادية والتشريعية، من صفرية وإباضية و زيدية وسنيَّة وباطنية، و واصلية وأشعرية،وغير ذلك،مما كان يتطلّب العناية بهذا الجانب، ويلفت الأنظار إليه.

كما يرجع إلى حاجة الدولة إلى موظفين تُسند إليهم مهام دينية، من قضاة ومفتين وغير ذلك،مما يوفر للطلبة إمكانية الحصول على وظيفة هامَّة.»[144]

ومما يذكر في هذا المضمار أنه بسبب تلك العناية التي أولوها للعلم والعلماء قصد بلادهم علماءُ وأدباءُ من كل الجهات فإن«شهرة الحماديين بتقريبهم العلماء ورعايتهم للعلم جلبت الكثير من عباقرة

[144]. عبد الحميد حاجيات،تطور الحياة الفكرية بالجزائر في عهد بني حماد،مجلة التاريخ ،المركز الوطني للدراسات التاريخية،العددان 24و25،87 . 1988م،،ص 31.

تونس والأندلس والشّام والحجاز والعراق وصقلية والعجم.فتقاطروا على "القلعة" و"بجاية" والعواصم العلمية الأخرى.فاستفاد الشَّعب من علومهم وثقافتهم اللامعة،فبلغ من إقبال الناس على العلم أنه كان يجتمع على الأستاذ الواحد ما يزيد على مائة طالب ولا فرق في ذلك بين المسلم وغيره ولا بين الأبيض والأسود. فنبغ في عهد بني حمّاد علماء مبرزون،وظهر مؤلفون متعمقون في مختلف العلوم التي كانت تمثِّل الثقافة في ذلك الوقت.»[145]

و لابدَّ من الإشارة إلى أن عهد بني حمّاد قد شهد ظهور نوع من الأدب الشّعبي تلا الزّحف الهلالي على البلاد الجزائرية في القرن الخامس الهجري،فقد «اتفق أَنْ زَحَفَ أعراب بني هلال في هذا العهد على الشّمال الإفريقي فلمّا احتكوا بأهالي الجزائر واندمجوا فيهم فجرى بينهم ما جرى ظَهرَ عندئذ نوع من الأدب الشَّعبي،فكل جزائري يعرِفُ قصَّة جارية الهلالية مع الأمير الأمازيغي،وهذه القصة هي في الحقيقة ملحمة الجزائر الوطنية.»[146]

وهناك أسماء كثيرة برزت في سماء الأدب والثقافة والعلم في فترة بني حماد؛ومن تلك الأسماء :« المحدِّث الكبير أبو بكر بن عبد الله بن

---

[145]. محمد الطمّار،تاريخ الأدب الجزائري،مرجع سابق،ص115.

[146]. عبد الرحمن الحاج صالح، الأدب العربي القديم في الجزائر،مجلة آفاق،مرجع سابق،ص 27.

محمد بن يحي القرشي الجمحي الوهراني،والعالم الشيخ أبو القاسم يوسف بن علي جبارة بن محمد بن عقيل الهندلي البسكري المولود سنة ثلاث وأربعمائة للهجرة(403هـ)والفقيه عبد الملك مروان بن علي الأسدي القطاني البوني نسبةً إلى بونة،والحكيم الرياضي أبو محمد عبد الله بن يونس بن طلحة بن عمرون الوهراني تضلَّع في الطب وتبحر في الرياضيات،ومنهم كذلك الحسن بن علي بن طريف التيهرتي وغيرهم كثير»[147]

ولعل عدد الشعراء والأدباء إجمالا كان كثيرا في تلك الفترة،لكن الظروف التي شهدتها الدولة الحمادية لم تسمح بتدوين ما أنشأ هؤلاء من قصائد ومن نثر فني يسبب الحروب والفتن التي شهدتها الدولة الحمادية التي عمرت قرناً ونصف القرن من الزمان،كما لم تسمح حتى بمعرفة أسماء كل الشعراء والأدباء الذين عاشوا في ذلك العهد لذلك لم يعثر على إنتاجهم «ويمكن أنْ يُعزى عدم العثور عليهم إلى أسباب منها عدم اكتراث الأمراء بهم،لاشتغالهم عنهم بالحروب وخاصة في المرحلة الأولى من نشوء الدولة إلى زمن الناصر،أو أنّ هؤلاء الشعراء منهم من آثر العزلة فتوارى،أو اختار الهجرة تبرُّماً بنظام الدولة لأن أميرها كان الحاكم المستبدَّ،لا يقبل أن يتدخل أحدٌ في شؤون المملكة. ولا ينازعه في

[147]. ينظر:محمد الطمار،تاريخ الأدب الجزائري،مرجع سابق،ص116وما بعدها.

سلطته.فيكون هؤلاء الشعراء عرفوا من الأمراء الذين سبقوا يحي ما نفَّرهم من خدمتهم والتقرُّب إليهم.وقد يكون منهم من نكف أن يقترب من الأمراء ويتملقهم كي لا يستخدموه في أغراضهم الشخصية والسياسية؛لأن العقلاء أعرف النّاس بدسائس الأمراء ومكر السّاسة.»[148]

ويشهد لبجاية عاصمة الحمّاديين أنها بلغت مبلغاً عظيما في التطور العلمي والتحضر العمراني خلال تلك الفترة وما تلاها،«فقد شهدت بجاية نهضةً علميةً وفكرية وثقافية هائلة خلال العصر الحمَّادي،والعصور التي تلته إلى مطلع القرن السادس عشر الميلادي.

وقامت بها مدارس ومعاهد،علمية ذات شهرة،ومساجد جامعة،وزوايا صوفية عريقة،ونبغ بها علماء أجلاء كان لهم رأي في الشّريعة الإسلامية،وشعراء فحول،وحكماء متضلِّعون في الفلسفة والحكمة،وعلم التّوحيد،والمنطق ولغوّيون مبرزون.ومحدِّثون أمناء،ومدقِّقون ومحققون في الرِّواية والسّند،ومتصوفون في القمّة،ورياضيون مبتكرون وطلاب علم ومعرفة من أنحاء العالم الإسلامي شرقه وغربه،من الأندلس إلى بلاد فارس،ومن بلاد أوربا خاصة إيطاليا،وفرنسا،واليونان.»[149]

---

[148] . أحمد بن محمد أبورزاق،الأدب في عصر دولة بني حماد،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،دت،د ط،ص 148،147.

[149] . يحي بوعزيز،أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة،ج1،مرجع سابق ،ص 15.

إذن عُرف فيها هؤلاء من العلماء والأدباء الذين تجاوزت شهرتهم حدود الرقعة الجغرافية التي امتد عليها الوجود الحمادي« ومن ثمَّ فإنَّ الحواضر و المراكز العلمية والثقافية عرفت علماء جزائريين خلال هذين القرنين، لم يستغن اللاحقون عن بصمات أفكارهم النيّرة في اللغة والأدب والحديث والشريعة والعلوم الفلكية والرّياضية.»[150]

كل ذلك يعود إلى تلك النهضة العمرانية التي شهدتها الدولة الحمادية وعمل حكّامها على تخطيط المدن وإنشائها وإعمارها،مما جعلها قبلة للعلماء والأدباء وطلاب العلم من مختلف الجهات،وهو ما يفسِّرُ«الارتباط الوثيق بين الازدهار الثقافي والتطور العمراني،فتكاثر المدن يؤدي إلى تزايد تحوُّل المجتمع البدوي أو الرِّيفي إلى مجتمع حضاري،يشكِّلُ الإطار الأمثل للإشعاع الفكري.وهذا يفسِّرُ ولو جزئياً التّقدُّم الثقافي التي حققته بلاد إفريقية،وبخاصة قاعدتها القيروان،بالمقارنة مع بلاد المغرب الأوسط،ولا سيَّما النّاحية الغربية منه،التي كانت قليلة المدن نسبياً،رغم ما تمَّ تأسيسه بها خلال القرن الثالث الهجري والقرن الرّابع،مثل تنس ووهران، وهنين وغيرها،على يد التجّار الأندلسيين غالباً.»[151]

---

[150]. محمد الطمار،المغرب الأوسط في ظل صنهاجة،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،دط،2010م، ص9.

[151]. عبد الحميد حاجيات،تطور الحياة الفكرية بالجزائر في عهد بني حماد،مجلة التاريخ،مرجع سابق، ص30.

ورغم أنَّ الدولة الحمادية تعتبر دولة بربرية فقد«كانت لأسرة من صميم البربر وبيوتهم العريقة في صنهاجة،وبذلك كانت دولة بربرية بحتة،وأيضاً فإنها اتخذت العربية لسانها ولغةً رسميةً لها، وعملت ـ بكل وسيلة ـ على نشرها لا في العاصمة فحسب،بل أيضاً بين القبائل،وعملت أيضاً ـ بكل ما استطاعت ـ على ازدهار نهضة في بلادها علمية وأدبية وحضارية.»[152]

ومهما يكن من أمر،ورغم تنوُّع الاهتمام بالجانب الأدبي في عهد الدولة الحمادية إلا أنه وحسب بعض الباحثين فإنه«يمكننا الحكم على أدب الجزائر في هذه الفترة،بأنه أدب تقليدي يلتزم السَّجع في النَّثر،والدِّيباجة التقليدية في الشعر من رصانةٍ لفظيةٍ إلى محسِّنات بديعيةٍ إلى موضوعات تكاد تكون هي نفسها في المشرق،ويغلبُ على أكثرها المدح في الشعر والكتابة الدِّيوانيةُ في النَّثر.»[153]

لكن ما يؤسف له حقا أن أغلب ما ذكر عن هذا الإنتاج الإبداعي في مجالي الشعر والنثر، لم يبق منه إلا النزر القليل؛مما قد لا يعطي نظرة شاملة عن مدى ما وصل إليه أدباء تلك الفترة من تاريخ الأدب الجزائري القديم،إلا أن ذلك لا ينفي أن الجزائر عرفت«في هذه

---

[152]. شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات (الجزائر المغرب الأقصى موريتانيا السودان)،مرجع سابق،ص 37.
[153]. المرجع السابق،ص268.

الفترة أدباء كثيرين ذوي عارضة في الأدبِ،والأدبُ تقدَّم تقدُّماً محسوساً من حيث الكم.وأمّا من جهة الكيف فظلَّ يتَّسِمُ بسمات المدرسة الشّرقية المحافظة في معالجة الشِّعر من حيثُ الموضوعات التقليدية. فهو يتناول المدح والهجاء والرِّثاء والوصف والغزل والزهد والوعظ.والتّاريخ يثبت أن الجزائر كانت زاخرة بكُتّاب جادت أقلامهم بالمقالات العلمية والأدبية والخطب الدِّينية والسِّياسية والرّسائل الرَّسمية الدّيوانية،فكان الإنشاء في صدر هذا العصر يسير على النِّظام المعهود من الكلام المرسل،ولكن ما لبث أن ارتقى،فتأنَّق الكُتّاب في إنشائهم شأن المشارقة.فمالوا إلى السَّجع والتّزيين والتّنميق وتقليب الجُمَل على المعنى الواحِد ولكن على غير إفساد في الذّوق وبدون أن تتغلب الصِّناعة على الفن.وازدهار الكتابة يرجع إلى عناية"بني حمّاد" بالأدب والأدباء.فكانت للكتابة عندهم منزلة ليس وراءها إلا منزلة أمراء الجيش،إذ كانوا هم العمدة يتناول إنشاؤهم التهنئات بالنَّصر وتقليد الوظائف ومكاتبات العمّال والأمراء والملوك.»[154]

وكل ذلك إنما يدلُّ على أن أمراء الدولة الحمادية كانت لهم عناية خاصة بالأدب والأدباء،كما كان لغيرهم من الحكام والأمراء الذين تداولوا على بلاد المغرب الأوسط منذ الفتح الإسلامي وإلى ذلك العصر

[154]. محمد الطمّار،تاريخ الأدب الجزائري،مرجع سابق،ص118.

وحتى بعده،ولنا بعد هذا وقفة تالية مع أعلام تلك العهود بدءً من الفتح الإسلامي للمغرب الأوسط وحتى سقوط الدولة الحمادية، ومن خلال ذلك سنقف على ما أبدع هؤلاء وما تركوا في ميدان الأدب خاصةً شعراً ونثراً من آثار خلَّدَتْ ذكرهم عبر العصور ونقلتها للأجيال اللاحقة،لتعرف من خلالها ميراث الأوائل من الأجداد الذين فتحوا هذه البلاد واستوطنوها وعُجنوا بتربتها وامتزجوا بأهلها وكوَّنُوا معهم عنصرا واحداً؛ وحَّده الدين واللغة ودأب على هذا الوصال منذ تلك الحقب،وأنجب أعلاماً كثيرين منهم من بقيت آثارهم إلى الآن ومنهم من طواهم الزمان فلم يُعلم عنهم شيءٌ؛ وممن بقيت إبداعاتهم وإنتاجهم الفكري نحاول أن نتعرف عليهم في ما يأتي من وريقات هذا البحث،وسنحاول أن نذكرهم وفق الترتيب التاريخي لظهورهم على مسرح الحياة،وذلك بتناول سيرهم الشخصية المستقاة من المصادر التي كتبت تراجمهم،إضافةً إلى ما أُحتُفظ به من إبداعاتهم المتناثرة هنا وهناك في ثنايا كتب التاريخ والتراث العربي القديم.

الباب الثاني

الحركة الأدبية وأعلامها

الفصل الأول

تطور الحركة الأدبية وأعلامها

من الفتح إلى سقوط الدولة الرستمية والأغلبية

ككل قطر من الأقطار شهد المغرب الأوسط بروز العديد من رجال العلم والأدب؛ ممن ولدوا بأرضه أو قصدوه لغرض من الأغراض،وفي حديثنا عن أعلام المغرب الأوسط في فترة البحث؛وهي الفترة الممتدة من الفتح الإسلامي لهذا البلد إلى تاريخ سقوط دولة بني حماد نحاول الحديث عنهم وفق الظهور التاريخي لهؤلاء الأعلام ،ولكن ضمن الدول أو الإمارات التي عاشوا في عهدها دون النظر إلى من وُلد أولا أو سبق في الظهور عن غيره من الأدباء،كما يكون لنا حديث عن إنتاج هؤلاء الأعلام في مختلف الأجناس الأدبية وإشارات إلى ما ألفوا من تصانيف في ميادين العلم إن وجدت.

و سنبدأ من البداية،بغض النظر عن الفاتحين الأوائل الذين تركوا شيئاً من الأدب تمثل خاصة في الخطب أو الرسائل، وقد سبقت الإشارة إلى ما نُسب إلى القائد الفاتح عقبة بن نافع في خطبة و وصية ذكرهما المالكي في مؤلفه'' رياض النفوس'' وكذلك الخطبة التي تُنسب إلى موسى بن نصير.

وجدير بالقول إنه يجب الإشارة حتى إلى البدايات التي كانت مع الفاتحين الأوائل وما قالوه من شعر أو نثر؛فقد جاء في ثنايا الكتب التراثية بعضاً ممّا خلفه هؤلاء ويبدو أنه ليس كل ما قالوه وإن كانوا مشغولين عنه بالفتوح ونشر الدين الجديد لأبناء الأوطان التي فتحوها

ذلك أنه « لم يكن في عهد الغزاة الفاتحين من العرب،ولا في عهد الولاة الشرقيين بالجزائر ولا بغيرها من بقية أقطار المغرب العربي الكبير أدباء مبرزون وهذا شيءٌ طبيعي لأنَّ سكان البلاد أعاجم لم يتعلّموا من لغة العرب إلاّ ما هم في حاجة أكيدة إليه ممّا تدعو إليه الحاجة من القيام بالشعائر الدينية حيث أنهم حديثو عهد بالإسلام.أمّا العرب الفاتحون الذين استوطنوا البلاد فعددهم كان قليلاً جدّاً إذْ أكثرهم نزح إلى المغرب الأقصى ثمَّ إلى الأندلس من أجل إتمام الفتح.»[155]

ورغم ذلك فقد نقلت لنا بعض كتب التاريخ بعضاً مما قيل نثرا خاصة في تلك الفترة من تاريخ المغرب الأوسط؛ومن ذلك ما ذكره المالكي و أورده منسوباً للفاتح عقبة بن نافع وصية لأبنائه وخطبة ألقاها في تاهرت نقتطف منها هذه الجمل،قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه:«أيُّها النّاس!إن أشرافكم وخياركم،الذي رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه،بايعوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بيعة الرضوان على [قتال]من كفر بالله إلى يوم القيامة،وهم أشرافكم والسّابقون منكم إلى البيعة باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة. وأنتم اليوم في دار غربة [وإنّما بايعتم رب العالمين وقد نظر إليكم في مكانكم هذا،ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً

[155]. محمد بن رمضان شاوش و الغوثي حمدان،إرشاد الحائر إلى أدباء الجزائر،مرجع سابق،ص 12.

لدينه.فأبشروا!...»[156]

وفي الوصية التي ألقاها في القيروان يوصي أبناءه،فنجده يقول فيها:

«إني بعت نفسي من الله،وما أدري ما يأتي عليّ في سفري،يا بني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوهاولاتضيعوهاإياكم أن تملأوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن،فإن القرآن دليل على الله عز وجل،وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب ويدلُّكم على مكارم الأخلاق ثُمَّ انتهوا عمّا وراءه.وأوصيكم ألاَّ تداينوا ولو لبستم العباءة فإنّ الدَّيْن ذلٌّ بالنّهار و همٌّ باللّيل .فدعوه تسْلمْ لكم أقداركم وأعراضكم، وتبْقَ لكم الحرمةُ في النّاس ما بقيتم ،ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين،فيجهلوكم دين الله ويفرِّقوا بينكم وبين الله تعالى،و لا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم،ومن احتاط سلِمَ ونجا فيمن نجا» ثمَّ قال«وعليكم سلام الله،وأراكم لا تروني بعد يومكم هذا» ثمّ قال «اللهم تقبل نفسي في رضاك،واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك.»[157]

هذان نصان وربما كانت هناك نصوص أخرى ،وقد تكون كثيرة

---

[156]. المالكي،رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم،تح بشير البكّوش،الجزء الأول،ط1414،2هـ - 1994م،دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان،ص37.

[157]. نفسه ،ص 34 35.

شعراً ونثراً،ولكن انشغال الفاتحين بما جاءوا من أجله لم يكن ليسمح لهم أن يفكروا في تدوينه أو نشره بين الناس، حتى تتناقله الألسن وتحفظه العقول، ولم تكن ثقافة التدوين قد عرفت في بقاع الدولة الإسلامية الناشئة.كما أن سكان المغرب الأوسط آنئذٍ كانوا حديثي عهد بالدين الإسلامي وباللغة العربية فلم يكونوا ليبدعوا بها أدباً في بداية دخولهم الدين الجديد،ولذلك نجد كثيراً من الدارسين يشككون في نسبة خطبة طارق بن زياد فاتح الأندلس له، رغم أن فتح الأندلس جاء بعد حوالي نصف قرن عن فتح المغرب عموما والمغرب الأوسط على وجه الخصوص،وهي فترة تبدو كافية لتعلم اللغة العربية وإتقانها ومن ثمَّ إبداع نصوص شعرية أو نثرية بها من قبل الأمازيغ الذين اعتنقوا الإسلام وآمنوا به وصاروا جنوداً فاتحين لكثير من الأمصار.لذلك فلا عجب أن يكون طارق هو صاحب الخطبة ومُنْشِؤُهَا،وليس بعيدا أن يكون غيره من الأمازيغ قد أبدعوا نصوصهم هم كذلك بلغة القرآن،ولكنها لم تصل إلينا،فقد كانت السيطرة لها والإقبال كبيرا على تعلمها باعتبارها مفتاح فهم النصوص الشرعية،كما أنها كانت السبب المباشر في نيل الوظائف في الدولة في ذلك الزمن .

وإذا كان أدباء تلك الفترة قد أبدعوا نصوصاً،فلا بدَّ أنها كانت في مختلف الأغراض التي عرفت آنئذٍ من فخر وحماسة ومدح

وغزل وغيرها مما قال فيه أدباء وشعراء مختلف الدول والإمارات التي عرفت في ذلك الزمان.

أما الفترات التي تلت مرحلة الفتح ،وتكوَّنَتْ فيها الدول والدويلات،فقد شهدت هي الأخرى تطورا في مجال الأدب وبرز فيها عديد الشعراء؛ الذين أبدعوا في مختلف الأغراض وبلغوا شأواً كبيرا في مضمار فن القول،ذلك أن المغرب الإسلامي شهد نشوء عديد الدول والدويلات التي توالت على حكمه بعد فترة ليست بالطويلة بعد الفتح النهائي له.

أما ما يُنسبُ إلى أبناء المغرب فإن خطبة طارق بن زياد تعتبر أول إنتاج أدبي وصل إلينا وإن كان لبعض الدارسين تشكيك – كما جاء في البحث سابقا– في نسبة هذه الخطبة إلى صاحبها،إلا أن ذلك رأي قابل للأخذ والردّ، وقد يرجح نسبتها إلى قائلها بالنظر إلى المدة الفاصلة بين إلقاء القائد البربري طارق لها وتاريخ الفتح الإسلامي للمغرب عموماً،وهو زمن كفيل بأن يتعلم فيه العربية ويتقنها وينظم بها شعرا أو يقول بها نثراً.

إذن يمكننا القول إن طارق بن زياد يعدُّ أول أعلام تلك الفترة المتقدمة من التاريخ ، ولا يمكن الجزم بأن طارق بن زياد ينتمي إلى هذا القطر دون ذاك من أقطار المغرب العربي حاليا،ذلك أن الحدود

الجغرافية المعروفة في عصرنا الحالي لم يكن له وجود في ذلك العهد وبالتالي فإن نسبته إلى أي من أقطار المغرب العربي ممكن دون جزم بأنه تونسي أو جزائري أو مغربي.و«طارق بن زياد البربري،ينتمي إلى قبيلة '' الصدف''، وكانت مضارب خيام هذه القبيلة في جبال المغرب العالية، وهي قبيلة شديدة البطش،كثيرة الغزو،يمتاز أفرادها بميلهم الفطري إلى التمرد و عدم الانقياد،أما ديانتها فكانت الديانة الوثنية،وإلى هذه القبيلة بمفاهيمها و تقاليدها ينتمي البطل الفاتح طارق بن زياد.

اختلف المؤرخون في نسبه وشهرته،فذكر بعضهم – أنه بربري الأصل – ينتمي إلى نغزاوة من بربر إفريقيا وهي البلاد التي يطلق عليها اسم تونس الآن،وفي رواية أخرى أنه بربري من قبيلة زناتة،ويرى البعض أنه من موالي الفرس في مدينة همذان.»[158]

وكما هو ملاحظ في هذه الترجمة اليسيرة فإن الاختلاف في انتمائه كبير،ولكن المؤكد أنه بربري من بلاد المغرب. وممن تحدث عنه الدارسون في العهود الأولى للفتح الإسلامي للمغرب من رجال الأدب،وقد اختلفت حولهم الأقوال،يلخصها الباحث الجزائري الدكتور العربي دحو بقوله:«أما ما قيل عن أول شاعر عربي من مواليد الديار المغربية،النّابغين بالعربية بعد الفتح فنجد رأيين أحدهما يقترح علينا

[158]. حسين شعيب،طارق بن زياد فاتح الأندلس،دار الفكر العربي، بيروت لبنان،ط1،2004م،ص11.

اسم''سابق البربري المطماطي''،والآخر هو عبد الرحمن بن زياد القيرواني، و هذا الرَّأي الثّاني ينفرد به رابح بونار،وسرعان ما يتخلى عنه بعد اطلاعه على رأي محمد النّاديي عبد الفتاح الذي اعتقد أن ''سابقاً'' هو أول شاعر مغربي المولد برع في قرض الشعر باللُّغة العربية،معتمداً في ذلك على النّص المنسوب إلى هذا الشاعر،والذي قال يعظ فيه الخليفة الإسلامي العادل(عمر بن عبد العزيز):

إن الأمور إذا استقبلتها اشتبهت

وفي تدبُّرها التّبيان والعبر

والمرء ما عاش في الدُّنيا له أمل

إذا انقضى سفر منها أتى سفر

لها حلاوة عيش غير دائمة

وفي العواقب منها المد والصبر

وليس يزجركم ما توعظون به

والبُهم يزجرها الرّاعي فتنزجر

أصبحتم جزراً للموت يقبضكم

كما البهائم في الدُّنيا لكم جزر» (159)

[159]. العربي دحو،الأدب العربي في المغرب العربي،دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة،د ط، 2007م، ص 78.

أما بعد أن شهدت بلاد المغرب ظهور الدول والدويلات ،فقد كان لكل واحدة من تلك الدول شعراؤها وكتابها،ورغم أن ما وصلنا من إنتاجهم يعتبر قليلا وغير كاف لأخذ نظرة شاملة عن الأدب في تلك المراحل إلا أن ذلك لا يمنع من أن نحاول استعراض ما بقي منه،وهو لا شك يعطينا فكرة عما بلغه أدباء ذلك الزمان في مجال الإبداع الأدبي. ولا شك أيضاً أن أدباء تلك الفترة من تاريخ المغرب الأوسط، كان لهم اهتمام بكل تلك الموضوعات التي طرقها غيرهم من الشعراء؛ سواء في المشرق العربي أو في الأندلس،كما أنهم كانوا على اتصال بما يجري من أحداث ومستجدّات في أوطانهم أو الأوطان التي استوطنوها أو سافروا إليها لغرض أو آخر.

وكما هو معلوم فإن المغرب الأوسط —الجزائر— شهد نشوء أولى تلك الدول التي عرفها المغرب عموما من إفريقية إلى المغرب الأقصى وهي الدولة الرُّستمية، التي اهتمت اهتماماً كبيرا بالأدب والعلم ونشر الثقافة؛فأسست المدارس وبنت المكتبات وجلبت الكتب من كل مكان فنبغ فيها علماء وشعراء،وكان أيضاً من أئمتها أدباء وعلماء ألَّفوا الكتب وقالوا الشِّعر وألقوا الدروس في المساجد زيادة على ممارستهم الحكم و إدارة الدولة.

وأغلب ما وصل إلينا من نصوص نثرية أو شعرية عن تلك الفترة

تمثّل في رسائل ديوانية كتبها أئمة بني رستم؛راسلوا بها من ولوهم على بعض المناطق ،أو توجهوا بها إلى معارضي سياستهم ناصحين حينا ومهددين أحيانا أخرى من عاقبة نشر الفتن بين الناس وتحريضهم على الخروج عن الأئمة الرستميين،أو نصوص شعرية بعضها من إبداع أحد أئمة بني رستم (أفلح بن عبد الوهاب) ونصوص أخرى لشعراء آخرين عاشوا في كنف دولة بني رستم .

وقد سبق الحديث عن اهتمام أئمتها بالعلم والأدب وحرصهم على الثقافة وجلب الكتب ونشر التعليم، وممن يشتهر من حكامها ببروزه في ميدان الشعر الإمام أفلح بن عبد الوهاب وهو«أفلح بن عيد الوهاب،ثالث الأئمة الرُّستميين، تلقّى الإمام أفلح العلم بتيهرت عن أبيه عبد الوهاب.(حكم بين 171هـ–208هـ/787–823م)،وعن جدّه عبد الرحمن (حكم بين 160–171هـ/776–787م)،وعن غيرهما من مشايخ تيهرت.

كان عالما من أكبر علماء زمانه،فقيها وشاعراً،وقد تصدَّر صغيراً للتدريس،وإلقاء العلوم على اختلاف فنونها.من مؤلفاته ما طبع والكثير في حيز المخطوط.وفي سؤالات السُّوفي روايات فقهية وفتاوى رويت عنه؛ وقد بلغ في حساب الغبار والنجامة مبلغا عظيماً،وكان إلى ذلك كله شاعرا مجيدا،له قصيدة رائية في التَّحريض على طلب العلم.

بلغت الدولة الرُّستمية في عهده من الرُّقي مبلغا كبيراً،و وصلت إلى أوج ازدهارها.كان الأمام أفلح رجل علم وسياسة وقيادة و دولة.توفي سنة 258هـ/871م على أكبر تقدير،وخلفه ابنه أبوبكر.»[160]

لا تذكر الكتب له في مجال الشعر إلا رائيته التي مطلعها:

العلم أبقى لأهل العلم آثاراً

يريك أشخاصهم روحا وأبكارا

إذن فقد«عرف أفلح بن عبد الوهاب بقصيدته في آداب العلم والمتعلم،وهي قصيدة رائية على البحر البسيط التّام،وتفعيلاته(مستفعلن،فاعلن،مستفعلن،فاعلن× 2) وقد استعمل البحر البسيط في تبسيط اللغة،وفي القصائد الوعظية... والقصيدة من نوع الشعر العمودي،وتتكون من (44)بيتاً شعرياً،وهي قصيدة لكل ذلك تُعدُّ من المطولات،ألزم فيها الشّاعر نفسه بلزوم ما لا يلزم،فجاء البيت الأول مُصَرَّعاً،ولما كانت القصيدة ذات نفس تعليمي وعظي،فإنها تعمدُ إلى تخيُّر صورة شعرية لا تخرج عن مصادر تصوير الشاعر العربي القديم،مستمدة من البيئة البدوية والطبيعة الصحراوية ومن متون النصوص الدينية والشعرية والأمثال السّائرة.

---

[160]. مجموعة من المؤلفيين،معجم أعلام الإباضية من القرن الأول الهجري إلى العصرالحاضر،قسم المغرب الإسلامي،الجزء الثاني،دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان،ط1421،2هـ/2000م،صص 60 61 (بتصرف).

أمّا من جهة الغرض الشعري الذي كتبت فيه القصيدة، فهي غرض الوعظ والنُّصح والإرشاد،آخذة من موضوع العلم والتَّعلم وقيمه موضوعها الأثيل،وهو موضوع متداول قديما وحديثاً،علاوةً على مركزيته كمفهوم في شروط شيخ الحلقة الإباضي.»[161]

ومادام أحد أئمة بني رسم قد عرف بنبوغه في الأدب واشتهاره بنظم القريض،فلابُدَّ أن عهدهم كان زاخراً بالشعر والشعراء ومن بين هؤلاء و لعله أكثرهم شهرة الشاعر بكر بن حماد التاهرتي وهو « أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن صهر أو سهل؟...بن أبي إسماعيل الزناتي التاهرتي هو من أشهر كبار علماء الجزائر وأدبائها في هذا العصر،ولد ونشأ بتيهرت حوالي سنة 200هـ _816م أخذ العلم والأدب عن علماء بلده ثمَّ ارتحل إلى القيروان فأخذ عن أمثال صاحب المدونة سحنون بن سعد،ودخل بغداد سنة 217هـ_832م فأخذ عن ابن مسدود و عمرو بن مرزوق وبشر بن حجر،ولقي من الأدباء أمثال أبي تمام صاحب ديوان الحماسة ،ودعبل الخزاعي،و علي بن الجهم ،ومسلم بن الوليد (صريع الغواني) وابن الأعرابي،و الرياشي وأبي حاتم السُّجستاني وغيرهم من فطاحل الأدب العربي وشيوخ المشرق وعلمائه وكانت له مع

[161]. علي البوجديدي،من نفائس المكتبة البارونية بجربة:القصيدة الرائية في أدب العلم والمتعلم للإمام أفلح بن عبد الوهاب بن عبدالرحمان بن رستم الفارسي(توفي 258هـ):دراسة وتعليق،مجلة الحياة الثقافية،وزارة الثقافة تونس،العدد 240،أفريل 2013م،صص 39 .40

هؤلاء مساجلات ومطارحات أدبية شعرية و نثرية، واتصل بخلفاء الدولة العباسية وبملوك بلدة تيهرت،وحصلت له جوائز وصلات من الملوك و الأمراء.» [162]،فاكتسب بذلك تجربة صقلت موهبته الشعرية فأخرج لنا روائع شعرية بقيت خالدة على مر العصور،وقد تنوعت موضوعات قصائده فشملت المدح والهجاء والرثاء والزهد وغيرها من أغراض الشعر المختلفة،ولعل ما ضاع من شعره أكثر بكثير مما بقي.

والشاعر بكر بن حمّاد الذي قال فأجاد في أغراض كثيرة قد جمع شعره وقدم له الأستاذ الجزائري محمد بن رمضان شاوش في ديوان موسوم بـ: "الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد " وهو ديوان يشتمل على ما بقي من قصائد الشاعر بكر بن حمّاد الذي طاف عديد الأمصار والمدن في حياته والتقى العلماء والأمراء والشعراء كما أنه دَرَسَ ودَرَّسَ علم الحديث.ويشير أحد الباحثين من القطر السوري الشقيق إلى أنه« لم يُعرف لبكر ديوان شعر مخطوط،بل جاءت أشعاره متفرّقة في المصادر المختلفة،فحاول بعض المهتمّين بالأدب جمع ما تناثر من أشعار بكر في المصادر المخطوطة أو المطبوعة؛فقام الأستاذ محمد رمضان الشّاوش بأولى المحاولات الجّادة لجمع شعر بكر في ديوان؛فجمع له مائة وأحد عشر بيتًا في كاتبه''الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد''،و صنع للكتاب مقدمة

[162] . عبد الرحمن بن محمد الجيلالي،تاريخ الجزائر العام،الجزء الأول،مرجع سابق،ص 179.

تاريخية قيمة عن حال المغرب الإسلامي ومدينة تاهرت وحضارتها،ورتّب أشعار الديوان بحسب أغراضها الشعرية:باب الوصف،باب الهجاء،باب المدح،باب الزُّهد والوعظ،باب الاعتذار،باب الرّثاء.وقام بشرح ما غمُض من المفردات والمعاني،ثمَّ ذيّل كتابه بفهارس

للأعلام،والقبائل،والأماكن،والقوافي والمصادر والمراجع،ولم يثبت اختلاف الرواية بين المصادر المختلفة،وهي أمور مهمة في جمع الشعر وتحقيقه.

ثمَّ جاء أخونا المفضال الدكتور محمد المختار العبيدي،الأستاذ بالجامعة التونسية،فضمَّن ما جمعه من شعر بكر بن حماد في أطروحته لنيل دكتوراه الدولة التي تقدم بها إلى الجامعة التونسية،و طبعها فيما بعد بعنوان ''الحياة الأدبية بالقيروان في عهد الأغالبة''،واستطاع أن يضيف إلى عمل سابقه واحداً وثلاثين بيتاً ليصبح المجموع مائة و اثنين وأربعين بيتاً.وقام الدكتور العبيدي بتخريج الأشعار،وإثبات اختلاف الرواية بين المصادر،ولكنه أخلَّ بشرح الغريب من المفردات، وهو بعمله قد أكمل النَّقص الذي وقع فيه سابقُه.»[163]

ثُمَّ يشير إلى ما قام به من عمل،وهو عمل يظهر فيه جهد كبير قام به الباحث مُستدْركاً على سابقيه ما فاتهم من أشعار بكر بن حماد في كتب التراث، وعن ذلك الجهد يقول:«وكان لا بُدَّ من عمل

[163]. علي إبراهيم كردي،بكر بن حمّاد التّاهرتي حياته وشعره،الهيئة العامة السورية للكتاب،وزارة الثقافة،دمشق 2011م،د ط، ص5.

يجمع بين الجهدين السَّابقين ويستدرُك ما فات الأستاذين الفاضلين من شعر بكر،فقُمْتُ بهذه المحاولة إيماناً منّي بأهميَّة شعر بكر بن حمّاد باعتبارهُ مثّلُ بواكير الشّعر العربي في المغرب،ورغبةً مني في التعريف بالشُّعراء المغاربة،وتقريب أشعارهم إلى المهتمين بالأدب المغربي عموماً،وإلى أهل المشرق خصوصاً.

وقد استدركت على ما جمعه الدكتور العبيدي اثنين وعشرين بيتاً: ستة أبيات مقصورة في الحنين إلى الأيَّام الماضية،في شرح المقامات للشريبني،وأربعة أبيات رائية في الزُّهد،في بهجة المجالس لابن عبد البر،وقصيدة دالية في الزُّهد في سبعة أبيات،أوردها الجراوي في الحماسة المغربية.

وأضاف ابن عبد البر في الاستيعاب أربعة أبيات في رثاء الإمام علي – كرَّم الله وجهه – وهجاء عبد الرحمن بن ملجم على البيتين الميميين اللَّذين ذكرهما العبيدي،فيكون مجموع ما ضمَّه الدّيوان مئة وأربعة وستين بيتاً.»[164]

و يذكر أيضاً من شعراء الدولة الرّستمية وتاهرت شاعر آخر يدعى سعيد بن واشكل التاهرتي وهو من شعراء القرن الثالث الهجري

[164] المرجع السابق،ص 7/6.

عاش بتاهرت فترة من الزمن ثم انتقل إلى مدينة تنس بولاية الشلف حاليا،وله فيها مما بقي من شعره مقطوعة من ستة أبيات يظهر فيها تبرمه من سكناها،وقد اعتل بها ومات،يقول:(الطويل)

نأى النَّومُ عنّي واضمحلّت عُرى الصّبْر

وأصبحْتُ عن دار الأحبّة في أسْر

وأصبحْتُ عن تيهرت في دار معزل

وأسْلمني مُرُّ القضاء من القدر

إلى تنس دار النّجوس فإنَّها

يُساقُ إليها كل منتقض العمر

بلادٌ بها البرغوثُ يحملُ راجلاً

ويأوي إليها الذّئبُ في زُمر الحشر

ويزْحفُ فيها العامُّ في كل ساعة

بجيش من السودان تغلَّب بالوتر

ترى أهلها صرعى دوى أم ملدم

يروحون في سكر ويغدون في سكر (165)

نقلها لنا صاحب "المسالك والممالك"مع مقطوعة من ستة أبيات

---

[165]. البكري،المسالك والممالك،المجلد2،مرجع سابق،243.

لشاعر آخر غير معروف يذُمُّ و يهجو بخل أهلها.يقول فيها(من الرمل):

أيُّها السّائل عن أرض تنس
مقعد اللؤم المصفّى والدّنس
بلدة لا ينزل القَطْرُ بها
والنّدى في أهلها حرفٌ درس
فُصحاء النُّطْق في لَا أَبَداً
وهُمْ في نَعَمْ بُكْمٌ خُرْس
فمتى يَلْمُمْ بها جاهلُها
يرتحلْ عن أرضها قبل الغلسْ
وماؤها من قبح ما خُصّتْ به
نَجَسٌ يجري في نجس

فمتى تلعنْ بلاداً مرَّةً
فاجعل اللَّعنة دأْباً لتنس (166)

ويبدو من أسلوب المقطوعتين أنهما من نظم سعيد بن واشكل،فهو يبدي تبرمه منها ويذمُّ أهلها ويشكو حالة الغربة التي يعيشها في تنس.

إضافة إلى هؤلاء عاش في تيهرت وفي كنف الدولة الرُّستمية أكثر من شاعر؛يذكر صاحب "البيان المغرب" قصيدة ومقطوعة لأحد شعرائها المجهولين؛ تتناول القصيدة موضوع الهوى أما المقطوعة فتدور حول خراب مدينة تاهرت ،يقول عن الهوى(من بحرالطويل):

فراغ الهوى شُغل ومحيا الهوى قتل

[166]. المرجع السابق،ص244.

ويوم الهوى حول وبعض الهوى كلُّ

وجودُ الهوى بُخلٌ ورسل الهوى عدم

وقرب الهوى بعد وسبق الهوى مطل

سقى الله تاهرت المنى وسويقة

بساحتها غيثاً يطيب به المحلُّ

كأنْ لم يكنْ و الدار جامعة لنا

ولم يجتمعْ وصْلٌ لنا ولا شمْل

فلمّا تمادى العيش وانشقت العصا

تداعت أهاضيب النوى وهي تنهل

سلام على من لم تطق يوما بيننا

سلاما ولكن فارقت وبهاثكل

وما هي آمال تفيض دموعها

ولكنها الأرواح تجري وتنسلُّ (167)

أما المقطوعة التي تتحدث عن خراب مدينة تيهرت،فهي من ثلاثة

أبيات جاء فيها(الطويل):

خليليَّ عوجا بالرُّسوم سلّما

على طلل أقوى وأصبح أغبرا

ألما على رسم بتاهرت دائر

عفته الغوادي الرّائحات فأقفرا

كأن لم تكن تاهرت داراً لمعشر

فدمَّرها المقدور فيمن تدمَّرا (168)

كما نقل البكري في مسالكه مقطوعة شعرية لأحد شعراء

---

[167]. ابن عذارى،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،الجزء الأول، مرجع سابق،صص 198 199.

[168]. نفسه،ص 199.

تاهرت وأحد قضاتها يدعى "أحمد بن فتح" المعروف بابن الخرّاز التاهرتي،وهي مقطوعة جمع فيها الوصف والمدح ،وفيها يقول :(من الكامل)

ما حاز كلَّ الحسن إلا قينةٌ
بصرية في حمرة وبياض
الخمر في لحظاتها والورد في
وجناتها و الكشحُ غير مفاض
في شكل مرجي ونُسْك مهاجر
وعفاف سني وسمت إباض
تاهرتُ أنت خليَّةٌ وبرية
عُوّضْتُ منك ببصرة فاعتاض
لا عذر للحمراء في كَلَفي بها
أو تستفيض بأبحر وحياض
ما عذرها والبحر عيسى ربُّها
ملك الملوك ورائض الرواض (169)

و جدير بالذكر أن البيتين الأولين من هذه المقطوعة جاء ذكرهما في البيان المغرب هكذا:

ما حاز كلَّ الحسن إلا قينةٌ
بصرية في حمرة وبياض
الخمر في لحظاتها والورد في
وجناتها هيفاء غير مفاض (170)

---

[169]. البكري،المسالك والممالك،المجلد الثاني،مرجع سابق،ص 293.

[170]. ابن عذارى،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،الجزء الأول،مرجع سابق،ص103.

وقد عاش هذا الشاعر خلال القرن الثالث الهجري جاء عنه في إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر:«كل ما نعلم عن هذا الأديب هو أنه تولى قضاء تاهرت في العهد ا لرستمي ثمَّ انتقل بعد ذلك إلى المغرب الأقصى وسكن مدينة البصرة المغربية و لا ندري هل مات بها أو رجع إلى تاهرت كما نجهل تاريخ وفاته.أما شعره فلم يبلغنا منه إلا ستة أبيات من ضاديته في مدح الأمير أبي العيش عيسى بن القاسم الإدريسي وبيتان في هجو أهل فاس ضربنا عنهما صفحا لما فيهما من هجر القول.» [171].وعموما فإنه«نفق سوق العلوم والأدب في ظل الدولة ،وظهر أول جيل من الأدباء الجزائريين الحقيقيين،عالجوا الشعر وأحسنوا معالجته،ولكن ظل يتَّسم بسمات المدرسة الشرقية المحافظة.وأساليب الشعر متينة بحيث لا نجدُ فيه اختلافا من حيث الصناعة عما يعرف من شعر المشارقة على ذلك العهد ،وأما الإنشاء فهو مرسل مطبوع لا يلتزم فيه ولا يتكلَّفُ فيه توشية.»[172]

هذا عن الشعر الذي قيل في حاضرة تيهرت أو تاهرت في عهد الرُّستميين،أمّا النثر فلم يُعرف منه إلا تلك الرسائل ؛وهي رسائل ديوانية كتبها أئمة البيت الرستمي إلى بعض عمالهم و عرف منه أيضاً بعض الخطب المنسوبة إلى أئمة الدولة الرُّستمية،منها ما ثبت عن الإمام أفلح

---

171. محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان،إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر،المجلد الأول،ص 27.

172. محمد الطمار،تاريخ الأدب الجزائري،مرجع سابق،ص74.

بن عبد الوهاب،وهو «يتناولها بأسلوب سهل واضح يساير العصر ويواكب الظروف،ويظهر فيها سياسياً مُحنَّكاً وناثراً حاذقاً وخطيباً بليغاً.» [173] وخطب أخرى ورسائل لعبد الوهاب بن عبد الرحمن ولأبي اليقظان محمد بن أفلح وغيرها من الرسائل التي كتبت في ذلك العهد نجدها بين طيات الكتب التي دوّنتْ تاريخ الدولة الرُّستمية وتناولتها بالدرس والتحقيق.و جدير بالملاحظة أنه «...لما كان القرنان الثاني والثالث أخذ الجزائريون يفرضون وجودهم بإنتاج،في العلم والأدب والفنون،لا يقلُّ قيمةً عن إنتاج زملائهم في الشرق وإفريقية والأندلس.»[174]

ولعلَّ شعر الرستميين و نثرهم لم يخرج عن أدب الخوارج – وهم إحدى فرقهم – في تلك العصور،فقد كان شعرهم عموما يتناول في موضوعاته ما يدافع عن مذهبهم واتجاههم الفكري والعقدي،وقد كان أدبا في أشعاره وخطبه يحرضُّ على القتال والثورة على الأوضاع السائدة آنذاك وتكفير المخالفين ورثاء قتلاهم وإظهار شجاعتهم في الحروب التي خاضوها من أجل نشر دعوتهم،كما أظهروا في أدبهم التأسف على ذلك الخلاف بين فرقهم المتعددة.[175]

---

[173]. محمد الطمار،الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،ص 100.

[174]. المرجع السابق،ص 101.

[175]. ينظر حول أدب الخوارج:علي جفال،الخوارج تاريخهم وأدبهم،دار الكتب العلمية،بيروت لبنان،ط1411،1هـ/1990م،ص 53 وما بعدها.

وقد لعب ذلك الشعر دورا بارزاً في الدفاع عن الأفكار التي تبنّوها والسيَّاسة التي انتهجوها خلال تاريخهم الطويل،وفي استمالة كثير من النَّاس إلى جانبهم.

وإذا انتقلنا للحديث عن الدولة الأغلبية التي كان لها وجود في الجزء الشرقي من المغرب الأوسط وامتدَّ وجودها إليه من المغرب الأدنى فسيطرت على أجزاء كبيرة منه وصلت إلى قسنطينة والزاب،وكان في تلك الفترة أيضا شعراء وعلماء وفقهاء عاشوا في المغرب الأوسط ذلك أن الدولة الأغلبية كان لها اهتمام عظيم بالثقافة والأدب والعلم والمعرفة،وهي أيضاً لم تبخل بظهور أدباء كان لهم حضور في تلك الفترة،وقد ذُكِرَ سابقا كيف أن أهل طبنة والزاب كانوا يضربون أكباد الإبل طلبا للعلم وتعلمه ثم يعودون إلى أرضهم ينشرونه بين طلبة العلم الذين كانوا يهرعون إليهم من كل حدب وصوب،ولا شك أن بيئة بهذه الحركية في طلب العلم وتعليمه في أن يبرز فيها الكتاب والعلماء والأدباء،وبالفعل فقد كان لتلك الفترة نصيبها من هؤلاء جميعا وإن كنا سنخص الحركة الأدبية بالحديث ونتحدث عن أدباء الفترة الأغلبية ممن ثبت انتماؤهم إلى المغرب الأوسط. ومنهم أسر كاملة كانت تشتهر بالأدب والعلم رحلت إلى المشرق وإلى الأندلس بما كان في تلك الأمصار من تطور ورُقِي في مختلف المجالات يتفوق على ما كان موجودا بالمغرب العربي عموما والمغرب الأوسط على وجه أخص.

ومن تلك الأسر التي سافرت شرقا من طبنة وقصدت تحديدا مصر أسرة أبي محمد القاسم بن علي الطبني وكذلك أسرة علي بن منصور الطبني،ومن الأسر التي كانت وجهتها غربا وتحديدا إلى قرطبة وهي دار العلوم في تلك الآونة أسرة الحسن بن محمد بن أسد التميمي الطبني.[176]

كما يذكر لنا صاحب نفح الطيب غير واحد من الأدباء الذين رحلوا إلى الأندلس ومنها رحلوا إلى المشرق «ومن الراحلين من الأندلس إلى المشرق أبو مروان الطبني،وهو عبد الملك بن زيادة الله،قال في الذخيرة:كان أبو مروان هذا أحدَ حماة سرح الكلام وحملة ألوية الأقلام،من أهل بيت اشتهروا بالشعر اشتهار المنازل بالبدر ،أراهم طرأوا على قرطبة قبل افتراق الجماعة،وانتشار شمل الطاعة،وأناخوا في ظلها،ولحقوا بسروات أهلها،وأبو مضر أبوه زيادة الله بن علي التميمي الطبني هو أوّل من بنى بيت شرفهم،ورفع في الأندلس صوته بنباهة سلفهم.»[177]

كما ذكر له أبيات شعرية جاء فيها:

شكرت للعامري ما صنعا
ولم أقل للحُذَيْلِمي لعا
ليث عرين عدا بعزته
مفترسا في وجاره ضبُعا

---

[176]. ينظر:المقري،نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،المجلد الثاني،تحقيق إحسان عباس،دار صادر،بيروت،1408هـ 1988م،ص 496 وما بعدها.

[177]. المقري،نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،مرجع سابق،ص 496.

لا بَرِحَتْ كفُّه مُمَكَّنَةً

من الأماني فنِعْمَ ما صَنَعَا

وددت لو كنت شاهداً لهما

حتى ترى العينُ ذُلَّ مَا خَضَعَا

إن طال منه سجوده فلقد

طال لغير السُّجود ما ركعا (178)

و تحدث عنه أيضا صاحب الذخيرة،وقد روى لأسرة الطبني أشعاراً تحت عنوان جملة ما أخرجته من أشعار بني الطبني،يقول فيها:« أخبرني الفقيه أبو بكر بن العربي عن الفقيه عبد الله الحميدي قال: أخبرني أبو الحسن العائدي أن أبا مروان الطبني لما رجع من بلاد المشرق إلى قرطبة،واجتمع إليه مجلس الإملاء أنشد:

إني إذا حضرتني ألف محبرة

تقول أنشدنيّ طوراً وأخبرنيّ

يا حبَّذا ألسن الأقلام ناطقةً

''هذي المكارم لا قعبان من لبن'' (179)

ونراه بعد هذا يورد ما أوره صاحب نفح الطيب مما ذُكر في الصفحات السابقة من أبيات لأبي مروان الطبني.

وقد أورد صاحب جذوة المقتبس هذه الأبيات برواية أخرى بعد أن

---

178. المرجع السابق،ص 497.(وهذا أيضا منقول عن صاحب الذخيرة،ص 543.)

179. ابن بسام،الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،القسم الأول، المجلد الأول، تح إحسان عباس،دار الثقافة، بيروت لبنان،د ط، 1418هـ/1997م،ص 543/542.

قال عن صاحبها«عبد الملك بن زيادة الله أبي مضر بن علي السَّعدي التّميمي الحِمّاني،أبو مروان الطُّبني،من أهل بيت جلالة ورياسة،ومن أهل الحديث والأدب،إمام في اللُّغة،شاعر،وله رواية وسماعٌ بالأندلس،وقد رحل إلى المشرق غير مرّة على كِبر، وسمع بمصر والحجاز،وحدَّث بالمشرق عن إبراهيم بن محمد بن زكريا الزُّهري النّحوي الأندلسي،رأيته بالمدينة في نحر حجةٍ حجَّها.

و رجع إلى الأندلس،ومات بها بعد الخمسين وأربعمائة مقتولاً فيما بلغني.وشعره على طريقة العرب، ومن ذلك قوله [من الطويل]:

وضاعفَ ما بالقلب يوم رحيلهم
على مابه منهم حنين الأباعر
أتجزعُ آبال الخليط لِبيْنهم
وتسْفحُ من دمع سريع البوادر
وأَصْبِرُ عن أحباب قلبٍ ترحَّلوا
إلاَّ أنَّ قلبي صابرٌ غير صابر

. . . وأخبرني أبو الحسن العابدي،أن أبا مروان الطُّبني،لما رجع إلى قرطبة،أملى فاجتمع عليه في مجلس الإملاء خلقٌ كثيرٌ،فلمّا رأى كثرتهم أنْشدَ [من البسيط]:

إنِّي إذا احتوشتني ألف محبرة
يكتبن حدَّثني طوراً وأخبرني
نادتْ بعقوتي الأقلام معلنةً

(هذي المفاخر لاقَعبان من لبن)» (180)

ومن آل الطبني أيضا محمد بن يحي بن محمد بن الحسين الطبني« من أهل بيت آداب وشعر ورياسة و جلالة ،وهم من بني سعد بن وزيد مناة بن تميم بن مر بن أُدد.

رأيت من شعره إلى أبي محمد علي بن أحمد أبياتاً [من الخفيف]

ومنها:

ليت شعري عن حبل ود هل يم
سي جديدا لدي غير رثيث
وأُراني أرى مُحيّاك يوما
وأُناجيك في بلاط غيث
فلو أن القلوب تستطيع سيرا
سار قلبي إليك سي الحثيث
ولو أن الديار يُنهضها الشو
ق أتاك البلاط كالمستغيث
كنْ كما شئت لي فإنِّي مُحبٌّ
ليس لي غير ذكركم من حديث
لك عندي وإن تناسيت عهدٌ
في صميم الفؤاد غير نكيثِ (181)

وقد كان للدولة الأغلبية تميُّزُ شخصية عن باقي الدول التي شهدها المغرب الإسلامي في تلك الفترة من الزمن وكان لإفريقية وأهلها ذلك التميز

---

[180]. الحميدي،جذوة المقتبس،مرجع سابق، ص 410.

[181]. الحميدي،جذوة المقتبس،مرجع سابق،صص 184 و185.

كما يؤكد ابن وردان « إنَّ قيام دولة الأغالبة جعل لإفريقية وأهلها شخصية متميِّزة وفريدة تختلف عن بقية بلدان المغرب،فكانت المدن والقرى الإفريقية محطّات ومراكز العلم والشيوخ والتُّجّار،فنهضت حركة العمران والإنشاء إلى جانب الزراعة والرَّعي.»[182]

وغير خافٍ على أحد أن الازدهار والرُّقي الاقتصادي ينعكس إيجاباً على الحياة الفكرية،ويجعل من الدولة مركز استقطاب لكثير من الشعراء والأدباء والعلماء و الأطباء من مختلف الأصقاع، وهذا ما حدث في فترة دولة الأغالبة التي كانت مقصد الكثير من هؤلاء وفي بعض الأحيان باستدعاء و طلب من ولاتها كما حدث مع «الطبيب العالم الحكيم أبي يعقوب إسحاق بن عمران البغدادي الذي استدعاه الأمير زيادة الله الثالث لمعالجته حين أصيب بمرض أعجز الأطباء علاجه.»[183]

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن الدولة الأغلبية أسسها رجل له علم بالشعر وفن القول،فكيف لا يزدهر فيها الأدب وتكون مقصدا للأدباء والشعراء،وكيف لا تكون إحدى حواضر العلم والأدب في ذلك العهد.وقد جاء في كتاب تاريخ إفريقية والمغرب حكاية عن أحدهم « قال محمد بن الوكيل:قال أبي: سمعت إبراهيم بن الأغلب ونحن نريد إفريقية،وقد خلَّف أهله

---

[182]. ابن وردان،تاريخ مملكة الأغالبة،مرجع سابق،ص 35.

[183]. عبدالرحمن الجيلالي،تاريخ الجزائر العام،مرجع سابق،ص 203.(بتصرف يسير)

بمصر،ينشد(من بحر البسيط):

ما سرت ميلاً ولا جاوزت مرحلة

إلا و ذكرك يلوي د[ائما عنقيٍ]

ولا ذكرتك إلا كنت مرتقبا

أرعى النُّجوم كأن الموت معتنقي» (184)

وهو القائل كذلك:

ألم تريني بالكيد أرديت راشداً

بأخرى وإني لابن إدريس راصد

تناوله عزمي على نأي داره

بمختومة في طيِّهن المكائد

فمات أخو عك بمهلك راشد

وقد كنت فيها شاهداً وهو شاهد (185)

ومما يذكر من شعره الذي بقي،عندما دخل القيروان وقد هرب منها

تمام ،قوله من (بحر الوافر) :

لو كنتُ لاقي تمام لسار به

ضرب يفرق بين الروح والجسد

لكنَّه حين سام الموت يقدمني

ولَّى فراراً وخلَّى لي عن البلد

إن يسْتقمْ نعْفُ عمّا كان قدَّمهُ

وإن يعُدْ بعدها في غيّه نعُد (186)

---

184. ابن عذارى،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،ج1،مرجع سابق،ص 92.

185. نفسه،ص 178.

186. نفسه،ص 183.

وبعد دخوله القيروان وإلقاء خطبته فيها«نزل عن [المنبر] و كتب إلى محمد بن مقاتل في ذلك بقدومه عليه،وقال (الرجز):

ألم ترَني ردْتُ طريد عك
وقد نزحت به أيدي الرِّكاب
أخذتُ الثَّغْر في سبعين منّا
وقد وافى على شرف الذّهاب
هزمتُ بهم على عدَّتهم الوفا
كأنَّ عليهم قطع السَّحاب

وأقبل العكي حتى وصل القيروان،ولما بلغ تمام رجوعه جمع له وأتاه،فخرج إليه العكي،وإبراهيم على مقدمته على فرس أشقر مخذرف،ثمَّ دعا حمزة الحرون(هو حمزة بن السيّال المعروف بالحرون)فقال له قف في موضعي.وإيّاك أن تتحرّك إلا أن تعلم أنّي قد أصبت،ثمَّ رجع إلى ميمنة تمام وهو يقول:

[أطعنهم و لا أرى لي كفوا]
حتى أرى كما أريد عفوا
أو أَحْسُونَّ كأس المنايا حَسْوا

قال فكسر الميمنة ثم رجع إلى الميسرة،فشدَّ عليها وهو يقول:(الرجز)

قد علمتْ سعْدُ وأبناءُ مُضر
أني منعْتُ عزَّها أن يُعتصرا

(187) [وإنّي فخارها لمن فخــر]»

ومما قيل في إبراهيم هذا،وكان قد جمع أهل بيته وبني عمه وخاصته،وكانوا سبعين فارساً:

هاتوا لنا رجلاً أردى بنجدته
سبعين ألفاً بسبعين من الناس
ما مرَّ يومٌ لإبراهيم بعلمه
(188) إلا و شيمته للجود والبأس

وما كاد المغرب الأوسط يشهد قيام دولتين؛الدولة الرستمية في غربه،والدولة الأغلبية في شرقه متصلة بالحكومة المركزية في إفريقية(تونس)متمتعتين باستقلالهما السياسي والاقتصادي والثقافي الأدبي عن الخلافة الإسلامية في المشرق وإن كان الدولة الأغلبية تابعة صوريا للخلافة العباسية،حتى زحف إليه العبيديون يريدونه لهم،وقد أسسوا دولتهم على أنقاض الدولة الرُّستمية التي سقطت نهائيا حوالي سنة 296هـ،وفرّ من بقي حيّاً من أبنائها نحو الجنوب الجزائري، ومما يؤسف له أن الدولة الفاطمية العبيدية الشيعية أحرقت مكتبة الدولة الرُّستمية الشهيرة باسم المعصومة،التي لم تعصم من بطش الفاطميين،خاصة ما وُجد فيها من مؤلفات تتعلقُ خاصَّة بالفقه الإباضي وكل إنتاج أدبي يُمْكنُنا من خلاله أن نعرف مدى ما وصل إليه كتابها

---

[187]. المرجع السابق،ص 184.
[188]. المرجع السابق،ص 178.

شعراً ونثرا ولم يُبْق العبيديون منها إلا على الكتب العلمية كالرياضيات وعلم الفلك وما تمَّ تهريبه من قبل الإباضيين،وقد سبق الإشارة إلى بعضه.

الفصل الثاني

تطور الحركة الأدبية وأعلامها في العهدين

البالصمي والحمَّادي

وكان للدولة الدولة الفاطمية العبيدية الحظ أن ضمَّت عدداً من الشعراء الذين كانت لهم شهرة واسعة في ذلك الزمان كما أنه قصدها عددٌ من الشُّعراء من مختلف الجهات أيضاً «ومن بين هؤلاء الشُّعراء الذين اتصلوا ببني عبيد في فترتهم المغربية من أمثال محمد بن علي الإيادي،والفزاري،وسعد الورّاق،ومنهم من وصلتنا أسماؤهم دون أبياتهم كابن قثار،وابن الصيقل أو وصلت أبياتٌ قليلةٌ من شعرهم كمحمد البديل،وأحمد بن أفلح،وأيوب بن إبراهيم،على أنَّ عدد الشُّعراء في النِّصف الأول من القرن الرّابع الهجري /العاشر الميلادي لا ينحصر فيمن ذكرنا من الشُّعراء ،ولكن ذكرنا من لهم صلة بالعبيديين بصورة أو بأخرى .وأول هؤلاء الشُّعراء علي بن محمد الإيادي.»[189]

وعلى ذكر الشّاعر علي بن محمد الإيادي،فإنه يشار إلى أن ما وصل من شعره قليل وأنَّ«الأبيات القليلة التي جاءت عَرَضاً في بعض كتب الأدب والتّاريخ تشهد ببراعته الفائقة في تصريف وجوه الخيال في شعره الوصفي:فقد وصف قصر البحر بالمنصورية،و وصف أسطول القائم،و وصف الخيل وهذه المقطوعات تخلو غالبا من الإشارات السِّياسية،والمذهبية التي يعجُّ بها شعر ابن هانئ الأندلسي،والتي تشير إلى أحقية العبيديين بخلافة المسلمين،وإلى شرعية إمامتهم و وجوب الولاء

[189]. المرجع السابق،ص 304.

لهم،ولعلّ اعتدال الإيادي في شعره.الذي وصلنا هو الذي جعله مغموراً عند العبيديين،وعدم الاهتمام بما كتبه.»[190]

كما اشتهر أئمة دولة الفاطميين بقول الشعر وأجادوا فيه،ونعثر في طيات كتب التراث والكتب التي أرخت لتلك الفترة من الزمن على أشعار لعدد من خلفائهم من أمثال المهدي المؤسس الأول لهذه الدولة والقائم بأمر الله والمعز لدين الله وغيرهم من الخلفاء،أمّا تميم بن المعز لدين الله الفاطمي فقد كان شاعرا من أعظم شعراء الدولة الفاطمية في عصورها المزدهرة، وستكون لنا وقفة مع شعره والأغراض التي نظم فيها.

ومما قاله المهدي«مؤسس الدولة الفاطمية عندما وصله كتاب من القائم وهو يحارب البربر بجهة تاهرت فبكى وأنشأ (منسرح):

يا وحشتي للغريب في البلد الـ
نَّازح ماذا بنفسه صنعا؟
فارق أحبابه فما انتفعوا
بالعيش من بعده و لا انتفعا».[191]

وجاء حكايةً عنه كذلك أنه« كتب إلى سعيد بن صالح صاحب مدينتي نكور وتمسينامان من بلاد المغرب يدعوه لطاعته،وكتب في أسفل

---

[190]. المرجع السابق،ص 305.

[191]. محمد اليعلاوي،الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي(296–365هـ) جمع وتحقيق،دار الغرب الإسلامي،ط1،1986م،ص 31.

كتابه(طويل):

فإن تستقيموا أستقمْ لصلاحكم

وإن تعدلوا عنّي أرَ قتلكم عدلا

وأعلو بسيفي قاهراً لسيوفكم

وأدخلها عنوا وأملأها قتلا» (192)

ومن الطريف أنه «ردَّ عليه شاعر مغربي كما أورد ابن عذارى ثلاثة أبيات لم يُسَمّ قائلها:

كذبْتَ وبيت الله،لا تعرفُ العدلا

ولا عرف الرحمان من قولك الفضلا

وما أنت إلا كافر ومنافقٌ

تميل مع الجُهَّال في السنة المثلى

و همَّتُنا العليا لدين محمد

وقد جعل الله همَّتَك السُّفلى» (193)

وقد يكون قائل هذه الأبيات تعمّد عدم الإفصاح عن اسمه خوفا من بطش المهدي الذي عاث في الأرض فساداً،وقتل كل من خالفه.

وما دمنا بصدد الحديث عن ذم الشعراء المخالفين للعبيديين فإنه يستحسن أن يذكر بعض ذلك في ثنايا هذا البحث،ومن ذلك ما ذكره المالكي من تائية سهل بن الورَّاق في هجو بني عبيد؛وهي قصيدة تتألف

---

192. نفسه،ص 32.

193. المرجع السابق،ص 32 .

من ستة وثلاثين بيتاً،مطلعها:[194]

هل أنت بعد المشيب ذو صبوات

أم مرعو عنها مطيع نهاة

وليس هذا فحسب،فقد شهد هذا العصر شعراء آخرين؛ وتذكر بعض الكتب عددا من القصائد والمقطوعات لشعراء مجهولين ممن عاشوا في العهد الفاطمي و مدحوا الحكام و نالوا صلاتهم وعطاياهم،إلا أننا لا يمكن الجزم بنسبتهم إلى المغرب الأوسط أو إفريقية (تونس) أو المغرب الأقصى.ولكنهم على كل شعراء عاصروا الوجود الفاطمي ببلاد المغرب.[195]

وكما ازدهر الشعر فإن النثر كانت له مكانته الخاصة في ذلك العهد ومما بقي منه كثير من الخطب التي تنسب إلى حكام الدولة الفاطمية خاصة في المناسبات الدينية كعيد الفطر وعيد الأضحى،و«كانت الخطابة الدّينية هي السّائدة في العصر،ومعظمها في مناسبات يوم الجمعة،والعيدين،وقد يخطبُ الخلفاء الأئمة الفاطميون في مناسبات أخرى كما فعل المعزُّ لدين الله الفاطمي عند وفاة أبيه

---

[194]. المالكي،رياض النفوس،مرجع سابق،ص 496.

[195]. ينظر : طه علي خليفة الحجازي،أدب القيروان في عهد الأغالبة والفاطميين،و محمد سلام زغلول،الأدب في العصر الفاطمي الكتابة والكُتّاب،ص 323 وما بعدها.

المنصور.وكان قد كتم خبر وفاته».[196]

وقد نقل هذه الخطبة صاحب كتاب عيون الأخبار،مخبرا أن المعز كتم خبر وفاة أبيه من آخر شهر شوال يوم وفاته إلى العاشر من ذي الحجة.[197]

وجدير بالذكر أن بعض البحوث والدراسات التي تناولت الفترة الفاطمية بالدراسة ترى أن أدب الدولة الفاطمية أدب مصري باعتبار أن الدولة الفاطمية كان أكثر وجودها في مصر، ومن تلك المؤلفات ما ألَّفه الدكتور إبراهيم الدسوقي جاد الرب في كتابه الموسوم بـ: ''شاعر الدولة الفاطمية تميم بن المعز'' الذي يصر فيه على مصرية ما تم إبداعه في مجال الكتابة والتأليف والإنشاء الأدبي.

وإن كان في هذا الكلام كثير من الصحة،إلا أن ذلك لا ينفي عن هذه الدولة أنها تأسست بأرض المغرب ونشطت بها مدة من الزمن قبل أن يرتحل حكامها إلى مصر بعد فتح جوهر الصقلي لها وتأسيس قاهرة المعز كما تسمى،وهذه الفترة ينبغي عدم تجاوزها هكذا دون الإشارة إلى ما كان فيها من حركة أدبية شهدها المغرب الأوسط.وما كان فيها من إقبال الشعراء من مختلف البقاع على بلاط العبيديين

---

[196]. محمد زغلول سلام، الأدب في العصر الفاطمي،الكتابة والكتاب،منشأة المعارف الإسكندرية،د ت، د ط،ص 224.
[197]. نقلا عن المرجع السابق،ص224.

ومدحهم وكسب عطاياهم وصلاتهم. ومن الشعراء الذين اتصلوا بالفاطميين نذكر الشاعر الأندلسي ابن هانئ الذي أصبح الناطق الرسمي باسم العبيديين وأطلق لسانه في مدحهم والتصدي لخصومهم وهو كما جاء في مقدمة ديوانه «الأديب والجهبذ الألمعي الأريب متنبي البلاد المغربية وشاعر الديّار الأندلسية أبو القاسم وأبو الحسن محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي قيل إنه من ولد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي وقيل بل هو من ولد أخيه روح بن حاتم وكان أبوه هانئ من قرية من قرى المهدية بإفريقية وكان شاعراً أديباً فانتقل إلى الأندلس فولد له محمد المذكور بمدينة إشبيلية ونشأ بها واشتغل وحصل له حظٌّ وافر من الأدب وعمل الشعر ومهر فيه وكان حافظاً لأشعار العرب وأخبارهم واتصل بصاحب إشبيلية وحظي عنده وكان كثير الانهماك في الملاذ متهما بمذهب الفلاسفة ثمَّ حصلت أسباب اقتضت خروجه من إشبيلية فخرج منها إلى عدوة المغرب ثم ارتحل إلى جعفر ويحي ابني علي وكانا بالمسيلة وهي مدينة الزاب وكانا والييها فبالغا في إكرامه والإحسان إليه فنُميَ خبره إلى المعزّ أبي تميم معد بن المنصور العبيدي فطلبه منهما فلمّا انتهى إليه بالغ في الإنعام عليه و مدحهُ بغرر المدائح ونخب الشعر و مدح غيره أيضاً مثل جوهر القائد الذي فتح مصر للمعز وجمع له من ذلك ديوان كبير ولم يكن في المغاربة من هو في طبقته من متقدميهم و لا من متأخريهم بل هو أشعرهم على الإطلاق وهو عندهم كالمتنبي عند

المشارقة وكانا متعاصرين وعاش ستا وثلاثين وقيل اثنتين وأربعين وكانت وفاته في رجب سنة اثنتين وستين وثلاثمائة وقيل إنه وُجد في سانية من سواني برقة مخنوقا بتكة سراويله ولما بلغ المعز خبر وفاته وهو في مصر تأسَّف عليه كثيرا وقال: هذا الرجل كنّا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدّر لنا ذلك.»[198]

وفي غير هذا المرجع حديث عن اختلاف المؤرخين حول وفاته يقول فيه صاحبه:«لئن اتفقتْ المصادر على أنَّ موت الشاعر كان مُباغتاً،فإنَّها لا تتفقُ على ظروفه وأسبابه:أكان اغتيالاً،أم موتاً طبيعياً،أم قتلاً في خصومة،أم حادثاً طارئاً غير متوقع؟وكذلك الأمرُ فيما يخصُّ تاريخ الوفاة،فلا ثبات فيه بين مصدر وآخر.»[199]

وقد نال ابن هانئ شهرة – رُبَّما – لم ينلها غيره من شعراء المغرب؛وهذه الشهرة« ترتكز على أسس متنوعة فقد شهد له المغاربةُ،ومن بعدهم أهلُ المشرق،بالشَّاعرية الفائقة.بل رفعه أهلُ المغرب،حسب عبارة ابن خلكان إ لى المرتبة التي بلغها في المشرق معاصره المتنبي.»[200]

---

198. ابن هانئ الأندلسي،الديوان(المقدمة)،المطبعة اللبنانية،بيروت،د ط، 1886،ص 3.

199. محمد اليعلاوي،ابن هانئ المغربي الأندلسي شاعر الدولة الفاطمية(320/931 –362 /973،دار الغرب الإسلامي لبنان،د ط، 1405هـ/1985م،ص 132.

200. نفسه،ص 5.

وقد انتشرت المقارنة بين المغاربة والمشارقة في مختلف المجالات

« وفي باب الموازنة بين شعراء المغاربة والمشارقة أو حكمائهم أو علمائهم يقولون عن ابن هانئ متنبي المغرب،وعن ابن زيدون بحتري الغرب،وعن ابن خفاجة أو ابن عمار صنوبري الغرب،وعن ابن طفيل ابن سينا الأندلس وقيل لابن عبد البر حافظ المغرب كما قيل للخطيب البغدادي حافظ المشرق، واستعاروا أسماء حواضر الشرق فأطلقوها على حواضر معروفة في الأندلس والمغرب فشبَّهوا إشبيلية بحمص،وغرناطة بدمشق،وفاسس ببغداد،إلى غير ذلك.وأحدثوا بلدة سميتْ البصرة تشبيهاً لها ببصرة العراق،ولا عجب فالشرق هو الأصل والغرب هو الفرع،على أنَّه قد يجيء في الفرع ما في الأصل وزيَّادة كما يقول علماء العربية.وهذا ما يذكر للمغاربة والأندلسيين،و يدلُّ على فضلهم في العلم والتعليم والبحث والتأليف.»[201]

ولا نبرح الدولة الفاطمية حتى نتحدث عن أدباء آخرين عاشوا تلك الفترة من تاريخ المغرب الأوسط،ومن هؤلاء الأدباء القائد والشاعر جعفر بن فلاح الكتامي،أبو الفضل،يقول عنه صاحب الحلة السيراء«هذا من رجال الدولة العبيدية،ولم يقع إليَّ من خبره ما أذكره هاهنا سوى امتداح أبي القاسم بن هانئ إياه،وحسبه بذلك نباهة

[201]. محمد رضا الشبيبي،أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية،دار إقرأ،ط2، 1404هـ/1984م،ص 13/12.

وكفاه،وذكر ابنه إبراهيم معه في مدحه.وفي بعض النُّسخ التي وقفت عليها من شعر ابن هانئ أنَّ الممدوح إبراهيم بن جعفر لا أبوه جعفر،و وجدتُ منسوباً إليه:

ويوم كأنَّ الغيمَ تحت سمائه
حكى مُقلتي سحّاً ولم يحكني ضنّاً
كأنَّ النوادي بالمثاني نضحتْهُ
و ألبسْنَهُ ثوْباً من الخزّ أدكنا» (202)

و أورد ابن تغرى بردى في''النجوم الزاهرة ''بيتين له في مدح الصديق،يقول فيهما:

ولي صديقٌ ما مسَّني عدم
مُذْ نظرتْ عينُهُ إلى عدمي
أعطى وأقنى ولم يكلّفني
تقبيل كفّ له ولا قدمي (203)

ومن شعراء نلك الفترة كذلك،محمد بن المنيب وهو من شعراء القرن الرابع الهجري،و لا يُعلم من خبره إلا انه كان من جملة الشعراء الذين كانوا في ركاب الخليفة إسماعيل المنصور العبيدي في حصاره لأبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي الذي اعتصم بجبل كيانة من بلاد كتامة عام 335هـ/الموافق لسنة 946م [204]،وقد أورد له ابن حماد الصنهاجي

---

[202]. ابن الأبار،الحلَّة السيّراء،الجزء الأول،تحقيق حسين مؤنس،دار المعارف،مصر،ط2، 1985م،ص 304 /305.
[203]. ابن تغرى بردى،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،الجزء الثاني،دار الكتب المصرية القاهرة،ط1، 1349هـ/1930م،ص59.
[204]. نقلا عن إرشاد الحائر إلى أدباء الجزائر،ص44.

قصيدة تخلد هذه الحادثة،يقول فيها(من مجزوء الكامل):

حلَّ البلاء بمخلد

وجميع شيعته النواكر

أمسى بأرض كيانة

قد بان منه كل ناصر

يرنو بطرف خاشع

نظر المحاصر للمحاصر

يرنو إلى عدد الحصى

والرمل من تلك العساكر

يا مخلد بن سبيكة

يا شرَّ بيت في العشائر

ذق ما جنته يداك

قبلُ من الكبائر والصغائر

ذق هول شقّك للبطون

وما ارتكبت من الجرائر

يا شرَّ من بكيانة

وكيانة شرُّ البرابر

انظر إلى القفص الذي

لابدَّ أنت فيه صائرُ

انظر إلى يديك فيه

و مؤنسيك ومن تُجاورُ

قد طال شوقهما إليك

فزرهما ياشرزائر (205)

---

205 . ابن حماد الصنهاجي،أخبار بني عبيد وسيرتهم،تحقيق ودراسة التهامي نقرة و عبد الحليم عويس،دار الصحوة للنشر والتوزيع،مصر،د ت، ص 75/74.

ومن شعراء تلك الفترة أيضا في القرن الرابع الهجري محمد بن الحسين الطُّبني الزابي الذي وُلد و نشأ بطبنة حوالي 300هـ وبها تلقى دروسه الأولى وبقي بها إلى أن بلغ الخامسة والعشرين ثم غادرها موليا وجهه نحو الغرب فانتقل إلى الأندلس ودخل قرطبة عام 325هـ/937م و ولي الشرطة بها في أيام عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر الذي كلفه بالقيام بمأمورية ببر العدوة واستصحاب الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن عام 392هـ/972م وبعد رجوعه إلى قرطبة عاد إلى وظيفته وبقي بها مدة حكم الحكم وابنه المستنصر وابنه هشام الملقَّب بالمؤيد والمنصور بن أبي عامر ومات في خلافة ابنه عبد الملك الملقب المالك المظفر،وقد كان ذا حظوة عندهم جميعا،وإلى جانب الشعر والرتب التي تقلدها،فقد كان عالماً بأخبار العرب وأنسابهم، مما قيل فيه: لم يصل الأندلس أشعر منه، ومن أدباء القرن الرابع الهجري أيضا أديب آخر ارتبط اسمه بإحدى مدن الشرق الجزائري،هو عبد الله بن قاضي ميلة واسمه أبو محمد عبد الله بن محمد التنّوخي المعروف بابن قاضي ميلة – عاصر الناقد والشاعر المعروف ابن رشيق المسيلي القيرواني – يقال إنه دخل صقلية و مدح أميرها ثقة الله الكلبي في يوم النحر بقصيدة طويلة من بحر الطويل، أوردها ابن خلكان في وفياته ،وهي قصيدة طويلة تشتمل على أكثر من ستين بيتاً وصفها ابن خلكان بأنَّها قصيدة بديعة لا توجد في أيدي الناس،ومطلعها:

يذيل الهوى دمعي وقلبي المعنف
وتجني جفوني الوجد وهو المكلَّف (206)

[206]. ابن خلكان،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،مج 6،تحقيق إحسان عباس،دار صادر للطباعة،بيروت،1397هـ/1977م،ص159.

وجاء عنه – ابن قاضي ميلة – في كتاب'' المطرب من أشعار عنه المغرب'' :«ومن أفاضل شعراء المغرب المعروفين بالإجادة،الموصوفين بالإحسان والإفادة:أبو عبد الله ابن قاضي ميلة،أشعر من دب بميلة ودرج، ودخل بها وخرج. فمن رقيق شعره قوله:

قلتُ للحسناء لما أبْصَرت

دمع عَيْنِي قد جَرى فيما جَرى

لا تَظنّي الدّمع ما عَايَنْتِه

أنا من يُهِدي إليك الخَبَرا

جالَ في خدَّيك من ماء الصبا

رونقٌ يَسْبِي سَناَه البشرا

تأخذُ الأجفانُ منه رِيبَّا

فإذا جازَ التَناهِي قَطَرا (207)

وقد أورد له أيضا غير هذا أبياتا في الغزل،وثلاث مقطوعات في وصف حمامة فوق

---

207. ابن دحية،المطرب من أشعار أهل المغرب،تحقيق إبراهيم الأبياري و حامد عبد المجيد،دار العلم للجميع،بيروت لبنان، دت، د ط، ص 48.

أيكة تصدح.[208]

ويقول عنه ابن بسام في الذخيرة:«و هو ممن طرأ ذِكره، و انتهى إليَّ شعره،إذْ ضربَ في الأدب بأعلى قِدح،و افْترَّ عنهُ على أوضح صُبحٍ،و أقام دوحه على سوقه،وبنى المنازل على سواء طريقه،ورأيتُ أبا علي بن رشيق قد ذكره في ما اندرج من كلامه في شعراء '' الأنموذج''،و أ'رب عن فضائله،وأوضح ما لم يَخْفَ من دلائله.»[209]

ولعلَّ أطرف ما روي عن عبدالله بن قاضي ميلة جوابه للمعري عن بيته الذي يقول فيه:

أبكت تلكم الحمامة أم غنَّت
على فرع غصنها الميّاد

وقد ورد ذكرها في شرح الشريف الغرناطي على مقصورة حازم القرطاجني حيث يقول:«فقال ابن سراج إنما تكون أصوات الحمام على قدر أحوال المستمع فإذا سمعها من يطرب فيتغنّى سمّيتْ غناءً،وإذا سمعها من يحزن سميت أصواتها بكاءً و حزناً، ونظم معنى هذا الكلام ابن قاضي ميلة،فقال :

لقد عرض الحمام لنا بلحن
إذا صغى له ركبٌ تلاحا
زها قلب الخليّ فقال:غنى
وبرَّح بالشجي فقال:ناحا

---

208. يُنظر نفس المرجع،ص 49.

209. ابن يسام ،الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،القسم الرابع،المجلد الثاني، مرجع سابق،ص529.

قلت وكان قائل هذا البيت يريد أن يجيب عمّا وقع السؤال عليه في بيت أبي العلاء المعري حيث يقول:

أبكتْ تلكمُ الحمامة أم غنَّتْ
على فرع غصنها الميّــاد (210)

ومن الشعراء الذين ذاع صيتهم وبلغوا مراتب عليا في عهد المعز بن باديس،وقد كان رئيس ديوان الإنشاء ببلاطه،أبو الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني التاهرتي الذي صنف له ابن رشيق كتاب العمدة الذي جاء في مقدمته أنه« صنَّفه كعادة أكثر العلماء لأبي الحسن بن أبي الرجال الكاتب زعيم الكرم،و واحد الفهم،الذي نال الرياسة،وحاز السياسة،وانفرد بالبسط والقبض،واتّحد في الإبرام والنقض...إلخ»[211]

ويذكره ابن رشيق في العمدة ويقول: السيد الرئيس أبا الحسن، وقد استشهد في مواقع عديدة من كتابه بأشعاره،ومن ذلك قوله في الغزل:

غرّاء واضحة ينوس بقرطها
جيد حكى جيد الغزال الأعنق
صدَّتْ فأغرت بالسُّحوم مدامعي
والعين تذرف بالدُّموع السبق
تشكو البعاد إذا بعدت تصبُّرا
وإن ارتجعت إلى الزيارة تفرق
ولقد يبيت أخو المودَّة لائمي

---

[210]. القرطاجني ،رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة،مطبعة السعادة،مصر،دط، 1344هـ،ص 37.

[211]. ابن رشيق،العمدة في محاسن الشعر ،وآدابه،ونقده،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد،الجزء الأول،دار الجيل للنشر والتوزيع،بيروت لبنان،ط1401،5هـ/1981م،(المقدمة)ص 3.

في حُبّها لوم الشَّفيق المشفق

حتَّى إذا طلعت فأبصر شخصها

أخزى جهالة لائمي المستحمق

كم قد قطعت بوصلها من ليلة

وبشرب صافية كلون الزئبق

يسعى بها كالبدر ليلة تمّه

سحَّار ألحاظ رخيم المنطق

آليتُ أترك ذا وتلك وهذه

حتى يفارقني سواد المفرق (212)

كما يروي له أيضاً في الغزل بيتين من بحر الطويل على حرف الميم،وبيتين آخرين من بحر السريع على حرف الباء [213]،ومقطوعة حول الاصطباح بالخمرة وتعاطي لذات الحياة قبل هجوم المنية،يقول فيها ابن أبي الرجال من بحر الرمل:

باكر الرّاح ودعْ عنك العذل

واسْعَ في الصحَّة من قبل العلل

واغتنم لذَّة يوم زائل

فالمنايا ضاحكات بالأمل

ما ترى السّاقي كشمس طلعتْ

تحملُ المرّيخ في برج الحمل

مائساً كالغصن في دعس نقا

فاتن المقلة زينت بالكحل (214)

وكما أنشد في الخمرة والغزل فإنه نظم في التشكي من أحوال الناس وعدم ثقتهم

---

212. ابن رشيق، العمدة،الجزء الثاني،مرجع سابق،ص 113/112.

213. ينظر المرجع السابق، صص 111و 112.

214. المرجع السابق،ص 110.

وإنصافهم،وفي الموعظة الحسنة،وفي التشوق للأهل؛ففي الأولى له قصيدة يقول فيها من بحر الطويل:

أيا ربّ إن الناس لا ينصفونني
ولم يحسنوا قرضي على حسناتي
إذا ما رأوني في رخاء تردّدوا
إليَّ وأعدائي لدى الأزمات
ومهما أكُنْ في نعمة حزنوا لها
ذوو أنفس في شدَّة جذِلات
ثقاتي مادامت صِلاتي لديهم
وإن عنهم أخَّرْتُها فعِداتي
سأمنعُ قلبي أن يحنَّ إليهم
وأصرفُ عنهم قالياً لحظاتي
وأُلْزِمُ نَفْسِي الصَّبْرَ دأباً لعلّني
أعاينُ ما أمَّلْتُ قبل مماتي
ألا إنَّما الدُّنيا كفافٌ وصحَّةٌ
وأمنٌ، ثلاث هنّ طِيبُ حَيَاتِي (215)

وفي الثانية يقول فيها،في مقطوعة من مجزوء البسيط،موضوعها الموعظة الحسنة:

أمن الزمان زمانة العقل
فاخْشَ الإله وحلَّ عن الجهل
واعلم بأنَّك في الحساب غدا
تجزى بما قدمت من فعل (216)

---

[215]. المرجع السابق،ص111.
[216]. نفسه ،ص 111.

وفي التشوق للأهل يقول في مقطوعة من بحر الطويل:

ولي كبدٌ مكلومةٌمن فراقكم

أُطاعنها صبراً على ما أحبَّت

تمنَّتكم شوقاً إليكم وصبوةً

عسى يُدني لها الله ما تمنَّت

وعينٌ جفاها النَّومُ واعتادها البُكا

إذا عنَّ ذكرُ القيروان استهلَّت [217]

أمَّا في العهد الحمادي فإنه هو الآخر قد شهد نبوغ عديد الشعراء،سواءً من الوافدين على بلاط الحكام أو من أهل البلد،ممن احتفظت لنا بعض الكتب بما أبدعوا من نصوص تشهد لهم هم كذلك بضلوعهم في عالم الكلمة الجميلة والإيقاع الرّنّان،إلا أن عددهم كان قليلا وليس ذلك من ندرة وجودهم،بل لعل السبب يعود إلى تلك الفتن والحروب التي شهدها ذلك العصر من انفصال الحماديين عن الزيريين،وهجرة الأدباء إلى وجهات أخرى هربا من تلك الفتن التي نشبت كما يؤكد أحدهم «ومن تمكَّنْتُ من معرفتهم كان إنتاجهم على قلته في أيّام يحي بن عبد العزيز ولعلَّ عدداً من الشُّعراء الذين عاصروا الأمراء الذين تقدّموا يحي.»[218]

ومن الشعراء الذين ذكرهم صاحب الخريدة وقال إنهم وردوا على مصر،ويبدو أنهم عاشوا فترة العهد الحمادي،علي بن إسماعيل القلعي المعروف بالطميش الذي يقول فيه«من الواردين على مصر من أهل العصر،وله حين قتل ابن الأفضل أبو علي بعد حبسه المدعو

---

[217]. ابن رشيق،العمدة،الجزء الأول، مرجع سابق،ص

[218]. أحمد بن محمد أبو رزاق،الأدب في عصر دولة بني حماد،مرجع سابق،ص 147.

الحافظ... فنظم فيه الطميش قصيدة قال فيها:

ولابدَّ من عزم يخيّل أنني
قدحت على الظلماء من نذره فجرا
يجوب ظلاما كالظليم إذا سرى
إذا جنَّ جون كان بيضته البدرا
وليل صحبت السيف يرعد حدّه
وقد شاب فيه مفرق الصعدة السمرا
حملت به درعي وسيفي وإنما
حملت غدير الماء والغصن والنهرا
وأشقر ورد اللون لولا انتسابه
إلى البرق سيرا خلته المسك والهجرا
إلى أن بدا وجه الصباح كأنه
لحافظ دين الله آيته الكبرى (219)

ومنهم أيضاً الشاعر محمد بن عبد الله بن زكرياء القلعي الأصم يذكر صاحب الخريدة أنه «من قلعة بني حماد بالمغرب ذكره ابن الزبير في مجموعه وقال: كان جيد الشعر،وارى زناد الفكر،لكنَّه مبخوس الجد،ورد إلى الإسكندرية ومصر،وأقام بها زماناً،لا يجدُ من يروي ظمأته، و لا يسدُّ خَلَّته،وعاد إلى المغرب في غير أوان سفر المركب،فسار راجلاً،نعْلُهُ مطيَّتُه،وزاده كُدْيَتُه،إلى أن وصل إلى قوم يعرفون ببني الأشقر من طرابلس المغرب،فامتدحهم بالقصيدة الميمية لتي أولها:

ترى فاض شؤبوب من الودق ساجمُ

---

219. الأصفهاني،خريدة القصر وجريدة العصر(قسم شعراء المغرب)،تح آذرتاش آذرنوش،تنقيح وزيادة محمد المرزوقي و محمد العروسي والجيلاني بن الحاج يحي،الدار التونسية للنشر،تونس،ط2 ،1966م، ،ص 342/341

و وامض مشبوب من البرق جاحمُ

فأحسنوا صلته،وعظَّموا جائزته،ولم أدْر ما فُعل به بعد ذلك.»[220]

وهي قصيدة يروي منها ستة عشر بيتاً،كما يروي له أيضا بيتين في مدح الأفضل،ومقطوعة في وصف فوارة ماء،يقول فيها:

وحاكية بالماء لون اضطرابه
قواماً وحسنا حين يبدو و بوبصُ
قضيب لجين ألمع الصقلُ متنَهُ
وأخلصه في السبك من قبل مخلصُ
تسامى قليلا ثم عاد كأنَّهُ
جمان حواليها على الماء يرقصُ
تضايق أعنان السماء كأنها
لها بين هاتيك النجوم تلصّصُ
كأن نوالا من يمين كرامةٍ
يمدُّ به إذْ لا نرى الماء ينقصُ [221]

ويذكره ابن دحية في المطرب حيث يقول عنه:«له من قصيدة يمدح بها بعض ملوك المغرب،وكأنما عنى بمعانيها مولانا السلطان الملك الكامل،وأشار بأنامل بديع ألفاظها إليه،لا برحت محاسن المحامد مصروفة له،وموقوفة عليه:

---

[220]. نفسه، ص 338/337.
[221]. المرجع السابق، ص 340.

وقاد الجيادَ الأعوجيَّات دونها

عوابسُ تطفو في العَجاج و تَرْسُبُ

عساكر مثل الطرف إن خِفْنَ ضِلَّةً

أضاء لها ليلُ الجديدِ المذوَّبُ

يمرُّ نُهاهُ بالشُّكوك فتنْجلي

ويجري نداهُ في الأُجاجِ فيعْذُبُ [222]

ثم يقول عنه في نفس الصفحة:« وكأنما عناه أيضاً هذا الشاعر بقوله:

ملك إذا طُلِبَ الغمامُ بفوق ما

في وُسعه فعلى نداهُ يحيلُ

زجرت مواهبُه المساغِبَ

ولها بساحةمجنديه حلولُ [223]

وهناك شاعر ثالث ذكره الأصفهاني في خريدته من الوافدين على مصر،وهو فقيه كذلك يقال له: الفقيه أبو محمد عبد الله بن سلامة جاء عنه في كتابه« أصله من بجاية، ومقامه بالإسكندرية، ثم مصر، والصعيد، والريف،وهو القائل :

لي حرمةُ الضّيف لو كُنتم ذوي كرم

وحرمةُ الجارِ لو كنتم ذوي حسبِ

لكنّكم يا بني اللّخناءِ ليس لكُم

فضلٌ ولا أنتمُ من طينة العربِ

كم لا أزالُ على حالٍ أساءُ بها

منكم وأغضي على الفحْشاء والرّيب

لأتركنّ لكم أرضاً بكم عُرِفتْ

---

[222]. ابن دحية،المطرب من أشعار أهل المغرب،مرجع سابق، ص 52.

[223]. المرجع السابق،ص 52.

فأخبثُ البومِ يأوي أخبثَ الخِرَبِ

وما مُقامي بأرضٍ تسكنون بها

منّي يطيبُ ولكن حرفة الأدب [224]

وممن جاء ذكرهم أنهم وفدوا على مصر الشاعر ابن حلو يقول عنه:« بالمغرب الأوسط، من أهل جيجل، أنشدني الفقيه نصر بن عبد الرحمان الإسكندري ببغداد في ذي الحجة سنة ستين وكتبه لي وقال أنشدني الشيخ أبو العباس النجامي الأنصاري المغربي بدمشق لابن حلو الشاعر المغربي:

يحتاج من كلف الحاجات مثلكم

نقف الشوارب بعد الكي في الراس

فلو سلختم قرانا في جماجمكم

كونوا حثالة خلق الله في النّاس

قال: أنشدني أبو العباس أيضاً، قال: أنشدني ابن حلو وقد قدمته في زقاق ضيق وقلت: للسن حق:

إن كنت قدمتني للسن معتمدا

فالعلم أفضل تقديما من العمر

ما للكبير بلا فهم مقدمة

ولو يكون بعمر الشمس والقمر [225]

وجدير بالذكر هنا أن من ذكرهم الأصفهاني في كتابه يذكر أنه نقل ما أورده عنهم عن كتاب ابن بشرون المهدوي الموسوم بـ: ''المختار في النظم والنثر لأفاضل أهل

---

[224]. الأصفهاني،خريدة القصر،مرجع سابق، ص 343.

[225]. المرجع السابق،ص574.

العصر''.وهو كتاب ألفه في سنة إحدى وستين وخمسمائة.

ومن الوافدين على بني حماد،ونزلاء بجاية الناصرية شاعر أندلسي معروف بابن اللُّبانة وهو«محمد بن عيسى بن محمد أبو بكر اللَّخمي الأندلسي، الشَّاعر المشهور بابن اللُّبانة،وله كتاب: ''مناقل الفتنة''،و ''نظم السلوك في وعظ الملوك''،و ''سقيط الدُّرر ولقيط الزهر'' في شعر بني عبَّاد و توفيَّ بميورقة سنة سبع وخمسمائة.»[226]

أما غير الوافدين من الشعراء الذين ذكرهم الأصفهاني في خريدته؛فهم كذلك مجموعة؛ منهم عمر بن فلفول الذي عاش في عهد يحي بن العزيز ويذكر أنه كان كاتبه وكان أيضا من فقهاء ذلك العصر يقول عنه«هو كاتب السلطان بتلك البلاد يحيى بن العزيز الحمادي وخالصته وصاحب سرّه، وله اليد الطولى في الإنشاء الدال إعجازه فيه على البلاغة المؤدية لسحره في نثره.قال: أنشدني له الأمير عبد الله بن العزيز الحمادي عند الاجتماع به في جزيرة صقلية:

وقالوا: نأى عنك الحبيب فما الذي
تراه إذا بان الحبيبُ المواصل
فإن أنت أحببتَ التصبّر بعده
ولم تستطع صبراً فما أنت فاعل
فإنّ الهوى مهما تمكّن في الحشا
وحلّ شغاف القلب ليس يُزايلُ
فكم رام أهلُ الحب قبلكَ سلوة
وزادهم عنها هوىً متواصل

[226]. ابن شاكر،فوات الوفيات والدليل عليها،المجلد الرابع، تحقيق إحسان عباس،دار الثقافة بيروت،دط،1973م،،ص 27.

فقلت: ألا للصّبر مفزع عاشق

وللصبر أحرى بي وإن غال غائل

سأصبرُ حتى يفتح االله في الهوى

بوصلِ حبيبٍ طال فيها الطوائل (227)

ومن الشعراء الذين جاء ذكرهم في الخريدة كذلك شاعر آخر اسمه علي بن الزيتوني

« ذكر أنه شاعر المغرب الأوسط وأديبه، وألمعيّه وأريبه،وهو صاحب توشيح وتوشيع،

وتقصيد وتقطيع، وقد سار شعره غناء، وأورد من شعره قوله في ذم المركاز:

لا آكل المِرْكازَ دهري ولو

تقطّفه كفّي بروض الجنان

لأنه أشبه فيما يُرى

أصابع المصلوب بعد الثمان (228)

وقوله من قصيدة في مدح بعض القضاة وهي:

نهاه عن محارمه نُهاه

وقرّبه لخالقه تُقاه

وقال الله ليس سواي ربّ

ولا لشَريعتي أحدٌ سواه

هو البَرّ العطوفُ على البرايا

وبالأيتام يرحمُ من أتاه

وشدّ به عُرى الإسلام حتى

رأينا النُجْح وانعقدت عُراه

---

227. الأصفهاني،خريدة القصر وجريدة العصر،مرجع سابق،ص 179.

228. نفسه،ص 181.

أمينٌ عدلُه غمر البرايا

فما يُخشى على أحد قضاه

مسيحٌ خطوه في كل علم

ومن ذا يقتفي أبداً خطاه

أبي شأنه طلب المعالي

ومن يحصي ثناه أو نداه

لقد ظفرت يد علِقَتْ نداه

ومن ناواه قد تبّتْ يداه [229]

وشاعر آخر أورده الأصفهاني في خريدته لكن في الباب الذي وسمه بـ: ''باب في ذكر محاسن جماعة من أهل المغرب الأقصى من أهل العصر''،ويبدو أنه مسيلي جزائري قد يكون شدَّ الرحال إلى المغرب الأقصى في ذلك العهد الذي أُلِّفَ فيه كتاب ابن بشرون،لقبُهُ الأفرم وهو«محمد بن علي المسيلي،أورد من شعره في الرزق وطلبه،وأنه يجري من الله بقدره:

يقولون إنّ الرزق بالحرص يُجلبُ

وليس بمقدور يُنال ويُكسبُ

فصوّب وصعّدْ في البلاد مطالباً

لرزق تنلْ منه الذي تتطلّبُ

وإياك والتّضجيع فيه وإنّما

أخو الرّزق من يشقى عليه ويتعبُ

فما الرزقُ يأتي بالتوكُّل إنّه

بعيد لذا التّضجيع لا يتقرّبُ

فقلت: بعيد أن تُنال معيشة

بحرص عليها فالحريص معذّبُ

---

[229]. المرجع السابق،صص 181 182 .

ألا إنما الأرزاق تجري بقدر ما

يقدّرُ والمقدور عنّا مغيَّبُ

وما أن ينال المرءُ منها سوى الذي

به الله يقضي والقضاء مغلَّبُ

فأرزاق هذا الخلقِ بينهمُ جرتْ

فذا نائل عفواً وذاك مخيَّبُ

ولكن علينا الاجتهاد وأن نُرى

لربّ الورى في الرّزق ندعو ونرغبُ

فرَبّ الورى يعطي ويمنع كيف ما

أراد وما في ذاك منه تعقُّبُ

رضيتُ به ربّاً ومولى وسيّداً

وحسبي من رب يرجَّى ويرْهبُ (230)

أما الأديب والفقيه أبو حفص عمر بن فلفول،فقد جاء ذكره في الكتاب تحت عنوان:جماعة أوردهم ابن بشرون في مختاره من أهل المغرب الأوسط يقول عنه نقلا عن ابن بشرون « قال: هو كاتب السلطان بتلك البلاد يحيى بن العزيز الحمادي وخالصته وصاحب سرّه، وله اليد الطولى في الإنشاء الدال إعجازه فيه على البلاغة المؤدية لسحره في نثره.قال: أنشدني له الأمير عبد الله بن العزيز الحمادي عند الاجتماع به في جزيرة صقلية:

وقالوا: نأى عنك الحبيب فما الذي

تراه إذا بان الحبيبُ المواصلُ

فإن أنت أحببتَ التصبّر بعده

ولم تستطع صبراً فما أنت فاعلُ

فإنّ الهوى مهما تمكّن في الحشا

---

230. المرجع السابق،ص 171.

وحلّ شغاف القلب ليس يُزايلُ

فكم رام أهلُ الحب قبلكَ سلوة

وزادهم عنها هوىً متواصلُ

فقلت: ألا للصّبر مفزع عاشق

وللصبر أحرى بي وإن غال غائلُ

سأصبرُ حتى يفتح االله في الهوى

بوصلِ حبيبٍ طال فيها الطوائلُ (231)

وذكر كذلك من ضمن من ذكرهم مجموعة أخرى من الأدباء منهم علي بن الطبيب وعنه يقول على لسان ابن بشرون:« ذكر أنّه أديب وطبيب، وأورد من شعره قوله:

يا حملة الحسن هب لي منك إحسانا

إني أحبّك إسراراً وإعلانا

ومنها:

إني لعبدَك لا أبغي بكم بدلاً

ولا أحبّ سواك الدهرَ إنسانا (232)

كما يذكر إلى جانب هذا الطبيب الشاعر طبيبٌ آخر يقال له ابن أبي المليح « ذكر أنه طبيب ماهر، وكاتب شاعر، واشتهاره بالطب، وله مقطّعات جالبة للحب، سالبة للب، وله من قصيدة عيدية في الأمير عبد الله بن العزيز الحمادي يصف جنائبه،وقضاءه حق العيد وواجبه:

وجالتْ به جرد المذاكي كأنها

---

231. المرجع السابق،ص 179.

232. المرجع السابق،ص 183.

عذارى ولكن نطقهنّ تحمحم

بصفراء كالتّبرِ العتيقِ صقيلة

ودهماء يتلوها كُميْت وأدهم

وأشقر لو يجري وللبرق جهده

لكان له يوم الرّهان التقدم

وقام لواء النّصر يتبع راية

هبا العزّ معقود عليها متمَّم

فلما قضى حق الصلاة معظماً

ثنى والهدى في وجهه يتوسّم

فلا زال يقضي نفْلهُ وفروضه

وبرْدُ علاه بالمدائح مُعلَم (233)

وفي الصفحة نفسها يورد ذكر شاعرين آخرين أحدهما اسمه علي بن مكوك الطيبي،والثاني حماد بن علي الملقب بـ:''البين'' إلا أنه لا يعطي عنهما أية معلومات بل نراه يكتفي باسميهما وبأبيات لهما يذكر للطيبي هذه المقطوعة:

ألا ليت شعري هل من الدهر عودة

ليقرب ناءٍ ليس يُدرَى له أينُ

تكدّر صفو العيش مذ جدّ بينُنا

وأي التِذاذ لا يكدّره البين

لعلّ الذي يبلي ويشفي من الأسى

يُعيد الذي ولّى فكل به هيْنُ

غدوتُ من الأيام في حال عسرة

تطالبني ديْناً وليس لها ديْن (234)

---

233. المرجع السابق،ص184.

234. نفسه،ص 184.

ويذكر للبين هذه القصيدة:

لمن أتشكّى ما أرابَ من الدهر
وقد ضاق بي عن حملِ أيسرِهِ صدري
وقلّ الذي يجدي التشكّي وأي من
أرجّيه في يومي لقاصمة الظهر
أراني قد أصبحت في قطر باجةٍ
غريباً وحيداً في هوان وفي قهر
فقيراً لمن قد كنت أغنى بنيله
وأنعم في أيامه مدّةَ العمر
أرنِّقُ عيشاً كدّر الدهر صفوه
وصيّره بعد انجِبار إلى الكسر
وعهدي به روضاً أريضاً وجنّة
مذلّلة الأكناف رائقة الزهر
وإن رمتُ أن أغدو لأهلي عاجلاً
بلا مهلٍ في أوّل الركب والسفْر
ثنائيَ عنه عامل الثّغر وانثنى
يقابلني بالعُنف منه وبالزّجر
وقال: اقتنع واقنَعْ برزق تناله
بلطف لعلّ اليُسرَ يذهب بالعُسر
وأطرق إطراق البُغاث لدى الصقر
كأنْ لم أكن إذ ذاك منه على ذكر (235)

ويذكر لابن هذا الأخير واسمه محمد نقلا عن كاتب آخر هذه المرة يقول عنه:«

أورده الرشيد بن الزبير في كتاب الجِنان من الأندلسيين، ولم أعرفه إلا منه، وأورد له:

---

235. المرجع السابق، ص 185.

جعلوا رُضابَك كي يُحرّمَ راحا

ورأوا به قتلَ النفوسِ مباحا

نشروا عليك من الذّوائب حِندِساً

فملأته من وجنتيك صباحا

ومتى أحسّوا منك طيفاً طارقاً

ملأوا أعنّتهم إليّ رياحا

ضربوا عليك من القتام سرادقا

ركزوا شعاع الشمس فيه رماحا

وجلّوا ظلام الليل بالصبح الذي

قسموه بين جيادهم أوضاحا

وأتوا بغدران المياه جوامدا

قد فصلوها ملبسا وسلاحا

هذا معنى حسن، قد جوده الأعشى النحوي من شعراء المغرب، ولا أدري أيهما أسبق إليه:

ملك إذا ادرع الدلاص حسبته

لبس الغديروهز منه منصلا

ولمحمد بن البين:

برود قد خلِقن علي حتّى

حكين الصبر في يوم الوداع

فجددها ليشهد كلّ راءٍ

بأني من هباتِك باتّساع

وحملْ عاتِقي ثقْلَ المعالي

فإنّي بالتحمل ذو اضطلاع [236]

وذكر الأصفهاني أديبا آخر عدَّهُ من موالي الحماديين يسمى يوسف بن المبارك،قال عنه:« ذكر أنه من موالي بني حماد، وله في مدائحهم من الشعر ما انسحب عليه ذيل حماد، ومن ذلك قوله(من بحر السريع):

هناكُمُ النّصر ونيل النّجاح
في يومكم هذا بسُمْر الرّماح
فأنتم الصِّيدُ الكرامُ الألى
شادوا العلا بالنّائل المستَماح
ما منكم إلا همام حوى
مناقباً جُلّى ومجداً صُراح
لا ترهبون الدهر أعداءكم
وتمنعون العِرْض من أن يُباح
وتبذلون الرّفْدَ يوم النّدى
وتسْعرون الحرب يوم الكفاح
وترفعون الجار فوق السُهى
وتُكرِمون الضيف مهما استماح
لا زلتم تجنون زهر العلا
في معرض العِزّ بحد الصّفاح [237]

أمَّا في مجال الكتابة النثرية في العهد الحمادي فقد برز كذلك عدد من الكتاب الذين ذكرهم صاحب الخريدة؛ومن هؤلاء ابن دفرير و ابن العالمي؛عن الأول يقول: « ذكر أنه أحد كتّاب الدولة الحمادية، المتصرّفين في الكتابة السلطانية، وأورد له رسالة كتبها

[236]. المرجع السابق،ص186.
[237]. المرجع السابق،ص 138.

عن سلطانها يحي بن العزيز الحمادي، وقد فرّ من مدينة بجاية أمام عسكر عبد المؤمن يستنجد بعض أمراء العرب بتلك الولاية: كتابنا ونحن نحمد الله على ما شاء وسرّ، رضىً بالقسم وتسليماً للقدر، وتعويلاً على جزائه الذي يجزي به من شكر، ونصلي على النبي محمد خير البشر، وعلى آله وصحبه ما لاح نجم بحر، وبعد: فإنه لما أراد الله أن يقع ما وقع، لقبح آثار من خان في دولتنا وَضَبَعَ، استفز أهل موالاتنا الشنآن، وأغرى من اصطنعناه وأنعمنا عليه الكفران، فأتوا من حيث لا يحذرون، ورموا من حيث لا ينصرون، فكنّا في الاستعانة بهم والتعويل عليهم كمن يستشفي من داء بداء، ويفرّ من صلّ خبيث إلى حيّة صماء، حتى بغت مكرهم،وأعجل عن التلاقي أمرهم، ويرد وبال أمرهم إليهم، فعند ذلك اعتزلنا محلة الفتنة، وملنا إلى مظنة الأمنة،وبعثنا في أحياء هلال نستنجد منهم أهل النجدة، ونستنفر من كنّا نراه للمهم عدّة، وأنتم في هذا الأمر أول من يليهم الخاطر، وتُثنَى عليه الخناصر.»[238]، وعن الثاني وهو . أبو القاسم عبد الرحمان الكاتب المعروف بابن العالمي يقول:« من كتاب الدولة الحمادية، له من رسالة: ولما كنت في مضمار سلفك جارياً، ولنا موالياً، وفي قضاء طاعتنا متباهياً، رأينا أن نثبت مبانيك، ونؤكد أواخيك، ونوجب لك ولخلفك، ما أوجبه سلفنا لسلفك، تمييزاً لهم عن الأكفاء، ومجازاة لهم على محض الصفاء والولاء، فاستدم هذه النعمة العظيم خطرها بالشكر فأنت به جدير، ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور.»[239]

هذا ما اشتمل عليه كتاب واحد أُلِّف عن تلك الفترة، وقد تكون هناك

---

238. المرجع السابق،ص180.

239. المرجع السابق،ص 181.

مؤلفات أخرى عن نفس الفترة وربما حول الفترات السابقة واللاحقة لها،ولاشك أن ما ضاع من الكتب والمؤلفات شيء غير قليل،وما ضاع معه من أسماء لشعراء وكتاب وما أبدعوا شعرا ونثرا كذلك شيء غير قليل، فكيف لو اجتمع لنا اليوم دواوين نظمت في تلك العهود،و رسائل كتبت و خطب قيلت أو ارتجلت في مختلف الأحداث والمناسبات التي مرت بها الدول المتعاقبة على بلاد المغرب الأوسط،ربما امتلأت مكتبات ومكتبات بتلك الذخائر وما حوته من مؤلفات.

أما ابن لاشيق فإنه أشهر من أن يعرف و هو الشاعر والناقد والكاتب الأديب والمؤرخ وصاحب المساجلات والمناظرات الأدبية مع أدباء عصره، ومما جاء عن تعريفه في ديوانه الذي جمعه الدكتور عبد الرحمن ياغي«هو أبو علي،الحسن بن رشيق،صاحب كتاب العمدة في النَّقد،وُلِد في المحمدية أو المسيلة،في سنة 390هـ. وانتقل إلى القيروان سنة 406هـ،وغادرها إلى المهدية بعد سنة 449هـ،وغادر المهدية ثُمَّ رجع إليها ثم غادرها إلى غير رجعة إلى صقلية في سنة 454خ أو بعدها بقليل،حيثُ توفي في مازر بعد سنة 465 والغالب في سنة 463هـ.

وقد كانت القيروان أيَّام ابن رشيق قبلة الطلاب،والتقى فيها الشَّوامخ من العلماء والأئمة والفصحاء،وكان شيوخه ذوي اتجاهات واسعةٍ متنوِّعة:منهم من اشتهر باللُّغة،ومنهم من غلب عليه النَّقد،ومنهم من غلب عليه الشِّعر،ومنهم من غلبت عليه الكتابة.»[240]

[240]. ابن رشيق،الديون،جمع وترتيب عبد الرحمن ياغي،دار الثقافة،بيروت،دط،1409هـ/1989م،ص9.

وقد أورد في حقه نفس الباحث في مُؤَلَّفٍ آخر«ولقد شغل صاحبنا مجالس عصره الأدبية،وقامت بينه وبين ابن شرف مساجلات ومناقضات أثمرت كثيراً من الرسائل،كالتي كانت تُثمرها مساجلات الخوارزمي وبديع الزَّمان الهمذني،فقد ذكر ابن شاكر الكتبي أسماء رسائل لابن رشيق في هذا الباب هي:رسائل ساجور الكلب ورسالة قطع الأنفاس،و رسالة نجح الطَّلب،و رسالة رفع الإشكال و دفع المحال،و كتاب فسخ الملح ونسخ اللمح،كما ذكر له صاحب البساط الرسالة المنقوضة، ونقض الرسالة الشعوذية والقصيدة الدَّعية.»[241]

إذن ما حوته صفحات كتاب خريدة القصر وجريدة العصر للأصفهاني نقلا عن ابن بشرون من إنتاج أدباء المغرب الأوسط،وما حوته كتب أخرى مثل الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة و رياض النفوس للمالكي، والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي، و بعض ما اشتمل عليه ديوان ابن هانئ الأندلسي،وبكر بن حماد التاهرتي، وابن رشيق المسيلي القيرواني وغيرهم من الأدباء انطلاقا من الفتح الإسلامي للمغرب الأوسط وحتى سقوط دولة بني حماد،مما وقع تحت اليد و أمكن الحصول عليه من مختلف المصادر والمراجع التي تناولت تلك الفترة بالدراسة، سيكون حقلا للدراسة في الباب الموالي من هذا البحث.

[241]. عبد الرحمن ياغي،حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها،دار الثقافة،بيروت . لبنان،ص 310.

الباب الثالث

الجوانب الفنية

توطئة:

سيخصص الباب الثالث والأخير من هذا البحث للتطرق إلى الجوانب الفنية في إبداعات أدباء المغرب الأوسط؛وذلك بتتبع الأجناس الأدبية التي كتب فيها أدباء الفترة الممتدة من الفتح الإسلامي للمغرب الأوسط وحتى نهاية الدولة الحمادية الذي كان في القرن السادس الهجري،وكذا الأغراض المختلفة التي قالوا فيها شعرهم ودراسة أسلوبها وما تميز به عن غيره أو تمسكه بما كان معروفا في أدب المشرق،وكذا ما اشتمل عليه من جوانب جمالية.

وسنبدأ فيه الحديث عن الأجناس الأدبية التي وجدت في أدب الفترة الممتدة من الفتح الإسلامي للمغرب الأوسط إلى نهاية الدولة الحمادية،ولعل أول ما نتحدث عنه من ذلك الزمن هو الشعر فالخطابة ثم الوصايا و الرسائل .

الفصل الأول

الأغراض الشعرية

سيكون هذا الفصل مخصصا للحديث عن الأغراض الشعرية التي طرقها شعراء المغرب الأوسط في الفترة الممتدة من الفتح الإسلامي إلى سقوط الدولة الحمادية،وهي الفترة التي يهتم بها هذا البحث.ومن خلاله نتعرف على الأغراض التي نظم فيها شعراء تلك الدول المتعاقبة على المغرب الأوسط؛ ممن نشأوا في هذه الدول أو نزحوا إليها من مختلف البقاع والأصقاع،كما نتعرف كذلك على المنهج الذي ساروا عليه في أشعارهم من تقليد لمن سبقوهم أو تجديد خاص بهم ابتدعوه وسبقوا غيرهم فيه.ومن الأغراض التي كانت موجودة منذ القديم وطرقها شعراء تلك الفترة :

غرض المدح:

من الأغراض المتداولة بكثرة في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي،وقد جاء تعريفه في المعجم الأدبي بهذه الصيغة «فن من فنون الأدب،لا سيَّما في الشعر،وقد راج في كثير من الأعصر القديمة،وبخاصة قبل أن يهتدي الشاعر أو الكاتب إلى فهم حقيقة رسالته في المجتمع.»[242]

وإذا تتبعنا هذا الغرض في تلك الفترة،فإننا لا نكاد نعثر على شيء منه في عصر الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الأوسط،وقد يعود ذلك إلى أن قادة الفتح لم يكونوا يهتمون لهذا الأمر لانشغالهم بما هو أهم،أو أنه لم يكن هناك شعراء يهتمون لمدح هؤلاء القادة الفاتحين كما أنَّ «البلاد حديثة الاستعراب،والعصر يسوده الاضطراب و عدم الاستقرار.فمن البديهي أن لا نرى أدبا ولا أدباء إلا ما كان من رجال الدين والفقه والدُّعاة الذين يفدون لتثقيف أهل البلاد. وإن كان أدباء فهم من العرب

[242]. جبور عبد النور،المعجم الأدبي،مرجع سابق،ص 245.

الفاتحين،ولكن،لا نجد لهم أثراً،وإن وُجد يوماً فليس له من الجزائرية شيءٌ،لأنَّ أصحابهُ مشارقة،وهو أدب يتناول في الشعر ما عرفناه للمشارقة من أبوابه،وفي النثر الرسائل والوعظ الدِّيني والخُطب الدِّينية والسياسية.»[243]

أما في العهود اللاحقة للفتح،وبعد أن تمَّ دخول بلاد المغرب عامة والمغرب الأوسط خاصة الدين الجديد،وانتشرت الثقافة العربية ،وتعلَّمَ الناس اللغة العربية وأتقنوها وتفوقوا فيها كلاما وإبداعاً فكان للشعراء المحليين كلمتهم في الأدب العربي،وقد عرفت الفترة الرُّستمية بروز أول الأدباء الجزائريين مولداً ونشأة ممن نظموا الشعر في تلك من أمثال بكر بن حماد وأحمد بن فتح المعروف بابن الخرّاز،هذا الأخير له قصيدة في الوصف ولكنه يخلص فيها إلى المدح حيث نجده يقول مادحا الأمير أبوالعباس عيسى بن إيراهيم أحد أمراء الدولة الإدريسية:

ما عذرها والبحرُ عيسى ربُّها

ملك الملوك و رائض الرواض [244]

كما نجد من شعراء الدولة الرُّستمية الذين نظموا في فن المدح أيضا الشاعر بكر بن حماد التاهرتي وقد ذكر في سيرته أنه اتصل بخلفاء الدولة العباسية ومدحهم،فقد «تعاطى بكر المدح؛فقد ذكرت المصادر أنه مدح الخليفة العباسي المعتصم عندما رحل إلى المشرق،غير أن مدائحه تلك لم تصل إلينا،كما مدح الأمراء والأعيان. ومَدْحُه – عموماً – تقليدي فيه تصريح بالطَّلب،يشيدُ فيه بكرم الممدوح وشجاعته،وعراقة نسبه،ومن ذلك قوله يمدح أحمد بن سفيان عامل الأغالبة على الزَّاب:

وقائلة زار الملوك فلم يَفِدْ

فيا ليته زار ابن سفيان أحمدا

---

[243]. محمد الطمار،تاريخ الأدب الجزائري،مرجع سابق،ص 68.

[244]. البكري،الممالك والمسالك،المج2،مرجع سابق،ص293.

فتىً يُسْخِطُ المال الذي هو ربُّهُ

ويُرضي العوالي والحُسام المهنّدا» (245)

وكما مدح خلفاء الدولة العباسية وعامل الأغالبة على الزاب،فإنه مدح كذلك أمراء الأدارسة بالمغرب الأقصى،فهاهو يمدح«أحمد بن القاسم بن إدريس صاحب مدينة(كرت) مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب فقال:

إنَّ السّماحة والمروءة والنّدى جُمِعوا لأحمد من بني القاسم

وإذا تفاخرت القبائلُ فافخر بفضل محمَّد وبفاطم

وانتمتْ

وبجعفر الطيّار في درج العلا وعليّ العضب الحسُام الصارم (246)

ولم ينس مدح أئمة الدولة الرُّستمية التي ينتمي إليها،فنجد له قصيدة في الاعتذار والمدح نظمها معتذرا لأبي حاتم الرُّستمي،وهو سادس أئمة بني رستم على تاهرت «وكان قبل أن يتولَّى إمارة تاهرت محبوباً من الرَّعية لمروءته وإحسانه،وعندما بويع بالإمامة سنة إحدى وثمانين ومائتين هجرية(281هـ) شغب عليه بعض خصومه،وأثاروا الفوضى في مملكته،ومال الشاعر معهم،وقدح بالأمير،ولما استقامت الأمور لأبي حاتم،واستتبَّ ملكه؛استشعر بكرٌ الخطر الذي حاق به،وتبيَّن له جسامة الخطأ الذي ارتكبه،فسارع إلى استرضاء أبي حاتم، وحاول أن يمحو حوبته السّابقة بقصيدة عارض بها قصيدة أبي نواس في خصيب مصر،ولفَّ فيها مدح أبي حاتم بالاعتذار إليه فقال:

ومؤنسة لي بالعراق تركتُها

وغصن شبابي في الغصون نضير

---

245. علي إبراهيم كردي،بكر بن حماد التاهرتي حياته وشعره،مرجع سابق،ص 15.

246 . المرجع نفسه،ص16.

فقالت كما قال النَّواسي قبلها:

عزيز علينا أن نراك تسير

فقلت:جفاني يوسف بن محمد

فطال عليَّ اللّيلُ وهو قصيرُ

أباحاتم ماكان ماكان بغضةً

ولكن أتتْ بعد الأمور أمورُ

فأكرهني قومٌ خشيتُ عقابهم

فداريتهم والدائرات تدورُ

وأكرمُ عفوٍ يؤْثِرُ الناسُ أمرَه

إذا ماعفاالإنسانُ وهو قديرُ([247])

و غير خافٍ على أحد أن هذا ليس كل ما قيل في المدح في العهد الرُّستمي الذي عُرف باهتمام أئمة الدولة بالعلم والأدب وتكريم أهله.

أما في عهد الأغالبة،فقد اتصل بهم كثير من الشعراء ومدحوهم ونالوا عطاياهم، وكانت الدولة الأغلبية قائمة بإفريقية (تونس) وامتد كما هو معروف نفوذها إلى ما كان يعرف ببلاد المغرب الأوسط؛ومن الشعراء الذين قصدوا بني الأغلب ابن هانئ الأندلسي قبل أن يتصل بالفاطميين ويصبح شاعرهم والمدافع عنهم وعن معتقداتهم، وكان من شعراء تلك الفترة من اتصل كذلك بحكام وأمراء وملوك آخرين ومدحهم ونال الحظوة عندهم ومنهم أبو عبد الله بن الحسين الطبني الذي يقول في مدح المنصور:

وكل عدوٍّ أنت تهدم عرشه

وكل فتوح عنك يفتح بابها

وإنك من عبد المليك الذي له

حُلى:فتح قرطاجنة وانتها بها

---

[247] . المرجع السابق،ص 17.

حياها أبو مروان جدُّك قابضاً

بكفٍّ،تليد طعنها وضرابها

فإن سنحت في الشرك بعدفتحه

فتوحٌ،فصروفٌ إليك ثوابها (248)

ولم يكن المدح مقصورا على قوم دون آخرين ولا خاصّاً بفئة دون غيرها من فئات المجتمع؛بل لقد مَسَّ كل ذلك .ومثاله ما نجده عند جعفر بن فلاح الكتامي وهو يمدح أحد أصدقائه وهو أحد زعماء كتامة ورجالهم الذين شادوا الدولة العبيدية بالمغرب أولا ثمَّ بالمشرق ثانيا حيث كان جعفر هذا يعمل تحت إمرة جوهر الصقلي فاتح مصر وقد وجهه هذا الأخير إلى بلاد الشام،وهناك قضى على بقايا الإخشيديين بها واستولى على دمشق،كما أنه أول من تولّى أمر دمشق لصالح العبيديين وأسقط منها الدعوة للخليفة العباسي وعوّضها بالدعوة للخليفة الفاطمي العبيدي،إلا أنه لقي حتفه بعد معركة خاضها ضد الحسين بن أحمد القرمطي الذي أسره وقتله،وكان جعفر هذا إلى جانب زعامته ومعرفته بأمور الحرب والسياسة شاعرا أديبا فصيحاً ذا نباهة وشأن(249)

قال عنه ابن تغرى بردى :«وكان جعفر بن فلاح المذكور أديباً شاعراً فصيحاً،كتب مرَّةً إلى الوزير يعقوب يقول له:

ولي صديقٌ ما مسَّني عدمٌ مُذْ نظرَتْ عينُهُ إلى عدمي

أعطى وأقنى ولم يكلِّفني تقبيل كفٍّ له ولا قدمِ (250)

وقد غدا لفن المدح شأن كبير بعد أن اتصل ابن هانئ الأندلسي بالعبيديين وأصبح شاعرهم

---

248 . ابن عذارى،البيان المغرب،مرجع سابق،ص 356.

249. ينظر محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان،إرشاد الحائر إلى أدباء الجزائر،مرجع سابق(بتصرف)،ص 37.

250 ابن تغرى بردى،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،الجزء الرابع،ط 1،دار الكتب المصرية،1348هـ/1930م،ص59.

الأول،ذلك أنه أصبح الناطق الرَّسمي باسم الفاطميين العبيديين سواءً وهم بالمغرب أو بعد انتقال مركز الخلافة إلى القاهرة،ولابن هانئ ديوان شعر يغلب عليه شعر المدح الذي أخلصه للفاطميين دون غيرهم ومما يذكر أنه كان سنيا ولكنه بعد اتصاله بهم صار شيعيا بل أكثر من الشيعة إخلاصا لمذهبهم ودفاعاً عنه ضد المناوئين له،وقد نال حظوة عندهم لم ينلها شاعر من شعراء ذلك العهد.وقد سبق الحديث عن انتقاله من الأندلس إلى بلاد المغرب واتصاله بالعبيديين ومدحه لهم ومبالغتهم في إكرامه حتى صار شاعرهم الذي يذب عن مذهبهم ويدعو إليه بكل ما أوتي من براعة في القول وفصاحة في اللسان،أطلق لسانه في مدحهم بالقصائد الطوال فمدح المعز لدين الله الفاطمي ومدح جعفر بن علي وإبراهيم بن جعفر،وحيثما جلت ببصرك في ديوانه تجد القصيدة تلو القصيدة في مدح العبيديين والإشادة بهم والمبالغة في وصفهم،ويصعب عليك أن تختار واحدة من بينها لتبين مدى تشبع الرجل بفكرهم وعقيدتهم ومذهبهم،ولكن سنختار بعض الأبيات من تلك القصائد المدحية في رجال تلك الدولة التي لم تعمر كثيرا في بلاد المغرب وانتقلت إلى القاهرة ولكن ابن هانئ لم يسعفه الحظ في اللحاق بالعبيديين بمصر فقد لقي حتفه في الطريق إليها،و من مدحه نختار بعض الأبيات من قصائده،ومما قاله في أمير الزاب جعفر بن علي بن حمدون:(الطويل)

ألا أيُّها الوادي المقدَّس بالنّدى
وأهل الندى قلبي إليك مُشوَّق
ويأيها القصر المنيف قِبابُه
على الزّاب لا يُسْددْ إليك طريقُ
ويا ملك الزاب الرّفيع عمادُه
بقيت لجمع المجد و هو فريق
فما أنسَ لا أنسَ الأمير إذا غدا
يروع بحوراً ملكه ويروق
وللجود مجرى من صفيحة وجهه

إذا كان من ذاك الجبين شروقُ

و هزّته للمجد حتّى كأنما

جرتْ في سجاياه العذاب رحيقُ

أما و أبي تلك الشّمائل إنّها

دليل على أن الندار عتيق

فكيف بصبْر النفس عنه ودونه

من الأرض مُغبرّ الفِجاج عميق

فكن كيف شاء الناس أو شئت دائما

فليس لهذا الملك غيرك فوق

و لاتشكر الدُّنيا على نيل رتبة

فما نِلتها إلا وأنت حقيقُ (251)

ولابن هانئ غير هذه القصيدة في مدح أمير الزّاب جعفر بن علي بن حمدون؛منها قصيدة من نفس البحر(الطويل)،مطلعها:

خليليَّ أين الزّاب مني وجعفرُ

وجنَّةُ عدن بِنْتُ عنها وكوثرُ (252)

وهي قصيدة مصرَّعة،فيها مبالغة في مدح هذا الأمير،ومن خلالها يشبه بعده عن الأمير بآدم عندما أخرجه الله من الجنة،ويرى في الزاب وتوافد الناس على أميرها شبيها ببيت الله الحرام الذي يأتيه الناس من كل فج،ويرى في الأمير أنه ملجأ وأهل وعشيرة لكل الذين مزَّق الله شملهم.إذ يقول:

أتى الناسُ أفواجاً إليك كأنما

من الزاب بيت أو من الزاب محشرُ

---

[251]. ابن خاقان،مطمح الأنفس ومسرح التأنّس،تح محمد علي شوابكة،دار عمار مؤسسة الرسالة،ط1، 1403هـ/1983م،لبنان،ص 327.

[252]. نفسه،ص 327.

فأنت لمن قد مزَّق الله شمله

و معشره والأهل أهلٌ ومعشرُ [253]

وفي قصيدة أخرى يقال إنها أول شعر مدح به المعز لدين الله الفاطمي جاء فيها:

هل كان ضمَّخ بالعبير الريحا

مُزن يهزُّ البرقُ فيه صفيحا

يهدي تحيات القلوب وإنما

يهدي بهن الوجد والتبريحا

أشرقت بماء الورد بلَّل جيبها

فأتت ترقرقه دما منضوحا

أنفاس طيب بتن في درعي وقد

بات الخيال وراءهن طليحا

بل ما لهذا البرق صلا مطرقا

ولأي خيل الشائمين أنيخا

يدني الصباحَ بخطوه فعلام لا

يدني الخليط وقد أوجد نزوحا [254]

و القصيدة مصرَّعة أيضاً، وفيها مدح وإشادة بالمعز وبيان ما له من خصال لا تضاهى وصفات بها يتباهى، وما يلفت النظر في قصائده المدحية أنه كان طويل النفس فيها،فلا تقع إلا على القصائد الطويلة التي حفل بها الديوان،« ولا ريب عندنا أنَّ شعر ابن هانئ،بما طلع به على البيئات الأدبية من ديباجة رائعة، وصورٍ بارعةٍ مسترسلة،ونَفَسٍ طويل يتدفَّقُ حيويَّةً،قد جعلتْ أصداؤه تتردَّدُ في جنبات المغرب العربي كلِّه،مثيرةً الإعجاب،كما لا نكادُ أنَّهُ قد بلغ بلاط المعزّ في إفريقية،وأنَّ إعجابه به قد

---

253. المرجع السابق،ص 328.

254. ابن هانئ،الديوان،مرجع سابق،ص 29و 30.

جعله حريصاً على أن يكون ابنُ هانئ شاعرَهُ الأثيرَ عنده الجديرَ بإمارة الشِّعر لديه.»[255]

كما أن المبالغة في المدح وإضفاء صفات قدسية على الممدوح في أشعاره التي خصَّ بها أئمة الدولة الفاطمية مما يميِّز تلك القصائد كذلك.وعلى العموم فإنه«قد يستنكر القارئ الذي ليس له خبرة بهذه المقولات،ما يجده في الديوان من أوصاف وأحكام و أفكار في خصوص الأئمة تصلُ إلى حدِّ التأليه، وهو غلوٌّ لا يُبَرَّرُ فقط بميل الشاعر إلى التَّفخيم وجريه وراء اللَّفظ الجزل والعِبارة القويَّة.وفعلاً قد استنكر النُّقَّادُ القُدامى مقالاته في مدح المعزِّ كأنْ يُطلق عليه الأسماء والنُّعوت التي نَخصُّ بها عادةً اللهَ وحدهُ.»[256]

ولكن مقولات ابن هانئ وإطلاقه تلك الصفات على ممدوحيه من أئمة الفاطميين له ما يبرره في عقيدة الشيعة الإسماعيلية،ذلك « إذا اعتبرنا مثلاً أنَّ الإسماعيلية تنفي الصِّفات عن الإله مثل المعتزلة،فهِمنا لماذا لا يتحرَّجُ شاعرنا،و لا غيره من الأنصار والدُّعاة،من إطلاق بعض الصفات القُدُسيَّة على الإمام وهو بشر.»[257]

وفي العصر الحمادي كان للمدح شعراؤه أيضا،وقد كان لأمراء دولة بني حماد اهتمام بالأدب والشعر حتى أنها كانت قبلة لأولئك من مختلف الأقطار المجاورة وحتى البعيدة،كما كان في تلك الفترة شعراء جزائريون يقيمون بالقيروان إلاَّ «أن هؤلاء الأدباء الجزائريين المقيمين بالقيروان لم يقولوا شعراً في الحماديين على ما نعلم،فاستأثر بهم بلاط الزيريين،فراحوا يتغنون بمدحهم وينشدون مفاخرهم.»[258]

---

255. محمد طه الجابري،مرحلة التَّشيّع في المغرب العربي وأثرها في الحياة الأدبية،مرجع سابق،ص 98.

256. محمد اليعلاوي،ابن هانئ المغربي الأندلسي شاعر الدولة الفاطمية،مرجع سابق،ص 241/240.

257. نفسه،ص 241.

258. محمد الطمار،تاريخ الأدب الجزائري،مرجع سابق،ص 139.

وبعد نكبة القيروان تفرَّقَ هؤلاء الأدباء ومنهم ابن الكفاء الذي كانت وجهته القلعة معقل الحماديين وكان الملك الناصر يحكمها، وقد قال فيه:

قالت سعاد وقد زمت ركائبها
مهلاً عليك فأنت الرّائح الغادي
قلت تاالله لاأنفك ذا سفرٍ
تجري بي الفلك أو يحدو بي الحادي
حتى أقبل ترب العز منتصراً
''فالناصر بن علناس بن حماد'' (259)

ولابن رشيق المسيلي القيرواني كذلك في شعر المدح قصائد ومقطوعات،ننقل منها هذه المقطوعة التي يمدح فيها المعز بن باديس الصنهاجي ويعترف له بأفضاله عليه،وفيها يقول(من بحر الطويل):

معزُّ الهدى لا زال عزُّك دائبا
وزُيِّنَتِ الدُّنْيا لنا بحياتكا
أتتنيَ أُنْثى يعْلَمُ اللهُ أَنَّنِي
سررت بها إذْ أُمُّها من هباتكا
وقد كنت أرجو أنها ذو بلاغةٍ
يقوم مَقامِي في بديع صفاتكا
وما نحنُ إلا نبْتُ جودِكَ كلنا
وكلُّ نبات الأرض من بركاتكا (260)

259. ينظر:محمد الطمار،تاريخ الأدب الجزائري،مرجع سابق،ص139.

260. ابن يسام،الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،القسم الرابع،المجلد الأول، تح إحسان عباس،دار الثقافة للنشر والطباعة والتوزيع،بيروت لبنان،ط1399،1هـ/1979م،ص 611و612.

وهو في هذه المقطوعة يمدح المعز ويخبره بميلاد طفلة له من الجارية التي أهداه إياها،وهو مسرور بها لأن أمها من هباته،ويأسف لكونها أنثى وكان يتمنى أن تكون ولداً ذا بلاغة مثل أبيه حتى يقوم مقامه في مدح المعز والإشادة بصفاته.

وفي هذا العصر عُرِف شاعر آخر قدم من وراء البحر من جزيرة صقلية،إنه الشاعر الأندلسي ابن حمديس الصقلي الذي قدم إلى بجاية الناصرية وهناك مدح المنصور الذي أغدق عليه فجاءت أشعاره جيدة في مدحه والإشادة بأفضاله وفضائله،وفي إحداها يقول عن الملك المنصور مادحا و واصفا قصره:

أيا مَالِكَ الأرض الذي أضحى له
ملك السماء على السَّعادة نصيرا
كم من قصور للملوك تقدَّمتْ
واستوجبت لقصورك التأخيرا
فعمرتها وملكت كل رياسة
منها و دمَّرت العِدا تدميرا (261)

وهو في هذه الأبيات يمدح المنصور ويخاطبه بتأييد ونصر الله له في السعادة،كما يبيِّن أن قصر المنصور مقدم على كل القصور التي استوجبت التقدم لكنها تأخرت عن قصره العامر،وصاحبه الذي يملك الريَّاسة ويظهر على أعدائه ويدمِّرهم تدميرا.

ومن الشعراء الذين قدموا إلى المغرب الأوسط كذلك شاعر آخر من الأندلس استقر به المقام في هذا البلد،وقد تعاطى هو الآخر الشعر كما فعل أكثر النازحين إلى المغرب الأوسط،إنه محمد بن البين الأندلسي ومن شعره في المدح قوله:(من بحر الوافر)

---

261 . ابن حمديس،الديوان،تعليق يوسف عيد،دار الفكر العربي،لبنان،ط 1، 2005م ص470.يُنظر أيضا خريدة القصر وجريدة العصر للأصفهاني،ج1، ص 430.

برود قد خلقن عليَّ حتّى حكين الصّبر في يوم الوداع

فجدّدها ليشهد كلُّ راءٍ بأنِّي من هباتك باتِّساع

وحمل عاتقي ثقل المعاني فإني بالتَّجمُّل ذو اضطلاع [262]

ومن نزلاء بجاية في عصورها الزاهية شاعر أندلسي آخر اسمه محمد بن عيسى بن محمد أبو بكر اللَّخمي الأندلسي المشهور بابن اللُّبانة،ويُذكر أنه نزل تلمسان – و في شعره ما يُثْبِتُ ذلك – وقد اتصل ببني حماد و مدحهم ونال عطاياهم؛ومن الذين مدحهم من أمراء الحماديين باديس بن المنصور، وفيه يقول في أحد موشحاته التي عُرِف بها،وهو موشَّحٌ طويل نسبياً نقتطف منه هذه الأبيات (من المجتث):

جمعتَ في الآفاق تنافُرَ الأضداد

فأنت ليثُ الخيسْ وأنت بدر النَّاد

خرجتُ مختالا

أبغي سنا البرق

أقطعُ أميالاً

غرباً إلى شرقِ

مؤملاً حالاً

يكون من وفقي

فقال مَنْ قالا

وفاءً بالصِّدق

دعْ قطعك الآفاق ياأيُّها المرتاد

واقصد إلى باديس خير بني حمّاد

يامن رجا الظلاَّ

وأمَّل التعريس

إن شئت أن تحلى

---

[262] . العماد الأصفهاني،خريدة القصر وجريدة العصر،قسم شعراء المغرب،مرجع سابق، ص186.

بطائل التأنيس

لا تعتمِد إلا

على عُلا باديس

من فرقه أعلى

قدْراً من البرجيس

مواطن الأرزاق أولئك الأمجاد

فاحطط رحال العيس وانقض بقاء الزّاد (263)

و كذلك في هذا العهد لم يقتصر المدح على الخلفاء وحدهم بل امتدَّ إلى رجال الدولة كذلك،ومنهم القضاة وفي مدح أحدهم يقول علي بن الزيتوني:

نهاه عن محارمه نُهاه وقرَّبهُ لخالقه تُقاه

وقال الله ليس سواي ربٌّ ولا لشريعتي أحد سواه (264)

وكذلك مدح العلماء،ومما قيل في مدح أبي حامد الغزالي أبيات للشاعر يوسف بن النحوي:

أبو حامد أحيا من الدين علمه

وجدَّد منه ما تقادم من عهد

و وفَّقه الرحمان فيما أتى به

وألهمه في ما أراد إلى الرُّشد

ففصَّلها تفصيلها فأتى بها

فجاءت أمثال النُّجوم التي تهدي (265)

وامتدَّ المدح في الشعر إلى أشياء أخرى في حياة الإنسان؛منها المدن التي سكنها فسكنته فقال فيها شعراً،ومن نماذج ذلك ما قاله ابن النحوي عن مدينة فاس العريقة:

---

263. ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات،المجلد الرابع،مرجع سابق،ص30/29.

264 . المرجع السابق،ص427.

265. الأصفهاني،خريدة القصر و جريدة العصر،مرجع سابق،ص 326.

يا فاسُ منك جميع الحسن مُسترق

و ساكنوك جميع الرزق قد رزق

هذا نسيمك أم رَوْحٌ لراحتنا

وماؤك السلسبيل الصّافي أم الورق

أرضٌ تخلّلها الأنهار داخلها

حتّى المجالس والأسواقُ والطُّرق [266]

وعموماً فإنَّ شعر المدح في المغرب الأوسط غلبت عليه الروح الدينية التي تنتصر لأولي الأمر من الأمراء والسلاطين والملوك الذين توالوا على حكم هذه البلاد،ماعدا ما عُرف عن ابن هانئ الذي بالغ في صفات ممدوحيه وأصبغ عليهم أوصافا فيها الكثير من الشطط.

شعر الوصف:

يعتبر الوصف من الأغراض التي واكبت حركة الشعر العربي منذ العصر الجاهلي فقد كان الشاعر يصف رحلة الصيد ويصف الأمكنة التي يتنقل بينها ويصف الطبيعة من حوله،ولم يخرج عن هذا، الشاعر الذي استوطن بلاد المغرب الأوسط،فقد وصف هو الآخر ما كان حوله وما وقعت عليه عيناه،والوصف كما يعرفه صاحب المعجم الأدبي:«هو نقل صورة العالم الخارجي أو العالم الدَّاخلي من خلال الألفاظ،و العبارات،و التشابيه،و الاستعارات التي تقوم لدى الأديب مقام الألوان لدى الرسَّام،والنّغم لدى الموسيقي.»[267]

يقول عنه ابن رشيق المسيلي القيرواني:«أصل الوصف الكشف والإظهار،ويقال:قد وصف الثوب

---

[266]. ابن أبي زرع،الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس،دار الطباعة المدرسية،دط،1833م،ص 16.

[267]. جبور عبد النور،المعجم الأدبي،مرجع سابق،صص 292و 293.

الجسم إذا نمَّ عليه ولم يستره.»[268]

وقد طرق هذا الغرض كغيره من الأغراض شعراء المغرب الأوسط منذ تأسيس دويلاتهم واستقلالها عن الخلافة الإسلامية في بلاد المشرق،ومن بين هؤلاء الشعراء شاعر الدولة الرُّستمية بكر بن حماد التاهرتي الذي كان من أبرز شعراء تلك الفترة من الزمن؛ومن بين ما قاله في ذلك وصفه لجو مدينة تاهرت عاصمة الدولة الرستمية شتاء،حيث يقول(السريع):

ماأخشن البرد وريعانه وأطرب الشمس بتاهرت
تبدو من الغيم إذا مابدتْ كأنها تُنْشرُ من تخْتِ
فنحن في بحر بلا لجَّةٍ تجري بنا الرِّيح على السّمت
نفرح بالشمس إذا ما بدت فرحة الذمّي بالسّبْتِ[269]

ومن شعر الوصف في العهد الرستمي ما ينسب إلى أحمد بن فتح المعروف بابن الخزار الذي يقول في وصف قينة بصرية:

ما حاز كلَّ الحسن إلا قينةٌ بصرية في حمرة وبياض
الخمر في لحظاتها والورد في وجناتها هيفاء غير مفاض[270]

و في الفترة الأغلبية نجد أيضا بعض الأشعار في الوصف،ومنها قول محمد بن الحسين الطبني في إحدى قصائده يصف الحمائم ويظهر كلفه بها،ويشبهها بالقينات وهن يغنين أو المغنين الذين كانوا في

تغنَّت على الأغصان يوما حمائم
كما يتغنين القيان الأوانس
يظنُّ الذي يصغي إليهن معبدا

---

[268]. ابن رشيق،العمدة في محاسن الشعر،وآدابه،ونقده،الجزء2،تح محمد محي الدين عبد الحميد،دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة،دمشق سوريا،دط5، 1401هـ/1981م، ص 295.

[269] . البكري،المسالك والممالك،مرجع سابق،ص 248. ينظر أيضا:محمد بن رمضان شاوش،الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد،مرجع سابق،ص61.

[270] . ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،الجزء الأول،مرجع سابق،ص103.

أو ابن سريج في ذي الأيك جالس (271)

ذلك الزمن(بحر الطويل):

كما اشتهر عنه وصف أشياء كثيرة في الوجود مثل وصف النجوم،وصف الأنهار وكان مجيدا في وص

و الجو أزرق والنُّجوم كأنها

ذهب تسربل لا زوردا أزرقا

وكأنما الجوزاء فيه تقلَّدت

سيفاً،حمائله المجرَّة مُعْرقا (272)

فها في دقة معنى واختيار لفظ،يقول في النجوم (بحر البسيط):

وفي وصف النهر يقول:

والنَّهر مكسوٌ غلالة فضَّة

فإذا جرى سيل فثوب نضار

وإذا استقام رأيت رونق مُنْصلٍ

وإذا استدار رأيت عِطف سِوار (273)

فهو يصف النهر بدقة ويتابع حركاته المختلفة؛فيصفه في جريانه ،وفي استقامته واستدارته،ونراه يضع لكل صفة يراه عليها مثيلا من الواقع الذي حوله فهو ثوب نضر تارة،و منصل سيف جميل تارة أخرى، و ثالثة عطف سوار في معصم امرأة.

و ربَّما تأثر به ابن أخيه – وأسرة الطبني معروفة بالقريض – زيادة الله بن علي الطبني (أبو مضر) الذي وصف هو الآخر الحمام، ومما قاله في ذلك :

أدنت إليَّ صبابتي مغرّدة

---

271. ابن الكتاني،التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ج1،تح إحسان عباس،دار الثقافة بيروت، دت ،دط ص 21.

272. نفسه،ص3.

273. السابق،ص 22.

أذكى الجوى بين أضلاعي ترنُّمها

كأنّما مكثت في عشِّها زمنا

عُليَّة بنت زرياب تُعلِّمها [274]

و زيادة الله بن علي هذا جمع إلى الشعر النثر كذلك،وعرف عنه أنه ألف كتابا موسوماً بـ: ''الحمام'' قال عنه الحميدي«أديب، شاعر مكثر،من شعره في كتاب:''الحمام'' المؤلَّف للمنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر[من الخفيف]:

أذْكرَ القلبَ بالتَّصابي فحنّا

ساجعٌ في أراكة قد أرنّا

أخضلَتْ ريشَهُ السَّماءُ بِطَلٍّ

ورأى الرَّوْض مؤنِّقاً فتغنَّى

غرِدٌ بالسُّرور فازت يداهُ

بحبيب عليه لا يتجنَّى

بأبي عامر رأى الدِّينُ في الكُفـ

ـرعلى رغم أهله ما تمنَّى

ملِكٌ لم يزلْ بركض المذاكي

وجِهاد العدو مشوقا مُعنَّى [275]

وأسرة الطبني كلها تقريبا نالت حظها الوافر من العلم والأدب والفن،واشتهرت في موطنها الأصلي وأيضا في المواطن التي رحلت إليها؛ شرقا وغربا في بلاد العرب والمسلمين في ذلك الزمن،و نقرأ تعليقا عن أحد شعراء هذه الأسرة؛وهو أبومروان يقول فيه صاحبه:«إن شعر أبي مروان الذي بين يدينا قليل،ولكنَّه

---

[274]. ابن الكتاني،التشبيهات من أشعار أهل الأندلس،مرجع سابق،ص21.

[275]. الحميدي،جذوة المقتبس، مرجع سابق،ص 318.

ينمُّ على قلّته،عن مقدرة لا بأس بها في هذا اللون من الشّعر،وباعه يظهر جليّاً في هذه المقطوعة [276*] ،فهو فيها مادح وهاج في وقت واحد.وأسلوبه واضح والصورة رائعة ملموسة. وأخواه أبو الحسين عبدالرحمن وأبو الأصبع عبد العزيز لم يدركا نباهته و لا عمله.فلا يكاد يعادله في ذلك إلا أبناء عمّه يحي محمد وإبراهيم الوزير والقاسم فاشتهر الأول في الأدب والحديث،والثاني بالبراعة في الأدب وعلم الطِّب والثّالث في الأدب،وكانوا كلُّهم معاصرين لابن حزم الأندلسي وربطتهم به أواصر صداقة متينة.»[277]

أما شعر الوصف في عهد الدولة الفاطمية فقد كان ابن هانئ الشاعر الذي لا يُشقُّ له غبار في جُلِّ الأغراض وإن كان المدح هو المسيطر على ما جاء في ديوانه، ونجد من قصائده المدحية ما اشتمل على الوصف أيضا؛ ومنها ما كان وصفا خالصاً وإن كان الوصف يساير كل الأغراض،و من أمثلة الوصف الخالص في شعر ابن هانئ وصف الجلنار(وهو زهر الرّمان)،يقول في ذلك:

وبِنْتُ أيكٍ كالشّباب النّضِر
كأنَّها بين الغصون الخضر
جَنانُ باز أو جنانُ صقر
قد خلَّفته لقوة بوكر
كأنّما مجَّتْ دماً من نحر
أو نشأت في تربة من جمر
أو رُويت بجدول من خمر
لو كفَّ عنها الدَّهرُ صرف الدهر
جاءت بمثل النَّهْد فوق الصدر

[276*]. المقطوعة موجودة في الصفحة رقم:152 من هذا البحث.

[277]. محمد الطمار،تاريخ الأدب الجزائري،مرجع سابق،99.

تفْترُّ عن مثل اللّثات الحمر [278]

فنراه يصف الجلنار ويشبهه بالشباب النضر،وهي بين الغصون الخضر مثل جنان باز أو صقر خلفته بوكر،وهي كالدم المتدفق من النحر أو كأنها نشات في تربة من جمر،أو سقيت بجدول من خمر لو كف الهر عنها صروفه وحوادثه،ثم يستعير لها صورة من الجسم البشري فيراه مثل نهد فوق صدرٍ تفترت عنه لثات حمر.

وله في وصف الورد والياسمين والنرجس مقطوعة من أربعة أبيات،يقال إنه قالها في مجلس منادمة جمعه بالأمير جعفر بن علي حمدون،جاء فيها:[279]

وثلاثة لم تجتمع في مجلسٍ إلا لمثلك والأديب الأريبُ
الورد في رامشة من نرجس والياسمين وكلهنّ غريبُ
فاصفرَّ ذا واحمرَّ ذا وابيضَّ ذا فأتتْ بدائعُ أمرهنَّ عجيبُ
فكأَنَّ هذا عاشق وكأَنَّ ذا ك مُعَشَّقٌ وكأن ذاك رقيبُ

ولم يقف ابن هانئ عند الطبيعة يصفها،يصف جمالها و جمال و رِقَّة وردها ونرجسها وياسمينها،بل تعدى وصفه إلى أشياء أخرى في حياة الإنسان مثل السيوف التي خصها بوصفه وبالغ في ذلك،ومما قاله في صفة سيف ليحي بن علي : [280]

وأبيض من ماء الحديد كأنّما يبيت عليه من خشونته طلٌّ

وله فيه(السيف) أيضا أبيات أخرى ذكرت في ديوانه،وهي من نفس قافية الأبيات السابقة،يقول فيها:

---

278. ابن هانئ،الديوان،ص 76 ،77.
279. نفسه،ص 24.
280.. ابن هانئ،الديوان،ص 169.

لي صارمٌ وهو شيعي كحامله يكاد يسبِقُ كرّاتي إلى البطل

إذا المعزُّ معز الدِّين سلّطه لم يرتقب بالمنايا مدَّة الأجل

وفيه أيضا يقول:

هو السّيف سيف الصدق أما غِراره

فعضْبٌ وأما متنه فصقيل

يشيعُ له الإفرند دمعاً كأنَّما

تذكَّر يوم اللطف فهو يسيلُ (281)

وفي الأبيات السالفة يصف السيف ولونه و يُظهر شيعيته وشيعية سيفه،و خدمته للمعز لدين الله الفاطمي،فهو سيفه المسلط على رقاب أعدائه،ويعود في المقطوعة الأخيرة ليظهر زينة السيف و مختلف أجزائه،وكل ذلك بعبارات وألفاظ دقيقة وكأنه يرسم بكلماته تلك الأوصاف ليقف القارئ على لوحة تشكيلية بيد فنان ماهر،وهو في وصفه كما في مدحه يبالغ بإطلاق الصفات العظيمة على البشر فاسمعه يصف جعفر بصفات ليست ممكنة لبشر مهما كانت مكانته،وقد بالغ فيها:

هو استنَّ للريح الهبوب

ورشَّح ذا العارض المرْتَكِم

فما همت المزْنُ حتى هما

ولا ابتسم البرقُ حتى ابتسم

وليس رشاءٌ إذا مدّ من

رشاء و لا وذم من وذم (282)

وله أيضا في وصف سيف إفرنجي أبيات يقول فيها:

وابيض من غير طبع الهند

يجول بين حدّه والحد

---

[281]. ابن هانئ،الديوان،ص 169.(غِراره: حدُّه ، عضبٌ:قاطع، الإفرند:جوهر السيف و وشيه.

[282]. ابن هانئ،الديوان،ص 187.(العارض:السحاب المطل،المرتكم:المجتمِع الكثيف، همتْ:سالت،رشاءٌ ،وذم :حبل الدلو.

أشبه بالماء من الفرند

أقدم من رام وزير جرد

تراث يحي عن أب وجد

من بعد ما قطّع ألف غمد

جرَّده بين يدي معد

قد ينصر المولى بسيف العبد (283)

وفي عصر بني حماد،نجد لشعر الوصف وجودا ولكنه ضئيل لا يكاد يذكر،وقد يعود ذلك إلى أن أغلب ما قيل في تلك العهود ضاع بسبب عدم تواتر روايته أو بسبب عدم تدوينه،زيادة على الأحداث التي اتصلت بنشأة ونهاية تلك الدولة،ومن الوصف الذي بقي من عهد الحماديين ما قاله نزيل بجاية الشاعر عبد الجبّار بن حمديس الصقلي في وصف قصر من قصور بجاية؛قصر المنصور وهي قصيدة طويلة نسبيا تضمنت إضافة إلى وصف القصر مدح صاحبه والإشادة بخصاله وصفاته(من بحر البسيط):

واعْمُرْ بقصر المُلْكِ ناديك الذي

أضحى بمجدك بيته معمورا

قصرٌ لو أنّك كحلت بنوره

أعمى لعاد إلى المقام بصيرا

واشتقَّ من معنى الحياة نسيمه

فيكاد يُحْدِثُ للعظام نشورا

نُسِيَ الصّبيحُ مع المليح بذكره

وسما ففاق خورنقًا وسديرا

ولو أن بالإيوان قوبلَ حسنُهُ

ما كان عنده شيئاً مذكورا

أعيت مصانعه على الفرس الألى

رفعوا البناء وأحكموا التَّدبيرا

283. المرجع السابق، ص 67.

ومضت على الرّوم الدُّهورا وما بنوا

لملوكهم شبيهاً له ولا نظيرا [284]

وفي نفس القصيدة نجد وصفا لبركة القصر والأسود التي تزينها وكأنها متحركة داخلها،يقول في ذلك:

وضراغمٌ سَكَنَتْ عرينَ رِئاسةٍ ... تركتْ خريرَ الماء فيها زئيرا

فكأنَّما غشَّى النُّضارُ جسومَها ... وأذاب في أفواهها البلَّورا

أُسْدٌ كأن سكونها مُتحرِّكٌ ... في النَّفس لو وجدتْ هناك مثيرا

وتذكَّرتْ فتكاتها فكأنّما ... أقْعَتْ على أدبارها لتثورا

وتخالها في الشمس تجلو لوتَهَا ... ناراً و ألسنَها اللّواحسَ نُورا

وكأنَّما سُلَّتْ سيوفُ جداولٍ ... ذابت بلا نار فعدن غديرا

وكأنَّما نَسَجَ النسيمُ لمائه ... دِرعاً فقدَّر سردها تقديرا [285]

وفي هذه الأبيات كما نرى،يكثر الشاعر من التشبيهات مستعملا _ كأن وكأنّما_ ويعطينا صورة حيَّةً متحركة لما يراه في البركة من أُسْدٍ كأنها تعيش حقيقة داخل بركة القصر.و في وصف بركة أخرى من قصور المنصور ببجاية أيام عزّها،وهي قصيدة ذات أبيات طويلة نقتطف منها بعضها إذْ يقول (من بحر الكامل):

والماء منه سبائك من فضَّةٍ ... ذابت على دولاب شادروان

وكأنَّها سيف هناك مشطَّبٌ ... ألْقَتْه يومَ الرَّوْعِ كفُ جبان

كم شاخص فيه يطيلُ تعجُّبا ... من دوحة نبتت من العُقيان

عجباً لها تسقي الرياض ينابعا ... نبعتْ من الثَّمرات والأغصان

خصّت بطائرة على فنن لها ... حَسُنَتْ فَأُفْرِدَ حُسْنُهَا من ثان

قُسّ الطيورِ الخاشعاتِ بلاغةً ... وفصاحةً من منطقٍ وبيانِ

---

[284]. ابن حمديس الصقلي،الديوان،ص 468 وما بعدها.

[285] . ابن حمديس،الديوان،ص 469.

فإذا أُتيحَ لها الكَلاَمُ تكلَّمتْ بخرير ماءٍ دائمِ الهملان [286]

وهي قصيدة جميلة تبرز قدرة كاتبها على الوصف وبأدق التفاصيل،حتى يجعلك تتخيل هذه البركة بالقصر،وقد استعمل الشاعر هنا أيضا أدوات التشبيه التي استعملها في قصيدته السابقة– كأنَّ،كأنَّها، كأنَّما – والقصيدة مُصَرَّعَةٌ أيضاً.

ومن الشعراء الذين أجادوا الوصف في العصر الحمادي كذلك،شاعر آخر هو محمد بن عبدالله القلعي الأصمّ الذي أبدع في وصف فوارة ماء،يقول في وصفها(من بحر الطويل):

وحاكية بالماء لون اضطرابه
قواماً وحسنا حين يبدو ويوبص
قضيب لجين ألمع الصقلُ متنه
وأخلصه في السبك من قبل مخلص
تسامى قليلا ثمَّ عاد كأنه
جمان حواليها على الماء يرقص
تضايق أعنان السماء كأنها
لها بين هاتيك النُّجوم تلصُّصُ
كأنَّ نوالاً من يمين" كرامةٍ"
يمُدُّ به إذ لا ترى الماء ينقُصُ [287]

ففي هذه المقطوعة نرى الأصم القلعي يظهر لنا صورة هذه الفوارة وهي تحاكي لون اضطراب الماء في قوامه وحسنه حين يظهر وحين يضيء مثل قضيب فضة مجلو المتن من عامل ماهر،ثم

---

[286] . ابن حمديس،الديوان،ص433.

[287]. العماد الأصفهاني،خريدة القصر وجريدة العصر،مرجع سابق،ص340/339.(يوبص:يضيء)

يصور ارتفاع الماء وعودته متساقطا كأنه جمان حولها يرقص على الماء وفي ارتفاعه يضايق أعنان السماء كأنه يتلصَّصُ بين النجوم،وفي صورة ثالثة يراه مثل عطاء من يمين كرامة بن المنصور الحمادي لا ينقص أبداً.

ولعبد الكريم النهشلي كذلك شعر في الوصف،يصف نهراً في روضة(من المتقارب):

سلام على طيب روعتنا ... إلى القصر والنهر الخضرم
إلى مزبد الموج طاف لعُبـ ... ـابٍ يهدف في البان والساسم
تخال به قطما مغرما ... يكِرُّ على قطم مغرم
ويسخو فيسحب في ذابل ... يمان تسهم بالأنجم
كان الشمال على وجهه ... بها سقم وهي لم تسقم
إذا درجت فوقه درَّجت ... على حبب الزرد الحكم
وقد جلَّلته بأوراقها ... فروعٌ جلّت ناطق اليمِ
علتها الحمامُ بتغريدها ... كما سجع النُّوح في مأتم
كأنَّ شعاع الضُّحى بينها ... على السَّوسن الغض والحيزم
وشائع من ذهب سائل ... على خسروانية نعّم
ربَّما تتفقأ من فوقها ... عز إلى الربيع لدى المرهم
على كل مخبية خلة ... تسدى على جدول مفعم
كما قتل الوقف أصداغه ... وكالأرقم أنساب للأرقام (288)

ونص النهشلي هذا رسم بالكلمات للوحة فنية في فصل الربيع تتمثل في نهر يجري في روضة جميلة مخضرة ،مورقة تعلو أشجارها حمائم مغردة، تشدو بأصواتها الشجية الشبيهة بنوح الباكيات،وتزداد جمالا بالسوسن العبق يملأ المكان بعطره الفواح،لتعطينا في الأخير صورة حسية كأنها الواقع أمامنا.

كما توجد قصيدة أخرى في الوصف لعبد الكريم النهشلي،يصف فيها فِيلاً أهدِيَ للأمير باديس الصنهاجي،يقول في بعض أبياتها(من بحر الطويل):

---

288 . رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها،مرجع سابق،ص169.

له فخذان كالكثيبين لبَّدا

وصدر كما أوفى من الهضبة الصدر

و وجه به أنف كراووق خمرة

ينال به ما تدرك الأنمل العشر

وأذن كنصف البرد يسمعه الندا

خفيفا ينقص العيب مزور

ونابان شقّا لا يريك سواهما

قناتين سمراوين طعنهما بتر (289)

وهو وصف جميل للفيل،يعطي المتلقي صورة دقيقة عن هذا الحيوان الذي لم يكن له وجود ببلاد المغرب في ذلك الزمان؛فهو يصف ضخامة الفيل و وجهه وأنفه وخرطومه وأذنه ونابيه العاجيين،مستعملا أدوات التشبيه و وأوجه الشبه المستمدة من بيئة الشاعر ليقرب الصورة لقارئه.

أما ابن رشيق المسيلي القيرواني فقد قال في وصف كثيراً من الأشياء وتنوع وصفه فشمل الإنسان والحيوان والجماد«وقد عرض ابن رشيق في الوصف إلى الزرافة،والفرس،والجراد،والحجل والإوز،والديك،والبغل،ثُمَّ للشَّجر،وللبستان والرمّان والبنفسج وشقيق النُّعمان،والبهار،ثمَّ لأنواع الفاكهة كالمشمش،والموز،والتُّفاح،والأُترج،ثمَّ وصف الباذنجان؛و وصف اللَّيل،والصُّبح والبرق،والمزن،و وصف البحر والوادي،وتناولَ النُّجوم والثُّريا،ثمَّ تناول بالوصف الشباب والشِّيب ومجالس اللَّهو،كما عرض في وصفه للحمام.»(290)

و إضافة إلى ما سبق فقد قال أيضا في القوس وفي المعشوق،و قال في الرحلة وركوب البحر،وفي إبليس،وفي الأصحاب والإخوان،وقال يصف طول الليل،وقال في وصف الخدود والقدود،وفي

---

289. المرجع السابق،ص 168.

290. عبد الرحمن ياغي،حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها، مرجع سابق،ص 330 وما بعدها.

الفراق...إلخ.ومما قاله في رجاء رحمة الله تعالى:

إذا أتى اللهُ يوم الحشْرِ في ظُلَلٍ

وجيء بالأمم الماضين والرُّسُل

وحاسَبَ الخلقَ منْ أحصى بقدرته

أنفاسَهم وتوفّاهم إلى أجَلِ

ولمْ أجِدْ في كتابي غير سيِّئةٍ

تسوءُني وعسى الإسلامُ يسلم لي

رجوتُ رحمةَ ربِّي وهْيَ واسعةٌ

ورحمة الله أرجى لي من العمَلِ [291]

وهي أبيات فيها إقرار من ابن رشيق بذنوبه وأخطائه،رجاء مغفرة الله وعفوه عنه،فطلب الرحمة أرجى له مما قدَّمه من عمل.

الهجاء:

شاع غرض الهجاء في الشعر العربي منذ القديم،وتناوله أغلب الشعراء وكان وسيلة دفاع وهجوم،من الشاعر العربي عنه وعن قبيلته وقومه على الخصوم والأعداء،ولما كان كذلك فإن شعراء المغرب الأوسط كان لهم نصيبهم من هذا الغرض في كل الدول التي تعاقبت على هذه الرقعة الجغرافية من بلاد المغرب العربي،وبدءً من الدولة الرستمية أولى الدول إنشاءً في بلاد المغرب الأوسط عُرف الهجاء،ولعلَّ أشهر قصائد الهجاء في تلك الفترة قصيدة الشاعر بكر بن حماد التاهرتي في هجاء عمران بن حطان الذي مدح قاتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب – كرَّم الله وجهه – فردَّ عليه بكر بقصيدة يهجوه فيها ويبين فداحة ما صنع ذلك المجرم؛عبد الرحمن بن ملجم وقبح من مدحه،نختار أبياتاً من تلك القصيدة التي يقول فيها(من بحر البسيط):

---

[291]. ابن رشيق،الديوان، مرجع سابق،ص 154/153.

قلْ لابن ملجم – والأقدار غالبة

هدمت ويلك– للإسلام أركانا

قتلت أفضل من يمشي على قدم

وأوَّلُ الناس إسلاما وإيمانا

وأعلم الناس بالقرآن ثمَّ بما

سنَّ الرسولُ لنا شرعاً وتبيانا

صهر النَّبِي ومولاه وناصره

أضحت مناقبه نورا وبرهانا

وكان منه على رغم الحسود له

مكان هارون من موسى ابن عمرانا

وكان في الحرب سيفا صارما ذكرا

ليثاً إذا لقي الأقرانُ أقرانا

ذكرت قاتله والدَّمع منحدر

فقلت سبحان رب الناس سبحانا

إنِّي لأحسبه ماكان من بشر

يخشى المعاد ولكن كان شيطانا

أشقى مراد إذا عُدَّت قبائلها

وأخسرُ الناس عند الله ميزانا

كعاقر الناقة الأولى التي جلبت

على ثمود بأ{ض الحجر خسرانا

فلاعفا الله عنه ما تحمله

و لاسقى قبر عمران بن حطان (292)

وهي كما يبدو قصيدة قدم فيها بكر بن حماد نظرته حول ذلك الاغتيال الذي أودى بحياة أمير المؤمنين،وهدم ركنا من أركان الإسلام،ومن خلالها يبين مكانة علي بن أبي طالب من النبي – صلى الله

---

292. محمد بن رمضان شاوش،الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد(ديوان شعر)،مرجع سابق،ص62وما بعدها.

عليه وسلم– وتشبيهها بمكانة هارون من موسى– عليه السلام– وفي القصيدة أيضا ذم لما فعله عمران بن حطان الشاعر الذي مدح القاتل وأشاد بفعلته وأعدها من القربات.

أما في عصر الأغالبة ومن بيت آل الطبني،نجد هجاء لأبي عبد الله محمد بن الحسين يهجو أحد الناس كان قد تجرَّأ عليه،فهجاه قائلا(من بحر الوافر):

و وغد إن أردتُ له عقابا
عفا عنه حسَبي و ديني
يؤنِّبُني بغيبة مستطيل
ويلقاني بصفحة مستكين
ولولا الحلم أنَّ له لِجاماً
لداس الفحلُ بطن ابن اللبون
وقالوا قد هجاك فقلت كلب
عوى جهلا إلى ليث العرين (293)

وفي الأبيات هجاء مقذع لهذا الوغد –كما يسميه – فهو يترفع عن عقابه ،يمنعه حسَبُه ودينه،ولولا الحلم لداسه برجله،كما يرى تطاوله عليه بهجائه كمثل كلب عوى في وجه أسد العرين.

وله أبيات أخرى يهجو فيها أحد القضاة كان قد هجاه مبتدئا،ولما أخبره الحَكَم المستنصر بالله بذلك،ردَّ عليه على نفس البحر والقافية،فقال (من بحر الوافر):

هلُمّ فقد دعوت إلى البراز وقد ناجزت قِرنا ذا نِجاز
ولا تمْشِ الضرّاء فقدأثرتالأس ودالغلب تُخطرُ باحتفاز
وأصْحر للقاء تكن صريعا لماضي الحد مصقول جراز
رويت عن الخليل الوهم جهرا لجهل بالكلام وبالمجاز
دعوتَ له بخير ثُمَّ أنحت يداك على مفاخره العزاز

293. الحميدي،جذوة المقتبس، مرجع سابق،ص 78/77.

تُهدِّمها وتجعل ماعلاها أسافلها ستجزيك الجوازي

جزى الله الإمام العدل عنّا جزاء الخير فهو المجازي [294]

وهي قصيدة طويلة على ما يذكر الحميدي حتى أنه اكتفى برواية جزءٍ منها،وأسقط الباقي لما فيه من تجاوز. وقد كان أبو عبد الله محمد بن الحسين ضليعا في علم اللغة،فهو « رئيس جليل،عالم باللُّغة والأدب،كان في أيَّام الحكم المستنصر بالله،ابتدأ بالعلم عنده.»[295]

ومادام عُرِف هذا العهد بالشعراء الزُّهّاد فإنهم قد ابتعدوا عن الهجاء في هذه الفترة،لكن ذلك لم يمنع وجوده « وتجدرُ الإشارة إلى أنَّ هذا الشعر (الهجاء) فيما عدا بعض الأبيات القليلة التي قيلت تنذُّراً وتفَكُّهاً كان في الهجاء المذهبي و العقائدي.وهو هجاء السُّنيين الذين – عاشوا فترة انقراض دولتهم– ،للفاطميين الذين انتصبوا حكَّاماً على إفريقية بعد إخراج زيادة الله الثالث منها وهو آخر أمراء الأغالبة،وليس غريباً أن يهجو السنيُّون الفاطميين إذا علمنا أنَّ الخلافَ كان على أشُدِّهِ في نهاية القرن الثّالث الهجري (296هـ)وما بعدها بين المذهبين.»[296]

ومن أمثلة ذلك الهجاء؛ الهجاء المذهبي هجاء بكر بن حماد التاهرتي لعمران بن حطّان الذي مدح قاتل الإمام علي – كرَّم الله وجهه– ، وقد سبقت الإشارة إلى القصيدة التي قالها الشاعر في هجاء عمران هذا في الورقات السالفة من هذا البحث.

أما في العهد الفاطمي فإننا نجد دوما أمامنا الشاعر ابن هانئ يخوض في غرض الهجاء،ويجيد فيه كما أجاد في غيره،ومن القصائد التي اشتمل عليها ديوانه في هذا المضمار؛قصيدته في هجو الوهراني،وهي أيضا من قصائده الطوال جاوزت الأربعين بيتا،نقتطف منها هذه الأبيات،حيث يقول:

---

294 . نفسه،ص 79.

295. نفسه،ص 79.

296. محمد المختار العبيدي،الحياة الأدبية بالقيروان في عهد الأغالبة،مرجع سابق،ص 369/368.

طلب المجد من طريق السيوف شرفٌ مؤنس لنفس الشريف

إنَّ ذُلَّ العزيز أفظعُ مرأى بين عينيه من لقاء الحتوف

ليس غير الهجاء والضربة الـ أخدود فيها والطعنة الإخطيف

أنا من صارم وطرف جواد لستُ من قبة وقصر منيف

ومنها أيضاً:

إن أيام دهرنا سخفات

وهي أعوان كل وغد سخيف

زمن أنت يا أبا الجعد فيه

ليس من تالد ولا من طريف

إن دهراً سموتَ فيه عُلوّاً

لوضيع الخطوب وغد الصروف

إلى أن يقول:

نلت ما نلت لا بعقل رصين

في المساعي ولا برأي حصيف [297]

وهي أبيات فيها هجاء مر في حق الوهراني الذي كان كاتبا للأمير جعفر وكانت بينه وبين الشاعر منافسة،فهو يتهكم به تارة ويحط من قيمته،وتارة أخرى يبين مكانته ويمدح نفسه بعلو الهمة، ولا ينسى وهو يهجو الوهراني أن يمدح أميره ويذكر أفضاله عليه.وابن هانئ عموما هو«شاعر مشحون بالعقيدة الإسماعيلية وبظروف الصراع المذهبي والسياسي والعسكري في مواجهة خصوم الدولة الفاطمية وأعدائها الكثيرين في المشرق والمغرب،فجاء شعره – لذلك كلِّه – شعر حماسة ومناضلة عن العقيدة والدَّولة.» [298]

وفي عهد بني حماد نجد شعر الهجاء عند شاعر من بجاية؛هو أبو محمد عبد الله بن سلامة البجائي،وهي مقطوعة في ذم قوم نزل بهم الشاعر فلم يكرموه،فنظم تلك الأبيات،وهب موجودة في

---

[297]. ابن هانئ الأندلسي،الديوان، ص 107 ما بعدها.

[298]. أبوالقاسم محمد كرُّو،دراسات في الأدب والنَّقد،مرجع سابق،ص 10.

الصفحة 191 من هذا البحث.أما ابن حلُّو الجيجلي فلم يُعْرَفْ له إلا بيتان في الهجاء ذكرهما صاحب الخريدة،يقول فيها(من بحر البسيط):

يحتاج من كلّف الحاجات مثلكم
تقف الشوارب بعد الكي في الرأس
فلو سلختم قرآنا في جماجمكم
كونوا حثالة خلق الله في النّاس (299)

ويبدو من خلال البيتين أن الشاعر ممتعض جدا من المهجو أو المهجويين،فهم عنده حثالة خلق الله حتى و لو كانوا ممن سلخوا قرآناً في جماجمهم.

ونجد لابن حمديس نزيل بجاية شعراً يذكر فيه ترفُّعه عن الهجاء،يقول فيه:

إنِّي امرؤ لا ترى لساني مُنظِّما،ما حييتُ،هجواً
كم شاتمٍ لي عفَوْتُ عنه مُصمِّماً في اللِّسان نهوا
وابتده الهُجر فيَّ ظلماً حتّى إذا لم أجبْه روَّى
لفْظَتُه زَلَّةٌ تُلاقي من لَفْظي في الخطاب عفوا
كم قائل إذْ تركتُ عنه بحري يتركُ البحر رهوا
وعْوَعَ سيدٌ على هِزَبْر فما رآه الهزبرُ كُفْوا
ولو سطا قادراً عليه لمْ يُبْقِ للطَّير فيه شِلْوا (300)

والقصيدة كما يبدو تظهر ترفع الشاعر عن مجاراة كل شاتم له معيب لشخصه،وفيها دلالة على أخلاق الرجل التي تأبى عليه أن يهجو حتى من قام بهجوه،كما أن بها اعتداداً بالنفس وفخراً ،وكذلك تشبيها لنفسه بالأسد ولمهاجمه بالسِّيد (الذِّئب)،وفي القصيدة توظيف لألفاظ من القرآن الكريم،تتناص مع

---

[299]. الأصفهاني،خريدة القصر وجريدة العصر،قسم شعراء المغرب والأندلس،ج2،مرجع سابق،ص 574.

[300] . ابن حمديس،الديوان،مرجع سابق،ص451.

قوله تعالى:﴿واترك البحر رهواً﴾[301]

شعر الغزل:

يعدُّ الغزل من أقدم أغراض الشعر عن العرب،ولم تخلُ قصيدة من قصائد شعراء الجاهلية من نسيب يفتتح به الشاعر قصيدته بعد وقوفه على الأطلال يسائل رسمها الدارس عن الأحبة، ومستوقفا صحبه،قبل أن يشرع في قصيدته،والغزل كما يعرفه المعجم الأدبي«من أقدم الفنون و ألصقها بالشعر الغنائي.يُفرض في الصادق من هذا الفن أن يصدر عن أعماق النفس ،وأن يكون معبراً عن أرهف الأحاسيس البشرية،لأنه في حقيقته،وفي جذوره النفسية اللاواعية مظهر من مظاهر التَّوق إلى الخلود بالاتحاد بالجنس الآخر لتأمين ديمومة الحياة.»[302]

وقد عُرف الغزل في شعر شعراء المغرب الأوسط،إلا أنه لم يكن بالغزارة التي عرف بها عند شعراء المشرق أو شعراء الأندلس،ذلك أنه«لو بحثنا عن شعر الغزل والمجون والخمريات في القرن الأول للهجرة،لخرجنا صفر اليدين،ولهالتنا ندرة الغزل و عدم وجود شعر مجون حتى منتصف القرن الرابع،وهو أمر يدعو إلى الحيرة،ذلك أن مدن الحجاز مهد الدَّعوة الإسلامية قد غرقت حتى آذانها في شعر الغزل في القرن الأول إبّان حكم بني أمية،وما حديث عمر بن أبي ربيعة ببعيد ٠٠ كما اشتهر كثير من النّاس في المشرق بالعبث والمجون – غزلا وخمراً –وما حديث يزيد بن معاوية،والوليد بن يزيد بن عبد الملك ببعيد. فكيف شذَّ شعراء المغرب؟ولماذا يكاد ينعدم اشعر الخمري في الوقت الذي كان شعراء مصر والأندلس ينظمونه في ذلك العهد؟»[303]

---

[301]. من الآية رقم 24 من سورة الدخان.

[302]. جيور عبد النور،المعجم الأدبي،مرجع سابق،ص186.

[303]. عبد العزيز نبوي، محاضرات في الشعر المغربي القديم،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،د ط،1983م،ص 79.

ويقدم الدكتور عبد العزيز نبوي لذلك تفسيرا من باحثين قائلا: «هناك تفسيران: أحدهما لابن حوقل(في كتابه:صورة الأرض) حيث ذهب إلى أن بلاد المغرب ليس فيها ما في غيرها من الأقطار الأخرى من فُحشٍ وعبثٍ،استناداً إلى مشاهدته لأهل الإقليم في القرن الرابع.وأما التفسير الثاني – وهو لصاحب كتاب:شعر المغرب – فيزعم أن أسباب انصراف شعراء المغرب عن الفحش والعبث وعدم مسايرتهم لسائر الشعراء في الأقطار الإسلامية في هذا الباب،كان بسبب حداثة الدولة الفاطمية في المغرب،تلك الدولة التي كانت تتظاهر بالحرص على الدِّين،ولا شكَّ أن هذا التفسير كان من الممكن قبوله لو كان حال الشعر قبل قيام الدولة الفاطمية على نحوٍ يُغاير ما كان عليه إبّان عهدها.»[304]

وهذا قول فيه صحة،لأن شعر الغزل والخمريات والمجون،لا نعثر له على أثر في عهد الدولة الرُّستمية وإن كان ما بقي من شعر قيل في تلك الفترة قليل جدا قياساً بالممالك والدول التي أتت بعدها،ويؤكد هذا أن ما عُرف من شعر الغزل جاء في القرن الرابع الهجري،ومن شعراء هذا القرن محمد بن الحسين الطبني في العهد الأغلبي،والذي نعثر على بيتين له في الغزل يقول فيهما(من بحر الخفيف):

صَدَفَتْ ظَبْيَةُ الرُّصَافَةِ عَنَّا وَهْيَ أَشْهَى مِنْ كُلِّ مَا يُتَمَنَّى

هَجَرَتْنَا فَمَا إِلَيْهَا سَبِيلُ غَيْرَ أَنَّا نَقُولُ:كَانَتْ وَكُنَّا[305]

ومن الشعراء الذين قالوا في الغزل،يعلى بن إبراهيم الأريسي – نسبة إلى أريس المدينة الجزائرية في الشرق الجزائري – وهو من شعراء القرن الخامس الهجري،وقد «كان الأريسي شاعراً حاذقاً صاحب معان وتوليد وكان لألفاظه حلاوة وعليها طلاوة،إلا أنه كان غريب العبارة يرتكبُ التَّكلُّف أحياناً كما كان له

---

304. نفسه،ص 80/79.

305 . ابن سعيد المغربي الأندلسي،المغرب في حاى المغرب،الدوء الأول،تح شوقي ضيف،دار المعارف،القاهرة،ط4، 1993م،ص207.

حظ في الطب و الهيئة علاوة على الأدب والشعر الذي كان يذهب إلى الفلسفة فيه.»[306]

ومما قاله في الغزل(من بحر البسيط):

وما بي أن أفنى عليك تأسُّفا
ولا أن قلبي في هواك يذوب
ولكنِّي أخشى بهجرك تنقضي
حياتي ومالي في رضاك نصيب
ويبعدُ عني حسن منظرك الذي
به تحسنُ الدُّنيا لنا وتطيب
ألا فاحكمي يا ملكُ فيمن ملَّكته
فإنِّي أسيرٌ في يديك غريبُ [307]

ومنهم أيضا علي بن أبي الرجال التاهرتي أستاذ ابن رشيق ومعاصره، وهذا الأخير ينقل له قصيدة و مقطعتين في عمدته،وقد سبق الإشارة إليها في ثنايا هذا البحث[308] ، ويطهر من خلالها براعته في الغزل وتمكنه منه بألفاظ رشيقة وعبارات جميلة مع استعمال التشبيه والاستعارة.

ومن شعراء القرن السادس الهجري نجد الشاعر الحمادي عمر بن فلفول البجائي،الذي روى له صاحب الخريدة قصيدة من ستة أبيات موضوعها غزلي،وقد سبق أيضا الإشارة إليها في أوراق سابقة من هذا البحث – ص 155وما بعدها – وفيها إخبار عن تباريح الهوى والشوق إلى المحبوب الذي أُخبر عنه أنه بَانَ ونأى عنه،وتساؤل عما هو فاعله في هذا، فيجد الجواب في الصبر والتصبر حتى يفتح الله بوصل الحبيب.

---

[306]. محمد بن رمضان شاوش و الغوثي بن حمدان،إرشاد الحائر إلى أدباء الجزائر،مرجع سابق،ص 56.

[307]. المرجع السابق،ص 57. نقلا عن حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها لعبد الرحمن ياغي،ص157.

[308]. ينظر الصفحة 148و ما بعدها من هذا البحث.

وللقلعي الأصم أيضا نصيبه من شعر الغزل،وفي خريدة الأصفهاني يروي عنه بعض الأبيات جاء فيها(من بحر الطويل):

بما استرَقَتْهُ من جفونِك بابلُ
بما عمِلَتْ من مُقْلَتَيْكَ المناصِلُ
بوجهك ماءُ الحسن في صفحاته
كذكرك مني في الضمائر جائل
خذوني على التحريب عبدا فإن أكن
أخالف أمرا فاطراح معاجل
فما طويت إلآ عليكم جوانح
ولا بسطت إلا إليكم أناملُ (309)

وشعر الغزل كما يلاحظ قليل جداً قياسا إلى غيره من الأغراض الأخرى،ولم يلْقَ اهتماماً من الشُّعراء مثل بقية الأغراض الأخرى نتيجة ما عُرف من احتشام وحياء عند أهل المغرب العربي كما رأينا في شهادات سابقة لابن حوقل وغيره، ولعلَّ من الأسباب أيضا ما في الغزل من تعريض بالنساء المتشبَّب بهن وما ينتج عنه من أحقاد على قائليه من ذويهن،وكم من الشعراء الذين تغزَّلوا بمحبوباتهن فمنعوا من الارتباط بهن.

الرثاء:

الرثاء من أغراض الشعر المعروفة في الأدب العربي قديمه وحديثه،لأنه متعلق بالإنسان،وهو نوع من المدح إلا أنه خاص بالميت،وهو في اللغة من «رثى يَرْثِي ، رثَى رَثْيًا ، ورِثَاءً ، ورثَايةً ، ومَرْثَاةً ، ومَرْثِيَةً ، فهو راثٍ ، والمفعول مَرْثِيّ .

رثى الميِّتَ : رثاه ، عدّد محاسنه وبكاه رثاه بقصيدة » أمّا في الاصطلاح فهو «تَعداد مناقب

309. العماد الأصفهاني،خريدة القصر وجريدة العصر،مرجع سابق،ص 339.

الميت،وهو باب من أبواب الشعر عامة،والشِّعر العربي خاصة،فقد كان الشعراء يشاركون قبائلهم في الجاهلية،ومجتمعهم الحضري من بعد في أحزانه ويُعبِّرون عن عواطفهم بقصائد يعرضون فيها ما تحلّى به الميت من مآثر،كالكرم،أو الشجاعة،أو سعة العلم أو التَّقوى،أو الحلم ...و يدخل في عداد الرثاء القصائد التي نظمها الشُّعراء في البكاء على الإمارات والدول البائدة،والعمران الزّائل،والمجد الغابر.»[310]

و عن وجوده في شعر بلاد المغرب الأوسط،فيمكن القول إنه عرف منذ بداية أول دولة أُسِّست على أرضه؛ففي عهد الدولة الرُّستمية نجد من الشعراء الذين نظموا في هذا الغرض شاعر تاهرت الأول في ذلك الزمان بكر بن حماد الذي قال قصيدة من أجمل قصائد الرثاء في ولده عبد الرحمن الذي قُتل في طريق عودتهما إلى تاهرت وعلى مشارفها من مجموعة من اللصوص؛ قطاع الطرق،ومنها هذه الأبيات وفيها يقول(من الوافر):

بكيتُ على الأحِبَّة إذْ تَوَلَّوا
ولو أني هلكْتُ بكوا عليَّا
فيا نسْلي بقاؤك كان ذُخراً
وفقدك قد كوى الأكباد كيّا
كفى حُزْناً بأني منك خلوٌ
وأنَّك ميتٌ وبقيتَ حيّا
ولم أك آيساً فيئست لما
رميتُ التُّرب فوقك من يديّا [311]

و في القصيدة تفجع الشاعر مما ألم به من فقد ولده وهو في خريف العمر فزاده إلى ذلك مرارة على مرارة،لذلك فهو يبكيه بحرقة الوالد الطاعن في السن، ومن السمات البارزة في هذه القصيدة استعمال

---

310. جبور عبد النُّور، المعجم الأدبي،مرجع سابق،ص 121/120.

311. محمد بن رمضان شاوش،الدر الوقاد(ديوان شعر)،مرجع سابق،ص89.

الشاعر لأفعال من شاكلة:بكى،دعا،كوى،كفى،كان،رمى، طوى،بقي،جلا،دار،ومما يلفت النظر فيها أنها كلها أفعال معتلة،ولعل في ذلك دلالة واضحة على ما أصاب الشاعر وألمَّ به ؛فهو عليل مكلوم يعاني آلام الفقد.

ومع ذلك يضمن قصيدته ما يدلُّ على حكمة الرجل وتجربته في الحياة و رضاه بقضاء الله تعالى النابع من معرفته بدينه،ويعزِّزُ هذا مقطوعة أخرى تُروى له في رثاء ولده هذا،جاء فيها(من الطويل):

و هوّن وجدي أنّني بك لاحقٌ وأنَّ بقائي في الحياة قليل
وأنْ ليس يبقى للحبيب حبيبهُ وليس بباقٍ للخليل خليلُ
ولو أنَّ طول الحزن مِمَّا يردُّه للازمني حُزْنٌ عليه طويلُ (312)

وكأن بكر بن حماد في الأبيات السالفة يشعر بدنو أجله – وهو ما كان فعلا فقد لحق بولده بعد مدَّة قصيرة– بعد وفاة فلذة كبده مما يهوِّنُ عليه مصيبته،وأن بقاء الأحبة والخلان مستحيل،كما أن الحزن لا يرد من غيّبهم الموت لأنه مصير كل حيٍّ،وإلا فإنَّ شاعرنا كان يلازمه الحزن الطويل على ولده.

و لمحمد بن الحسين الطبني،قصيدة في رثاء ابن أبي عامر عن حسن بن أحمد المقتول يقول فيها(من بحر البسيط):

لا شَكَّ أنَّ سِجال الحربِ مُختلِفٌ
فيما روى النّاسُ مُذْ كانوا ومذ عُرفوا
هوِّنْ عليكَ فنصرُ اللهِ يعْقُبُهُ
ياربّ كَرّه إلى المحبوب ينصرفُ
ياغُرَّةَ السَّعْدِ الميمون طائرهُ
لا تكْتَرِث فإليكَ النَّصْرُ ينْعَطِفُ
لو هلكَ النّاسُ لا يُنَغِّصُك هَلْكُهُمْ

312 . المرجع السابق، ص89.

فأنت وحْدكَ عنهم كلُّهُم خلَفُ

لله عندك عادات سيُكَمِّلُها

فعادةُ اللهِ قَسَمٌ ليس ينْحرِفُ

كم قد رأينا الذي لا يرْتضِي سبباً

إلى رِضى بجميل الصُّنْعِ يأتَلِفُ (313)

كما أن لعبد الكريم النهشلي شعراً في الرثاء،يرثي به عيسى بن خلف صاحب خراج المغرب،يقول فيه (من بحر الطويل):

منايا سَدَدْتَ الطُّرُقَ عَنْهَا ولم تدَعْ

لها ثنايا شَاهِقٍ مُتطلَّعا

فلمّا رأتْ سورَ المهابَةِ دونَهَا

عليك ولما لم تجد فيك مطمعا

ترقَّت بأسباب لطاف ولم تكد

تواجه موفور الجلالة أروعا

فجاءتك في سِرِّ الدواء خفيَّةً

على حين لم تحذؤ لداء توقُّعا

فلم أرَ ما لا يُتَّقى مثل سهمها

ولا مثلها لم تخْشَ كيْداً فترجعا (314)

ولابن رشيق في الرثاء شعر جميل مما يرثي به الأمير أبا منصور نزار بن المعز يقول فيها(من بحر الطويل):

ألم ترهمْ كيف استقَلُّوا به ضُحىً

---

313. مؤلف مجهول،مفاخر البربر،تح عبد القادر بوباية،دار أبي رقراق للطباعة والنشر،ط1، 2005م،ص113.(ينظر أيضا: إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر لمحمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، ص49.)

314. الحصري،زهر الآداب وثمر الألباب،تح محمد محي الدين عبد الحميد،ج1،دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت لبنان،ط4،د ت، ص260/259.

إلى كنفٍ من رحمةِ الله واسعِ

أمام خميسٍ ماجَ في البَرِّ بحرُهُ

يسيرُ كمتن اللُّجَّةِ المتَدافعِ

إذا ضُرِبتْ فيه الطُّبولُ تتابعتْ

به عَذَبٌ تحكي ارتعاد الأصَابعِ

تجاوُبَ نَوْحٍ باتَ يُندبُ شجوُهُ

وأيدي ثكالى فوجئتْ بالفواجعِ (315)

وهي مقطوعة كما يشير ابن رشيق،أن أبا الحسن علي بن القاسم اللّواتي قد أبدى استحسانه لمعنى البيتين الأخيرين منها،وهي تصور جنازة الأمير التي حضرها جمع غفير من الناس شبههم ابن رشيق بالجيش العظيم وشبه الجيش باللجة المتدافعة.

كما رثى ابن رشيق خلانه وشيوخه والأمراء الذين كانوا أولياء نعمته،ومنهم المعز بن باديس الذي ننقل جزءً مما يقول في رثائه:

ولّى المعزُّ على أعقابه فرمى

أو كاد ينهدُّ من أركانه الفلك

مضى فقيدا وأبقى في خزائنه

هام الملوك وما أدراك ما ملكوا

ما كان إلا حُساماً سلَّه قدر

على الذين بغوا في الأرض وانهمكوا

كأنَّه لم يخضْ للموت بحر وغى

خضر البحار إذا قيست به برك (316)

---

315. ابن رشيق،قراضة الذهب في نقد أشعار العرب،تحقيق الشاذلي بويحي،دط،الشركة التونسية للتوزيع1972م،ص 13.(الخميس:الجيش ويعني به من مشى وراء الجنازة،عذَب:واحدته العَذَبةُ:طرف العمامة يسدل بين الكتفين

316. ابن رشيق،الديوان،جمع وترتيب عبدالرحمن ياغي،دار القلم بيروت،د ط،1409هـ/1989م،ص 139/138.

وهو في هذه الأبيات يرى أن موت المعز انهدَّ أو كاد ينهدُّ له الفلك،وهو رغم فقده باقٍ،وما كان في حياته إلاَّ سيفاً سلَّطه القدر على رقاب الظلمة،وقد مضى الآن ميتاً وكأنه لم يخض الحروب وبحارها التي لم تكنْ سوى بِرَكٍ بالنظر إلى ما خاضه منها.

ولابن حمديس الصقلي شعر في رثاء القائد الصنهاجي أبي الحسن علي بن حمدون،يقول فيه(من بحر الطويل):

بكى فقدَكَ العِزُّ المؤيَّدُ والمجدُ
وناحتْ عليك الحرف والضُّمرُ الجردُ
وقد ندبتْك البيضُ والسُّمرُ في الوغى
وعدَّدك التأييدُ والحسَبُ العدُّ
وما فقدت إلاَّ عظيما و فقدُه
به بين أحشاء العلى يوجد الوجدُ (317)

والقصيدة مصرَّعة،تشتمل على سبعة وثلاثين(37) بيتاً يذكر فيها الشاعر خصال القائد ومناقبه ويبكيه بأدمع سخية،واصفاً شجاعته واستبساله في ميدان الوغى،وكيف يقود جنده شهامةً،ثمَّ نراه يعرِّجُ على ذكر جوده وكرمه العميم ونواله العظيم إذا قصده القاصدون ونزلوا به،ولا ينسى بيان ما لذلك القائد من حكمة وسداد رأي يقودان إلى الهدى والفتح.

وجدير بالملاحظة في العهد الأغلبي أنَّ«خاصيَّة هذا الرثاء تتمثَّلُ في كونه قد صنع في قسم كبير منه في رثاء العلماء والفقهاء وقد لفت نظرنا غياب المراثي في الأمراء والوزراء،فلم نعثر على قصائد في رثائهم و لا حتَّى على إشارة تفيد بأنَّ الشُّعراء قد خصُّوا أمراء بني الأغلب ببعض الأشعار الرِّثائية،وتعريفنا بالأعلام قد ساعدنا على معرفة أحد أسباب إعراض الشُّعراء عن مدح الأمراء

317. ابن حمديس،الديوان،مرجع سابق،ص181/180.

ورثائهم.فأغلب الشعراء كانوا زهاداً صالحين وفقهاء سُنِّيين، وكانت لهم هيبة تجلب لهم الاحترام و وقار يربأُ عن ''دني المكاسب''،زيادةً على اعتقادهم بأنَّ صبرهم على فقرهم وخصاصتهم يُقوِّي إيمانهم و يُقريهم أكثر من الفضيلة.فلم يمدحوا ولم يتزلَّفوا حتَّى لا تُلهيهم الدُّنيا عن ذكر الله،ولم يرثوا الأمراء الأموات لبُعد الكثير منهم عن حياة البلاطات واستنكافهم عن مخالطة أهلها.»[318]

ومن اللافت للنظر أن شعراً من نوع آخر ظهر في مراثي أهل المغرب ؛هو فن رثاء المدن،و إن كان هذا الفن قد ظهر في العصر العباسي كما يؤكد بعض الباحثين «و ظهرت ضروب جديدة في الرثاء لم تكن معروفة قبل هذا العصر،من ذلك رثاء المدن حين تنزل بها كوارث النهب والحرق، وكان الجيش الذي أحاط ببغداد قبل مقتل الأمين رماها بالمجانيق فاندلعت فيها النيران واحترقت بعض الأحياء،وعمَّ فيها نهب الأموال و قتل الأبرياء ،مما جعل كثيرين من الشعراء يبكونها،وقد غمرهم الحزن والأسى.»[319]

و من أهم الشعراء العباسيين الذين طرقوا هذا اللون نجد،ابن الرومي الذي رثى البصرة العراقية جراء ما لحقها من دمار وحرق على أيدي الزنج، واصفاً فداحة ما حلَّ بها من ذُلٍّ وهوان وفي نفس الوقت مستصرخا الناس لحرب الزنج و الذود عن حياض الإسلام التي استُبيحتْ،وفي مستهلها يقول:

ذادَ عن مُقلتي لذيذَ المنام
شغلُها عنه بالدُّموع السِّجام [320]

وببدو ابن الرّومي صادقا في توجعه وتفجعه مما أصاب البصرة في تلك الكارثة التي حلَّتْ بها،فقد « ندب المدينة ندباً حارّاً،و توجّع لما نزل بها من تلك الكارثة التي لا تكادُ تتخيَّلها

---

[318]. محمد المختار العبيدي،الحياة الأدبية بالقيروان في عهد الأغالبة،مرجع سابق، ص 359/358.
[319]. شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الأول– ،ط16، دار المعارف ،القاهرة، 2004م،ص174.
[320]. ينظر:شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي– العصر العباسي الأول– مرجع سابق،ص 217وما بعدها.

الأوهام،يقول:

دخلوها كأنَّهم قطع اللَّيـ ـل إذا راح مدلهم الظلام

كم أغصُّوا من شارب بشرابٍ كم أغصُّوا من طاعم بطعام

أما رثاء المدن في المغرب الأوسط فنجد أول من قال فيه الشاعر بكر بن حماد في رثاء تاهرت بعد تخريبها(من بحر البسيط):

زرنا منازلَ قومٍ لم يزورونا

إنّا لفي غفلة عمَّا يقاسونا

لو ينطقون لقالوا:الزاد ويحكم

حلَّ الرحيل فما يرجو المقيمونا

الموت أجحف بالدُّنيا فخرَّبها

وفعلنا فعل قوم لا يموتونا

فالآن فابكوا فقد حقَّ البكاء لكم

فالحاملون لعرش الله باكونا

ماذا عسى تنفع الدُّنيا مجمعها

لو كان جمع فيها كنز قارونا (321)

ويبدو بكر بن حماد في هذه الأبيات ناصحا معتبرا بمن سبقوا إلى الدار الآخرة،ناطقا باسمهم يقدم النصيحة لأهل الدنيا محذرا من بغتة الموت والرحيل دون زاد،ظنّاً منهم أنهم سيخلدون في الحياة،فيشغلهم الجمع الذي لو كان نافعا لنفع قارون قبلهم.

كما نجد شاعرا آخر مجهول الاسم يرثي مدينة تاهرت بعد تخريبها وهدمها من قبل العبيديين،قائلا (من بحر الطويل):

خليليَّ عوجا بالرُّسوم وسلِّما

321. بكر بن حماد،الديوان،مرجع سابق،ص 90.

على طلل أقوى وأصبح أغبرا

ألما على رسم بتاهرت دائر

عفتْهُ الغوادي الرّائحات فأقفرا

كأنْ لم تكن تاهرت داراً لمعشر

فدمَّرها المقدور فيمن تدمّرا (322)

وفيي الأبيات يستوقف هذا الشاعر صاحبيه – على عادة الشعراء القدامى– ويطلب منهما المرور بتاهرت والتسليم على أطلالها التي خلت من أهلها وأصبحت آثاراً و رسوما دارسة أزيلت فأقفرت كأن لم تكن يوما من الأيام موجودة وداراً يسكنها أهلها،فدّمِّرت و اندثرت من الوجود.

ولابن رشيق المسيلي القيرواني قصيدة في رثاء مدينة القيروان بعدما حلَّ بها الدّمار على أيدي الهلاليين الذين حاصروها و خرَّبوها،فكان لذلك أثره البالغ على أهلها وخاصة الشُّعراء الذين راحوا يندبونها بقصائدهم ويخلِّدون ذكرها على مرِّ الأزمان والعصور،ومن هذه القصيدة نقتطع هذه الأبيات الباكية،وهي قصيدة طويلة النفس تصورُّ مأساة القيروان وما جرى لأهلها من تعذيب وسبي و تخريب،وأهوال جسيمة عظيمة الأثر في النفوس، وهي (من بحر البسيط):

حسنتْ فلمّا أنْ تكامل حُسنُها وسما إليها كلُّ طرف ران

و تجمَّعتْ فيها الفضائل كلُّها وغّدَتْ محلَّ الأمن والإيمان

نظرتْ لها الأيّام نظرة كاشحٍ ترنو بنظرة كاشح معيان

حتَّى إذا الأقدار حمَّ وقوعها و دنا القضاءُ لمدّةٍ وأوان

322. ابن عذارى، البيان المغرب،ج1،مرجع سابق،ص 199.(أقوى:خلى من ساكنيه، عفته:أزالته ومحته،الغوادي الرائحات:الأمطار)

أهْدت لها فِتناً كليلٍ مظلمٍ وأرادها كالناطح العيدان

بمصائب من دفاع وأشالب مِمَّن تجمَّع من بني دهمان

فتكوا بأمَّة أحمد أتُراهم أمنوا عقاب الله في رمضان

نقضوا العهود والمبرمات وأخفروا ذمم الإله ولم يفوا بضمان

فاستحسنوا غدر الجوار وآثروا سبي الحريم وكشفة النّسوان

ساموهم سوء العذاب وأظهروا مُتعسِّفين كوامن الأضغان

والمسلمون مقسّمون تنالهم أيدي العُصاة بذِلَّةٍ و هوان

مابيت مضطر وبين معذَّبٍ ومُقتَّلٍ ظلماً وآخر عان

يستصرخون فلا يُغاثُ صريخُهم حتّى إذا سئموا من الأرنان

خرجوا حُفاةٍ عائذين بربِّهم من خوفهم ومصائب الألوان

هربوا بكلِّ فطيمة و وليدةٍ وبكلِّ أرملةٍ وكل حصان

والمسجدُ المعمور جامع عقبة خرب المعاطن مُظلمُ الأركان

قفرٌ فما تغشاه بعدُ جماعةُ لصلاةِ خمسٍ لا ولأذان (323)

يقول عن هذه القصيدة أحدهم:«قصيدة رائعة تدلُّ على طول نفَسِ الشاعر وقدرته على تصوير

323 . ابن رشيق،الديوان،مرجع سابق،ص 207 وما بعدها.

إحساساته لهذه النَّكبة وحسراته على هذه العاصمة التي كانت تُنافس بغداد وقرطبة عِزَّةً وازدهاراً.فأصبحت عرضةً للظُّلم والفساد والهوان،وقد أزعجت هذه النكبة أصحابه ابن شرف والحصري و عبد الكريم بن فضال فبكوا قيروانهم بشعر رقيق.»[324]

و هذا يُظهر أن رثاء المدن قد اشتهر وانتشر ببلاد المغرب الأوسط،وربَّما يكون كثيرا،ولكن ما وصلنا منه قليل جدا،لا يعطي صورة واضحة عن هذا اللون من الرثاء،وقد يعود انتشاره واشتهاره في الأندلس بسبب الشعراء المغاربة،ذلك أن شعراء الأندلس رثوا مدنهم بعد سقوط ممالكهم بها والمحنة التي ألمت بالمسلمين بعد أن أغار عليها القشتاليون واستباحوا حرمات أهلها و قاموا بتنصيرهم.

الزهد:

من الأغراض التي عرفت في الشعر المغربي القديم شعر الزُّهد،وهو لون عرف منذ العصر العباسي،واشتهر فيه شعراء كثيرون لعل من أشهرهم أبا العتاهية الشاعر العباسي،وقد كان لشعراء المغرب الأوسط كلمتهم في هذا الغرض،خاصة الشاعر بكر بن حماد التاهرتي الذي له قصائدة جميلة في هذا اللَّون تنبئ عن مقدرة فائقة،وتجربة وحنكة في الحياة مكَّنت الرجل من أن يُقدِّم خلاصة ذلك في أبيات نظمها،وضمَّنها ما أكسبته الحياة فيها من تجارب وعظات،ومن ذلك وقفته بالقبور التي يقول فيها (من البسيط):

قف بالقبور فنادِ الهامدين بها
من أَعْظُمٍ بليت فيها وأجساد
قوم تقطَّعت الأسباب بينهم

---

[324]. محمد الطمار،تاريخ الأدب الجزائري،مرجع سابق،ص130.

من الوصال وصاروا تحت أطواد

راحوا على الأقدام جميعا وابتكروا

فلن يروحوا ولن يغدو لهم غاد

والله لو رُدوا ولو نطقوا

إذاً لقالوا التُّقى من أفضل الزّاد ((325))

وفي القصيدة التي منها هذه الأبيات يتحدث بكر بن حماد عن رحلة الإنسان في هذه الحياة وكيف أنها لا تطول به حتى تنقضي سريعا،ويذكِّرُ نفسه و الناس أن الجميع يقف منتظراً دوره في الرحيل،و أنَّ الموت يهدم ما بناه البشر،وقد وظف الشاعر فيها بعض المحسنات اللفظية كالطباق في يروحوا،يغدو،كما أنَّ الشَّاعر في النص قد زاوج بين الخبر والإنشاء مستعملا الأمر(قِفْ، نادِ)،والاستفهام (أين؟)والنداء (يابكرُ).

وفي الديوان،أيضاً قصيدة أخرى للشاعر حول الموت وهي من بحر الطويل،يقول في مطلعها:

لقد جمحت نفسي فصدَّتْ وأعرضتْ

وقد مرَقَتْ نفسي فطال مروقها (326)

وفيها تذكير بالحساب والقصاص وما ينتظر الإنسان بعد رحيله عن الحياة الدُّنيا وزوال ما فيها من نعمٍ.

كما نجدُ لشعراء آخرين بعض الأبيات أو المقطوعات تتناول الزهد والوعظ والدعوة إلى خشية الله،وتنبئ عن حكمة قائلها منها قول علي ابن :

أَمْنُ الزَّمانِ زَمَانَةُ العقل فاخش الله وحُلَّ عن الجهلِ

---

325. محمد بن رمضان شاوش،الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد،مرجع سابق،ص80.

326. نفسه،ص 78.

واعلم أنَّك في الحساب غداً تُجزى بما قدَّمت من فِعلِ [327]

وفي البيتين خلاصة تجربة الشاعر التي يدعو فيها إلى خشية الله والابتعاد عن الجهل،ويبيِّن أن الإنسان محاسبٌ على أفعاله ومجازىً بما قدَّمت يداه،غلب على أسلوبها الإنشاء فاستعمل الأمر لغرض إسداء النُّصح و التحذير للمتلقِّي.

ومما لا حظه الدارسون على العهد الأغلبي أنَّ«أغلب الأشعار التي قيلت في عصر الأغالبة كانت في غرض الزهد،وهو الغرض الذي عَرف في القرن الثاني للهجرة بالمشرق نُضجاً وازدهاراً لا نظير لهما.ولعلَّ ما يُلفت النظر في هذا الصدد هو أنَّ القيروان التي لم يمضِ وقتٌ طويلٌ على تعريبها واعتناق أهاليها الإسلام قد بدتْ على استعداد كبير لهضم الثقافة العربية عامةً والفنون الأدبية بصفةٍ خاصة.

ففي فترة يقوى فيها تيار الزهد بالمشرق وتكتمل عناصر الزهدية بفضل أشعار صالح بن عبد القدوس(ت 176هـ/783م) وعبد الله بن المبارك (181هـ/797م)وأبي العتاهية (210هـ/825م) وهم بعض أساطين شعراء الزهد بالمشرق،نقف على أسماء شعراء كثيرين بإفريقية ينتشر على أيديهم تيار الزهد بالقيروان ويضربون بسهمٍ في هذا الباب الجديد من أبواب الشعر،فيقرأ الدارس في القرن الثاني المقطوعات الجيدة... ويظلُّ يذكر الشعر الروحي ومراثي الصالحين الطويلة وأبا عقال غلبون بن الحسن بن غلبون الصوفي العربي الأصل وأحمد بن سليمان المولى وبكر بن حماد الزناتي.»[328]

و نخلص إلى نتيجة مفادها أنَّ تيَّار الزُّهد في العهد الأغلبي « كان قويا في القرنين الثَّاني والثّالث للهجرة وأنَّ غرض الزُّهد لم يكن مجرَّد صناعة من الصِّناعات المستحدثة رغم كونه فنِّياً مُستجلباً من المشرق، فقد خاطب شعراء الزُّهد الإفريقيون بأشعارهم أنفسهم قبل أن يخاطبوا بها قرَّاءهم وسامعيهم

---

[327] . ابن رشيق، العمدة،مرجع سابق،ص111.(زمانة:عاهة.)

[328]. محمد مختار العبيدي،الحياة الأدبية بالقيروان في عهد الأغالبة،مرجع سابق،ص 325/234.

واستجابوا بها إلى أذواقهم ومشاعرهم الخاصَّة قبل أن يستجيبوا بها إلى ذوق الجمهور ومشاعره،ولم يستنْشِدهم إيّاها الأمراء الأغالبة كما كان الأمر بالنسبة إلى كثير من أشعار الزُّهد بالمشرق،التي كانت تُستنْشد استجابةً لرغبة الخُلفاء وجمهور المسلمين على السواء.»[329]

وقد حفلت زهديات هؤلاء الشُّعراء بالاقتباس من القرآن الكريم و توظيف ألفاظه وأساليبه،مما ألبس تلك الأشعار جمالاً و رونقاً إضافةً إلى تأثيرها في نفوس المتلقِّين.

ولابن حمديس الذي اتصل بالحماديين في هذا الغرض أشعار جميلة،يقول في إحداها:

وُعِظتُ بلمَّتك الشَّائبهْ وفقْد شيبتك الذّاهبهْ
وسبعين عاماً ترى شمسها بعينك طالعةٌ غاربهْ
فويحك هل عبَرَتْ ساعةٌ ونفْسُكَ عن زّلَّةٍ راغبهْ [330]

وهي قصيدةٌ تتألف من خمسة عشر بيتا(15)،يبكي فيها الشاعر تفريطه،ويُوجِّه اللَّوم لنفسه التي ذهب شبابُها في الأماني الكاذبة وتأجيل التَّوبة في كلِّ مرَّة،ويتأسَّفُ على الذُّنوب التي ارتكبها في الصِّبا،ويختم القصيدة برجاء درْءِ العقاب من الله تعالى،وإلاَّ فإنَّ العاقبة مذمومة،والقصيدة مُصرَّعة،تخلَّلها بعض المحسنات مثل الطباق في (طالعه/غاربه) .

ومجمل القول إنَّ الشعر المغربي عموما،لا يخلو من قصائد الزهد،ومن قصائد الحكمة والمواعظ التي تمثِّلُ خلاصة تجارب عاشها أصحابها،وأخرجوها في قالب شعري جميل.

أغراض أخرى:

عرفت إلى جانب الأغراض المذكورة آنفا،أغراضٌ أخرى إلا أنَّ القصائد أو المقطوعات التي بقيت

---

[329]. نفسه،ص 330.

[330] . ابن حمديس،الديوان،مرجع سابق، ص65.(اللمَّة: شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن.)

منها قليلة وقليلة جداً،وقد يعود هذا إلى خلوِّ الشعر المغربي عموما وشعر المغرب الأوسط خصوصاً منها،أو أنَّ جلَّ ما قيل في هذه الأغراض لم يصلنا لسبب أو لآخر.ومن الأغراض التي صادفتنا فيها أبيات قليلة:

وصف مجالس الخمر والمجون: وما يدور فيها؛منها ما نقله ابن سعيد عن أبي الحسن علي بن عبد العزيز بن زيادة الله بن أبي مضر الطبني،الذي له في الخمرة أبيات يصف فيها إحدى الجلسات قائلا:

لا تسقني إلا بكأْسٍ إذا
شَرِبْتُها تملكُ عقلي جميعْ
و زادكَ اللهُ سُروراً إذا
سقيتني بالجام أو بالقطيعْ
لا تُرْفَعُ الخمرُ إلى مدَّةٍ
أولَى وأحلى من زمان الرَّبيعْ (331)

و في الأبيات يطلب الشاعر من ساقيه أن يسقيه خمرا يأخذ عقله جميعا ويغيبه عن الوعي،ويدعو له بالسرور إذا ما سقاه في إناء أو بتتابع نفَسٍ،ثم يبين الزمان المفضل لشرب الخمر وهو فصل الربيع.

وفي الخمرة كذلك أبيات ذكرها صاحب كتاب حياة القيروان،وهي ليعلى بن إبراهيم الأريسي،وفيها يقول(من بحر البسيط):

إياة شمس حواها جسم لؤلؤة
تغيّب من لطف فيها ولم تغب
صفراء مثل النضار السكب لابسة

331. ابن سعيد،المغرب في حلى المغرب،الجزء الأول،مررجع سابق، ص92.(الجام:إناء للشراب من فضة أو نحوها.)

درعاً مكلّلة دُرّاً من الحبب

لم يترك الدّهرُ منها غير رائحة

تضوَّعت وسنا ينساحُ كاللَّهب

إذا النَّديمُ تلقّاها ليشربها

صاغت له الراحُ أطرافاً من الذَّهب (332)

ولما سمع الأبيات المذكورة أعلاه ابن رشيق أبدى رأيه فيها،و هو«يرى – ويريد الاشتطاط فيما يرى– أنَّ الصَّنعة ناقصةٌ و أنَّ المعنى مسروق وفيه تنافرٌ،وأنْ لو ذكر الياقوتة مع اللؤلؤة لكان أتمَّ تصنيعاً وأحسن ترصيعاً،كمل في قول أبي تمام:

أو وردة بيضاء بكر أطبقت حبلاً على ياقوتة حمراء

وأنْ لو ذكر روح الخمر مع حب اللؤلؤ – الكأس– لكان ذهب إلى شيءٍ عجيبٍ غريبٍ كما قال ابن المعتز ويُروى للقاضي التنوخي:

وراحٍ من الشمس مخلوقة بدتْ لك في قدح من نهار

أمَّا قوله :تغيب من لطف فيها ولم تغِبْ،فهو من قول البحتري:

يُخفي الزُّجاجةَ لونُها فكأنَّها في الكأس قائمة بغير إناءِ

أمّا البيت الثاني فيقول ابن رشيق إنَّه أكثر من أن ينبِّهَ عليه،وأمَّا الثالث فيذكر أنَّه من قول ابن المعتز:

أبقى الجديدان من موجودهما عدما

لوناً ورائحةً في غير تجسيم

ويذكُر أنَّ البيت الأخير من قول مسلم بن الوليد:

أعارت على كفِّ المدير بلونها فصاغت له منها من ذبل

ومن قوله أيضاً:

---

332. عبد الرحمن ياغي، حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها،مرجع سابق،154.

إذا مسَّها السّاقي أعارتْ بنانهُ

جلابيب كالجاديّ من لونها صفرا

ثُمَّ يقول ليعلى إن في البيت عيباً يقال له التَّوكؤ وهو تكرير ذكر الرَّاح وهو مُستغنٍ عنها.فهو يستطيع أن يقول:صاغت ليمناه أطرافا من الذَّهب.»[333]

و في كتاب العمدة،وحول موضوع الخمرة دائما ينقل ابن رشيق أبياتاً لعلي بن أبي الرجال يدعو فيها إلى اغتنام فرص الملذات قبل هجوم هادم اللذات،وفيها يقول (من بحر الطويل):

باكِرِ الرّاح ودعْ عنك العذل

واَسْعَ في الصِّحة من قَبْل العلل

واغتنم لذّةَ يومٍ زائلٍ

فالمنايا ضاحكات بالأمل

ما ترى السّاقي كشمس طلعتْ

تحمِلُ المرِّيخ في برج الحَمَل

مائساً كالغصن في دعس

فاتنَ المقلة زُيِّنتْ بالكحل [334]

وفي الأبيات دعوة صريحة من الشاعر إلى معاقرة الخمرة ومباكرتها واجتناب اللوم فيها،واغتنام الصحة قبل العلل،واغتنام لذات الأيام الزائلة قبل الموت،وفيها وصف للساقي الذي يشبهه بالشمس و الغصن اللين،يتمايل في مشيته جميل المقلة،وهو وصف كما يبدو يليق بالمرأة أكثر من الرجل.

---

[333]. عبد الرحمن ياغي،حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها،مرجع سابق،ص 339/340.

[334]. ابن رشيق،العمدة في محاسن الشعر ،وآدابه،ونقده،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد،الجزءالثاني،مرجع سابق،ص 110.

ولابن رشيق أيضا في شعر الخمر الكثير،وقد عُرف عنه أنه كان يتردَّدُ على المخامر التي وُجدت في زمانه وله ندماء،يؤكد ذلك أحد الباحثين في قوله:«وفيما وصل إلينا من مقتطفات شعرية لابن رشيق نجد الخمر تحتلُّ مكاناً بارزاً؛ومهما يكن في الأمر من تقليد في وصفها،إلاَّ أنَّ الإقبال عليها والقول فيها يدُلُّ على أنَّ القوم قدْ ألِفوها وألِفوا ما يُقالُ فيها:فصاحبنا مفتونٌ بالمدامة من غير أن تُمزج؛فهو يريدها صِرْفةً:

قلْتُ لمن ناولني مزةً ... ما بي حُبُّ الغيد بل حبُّها
لا تسْقِني الراح ممزوجةً ... واشرب فمايمككنني شربها
ما راحتي في الرّاح إن غُيِّرتْ ... دعها كما جاء بها ربُّها» (335)

ولئن كان قال في الخمر وطلب شربها صافية غير ممزوجة فإنه أيضا «قال في تعتيقها؛و وصف حبابها الذي يعلوها، و وصف الكؤوس والزُّجاجات،والقهوة(*) التي تحيل البخيل كريماً.»(336)

ونجد مثالا آخر لهذا الغرض عند أبي بكر الداني المعروف بابن اللُّبانة – وهو شاعر أندلسي و نزيل بجاية – في قصيدة يصف فيها مجلس منادمة وطرب،وهي عبارة عن موشح من المجتث،نقتطف منها هذه الأبيات التي تتحدث عن المجلس ومدينة تلمسان التي أقام بها مدَّة من الزمن،يقول فيها:

فانهض إلى الدُّن واقبل ... منه سؤال الرَّحيق
و فُضَّ منه ختامه ... عن مثل مسك مختَّم
تكاد منه المدامة ... للشُّرب أن تتكلم

إلى أن يقول:

فاسمع من العود سجعا ... تشق منه الغلايل
اسم ما رنَّمته حمامه ... من فوق غصن منعم
حيَّا النَّسيمُ تلمسان ... بواكف القطر هطّال

335 . عبد الرحمن ياغي،حياة القيروان و موقف ابن رشيق منها، مرجع سابق،ص297.
336 . نفسه،ص 331.
* . القهوة:اسم من أسماء الخمرة.

فقد قضت كلَّ إحسانْ بجودها بابن شملال [337]

والحقيقة أن أبيات هذا الموشح تتجاوز العشرين بيتا تتعرض إلى وصف المجلس و وصف الشرب فيه،والطرب الذي كان يُغنَّى في ذلك المجلس،وتعطي صورة ولو مصغرة عن تلك الفترة وما كان يدور فيها من مجالس اللهو والشرب والطرب، التي اشتهرت بها بلاد الأندلس،ونقلت إلى بلاد المغرب.

وهذا اللون من الشعر كما سبقت الإشارة إلى ذلك،مقارنة بغيره من الأغراض قد يكون هو أقلها حضورا في الشعر المغربي عموما،لِما عُرف عن المغاربة من محافظة وتمسُّكٍ بالدين والأخلاق في تلك العهود.

ولم يقف إبداع أدباء المغرب الأوسط عند هذه الأغراض فحسب،بل إن أغراض الشعر العربي التي نظم فيها القدامى والمحدثون لها وجود في شعر هؤلاء،إلا أن ما بقي من تلك الأشعار قليل جدا؛ ومن تلك الأغراض أيضا العتاب والتبرم من الحياة والتشكي من أحوال الناس وفقد الثقة وإسداء المواعظ والنُّصح لمن هو في حاجة إليه،والتَّشوُّق إلى الأهل [338]،وغيرها.وفيما يلي نقدم أمثلة من ذلك،فمن شعر العتاب نقرأ ما كتيه يعلى بن إبراهيم الأريسي حين حُجِب عنه الفضل جعفر كاتب المعز،فقال (من بحر الوافر):

أتيتك زائرا فحُجبت عنِّي
ولم يعرف مكانك بالحجاب
فلا تحسب أنني ذو اغتنام
لأكل عند مثلك أو شراب
فلي نفسٌ على اللأواء قرَّت
جوانبها وتقنع بالتُّراب
وتطمع في ذرا الخيلاء كبراً

[337]. ابن شاكر،فوات الوفيات والدليل عليها،المجلد الرابع،مرجع سابق ،ص 31/30.
[338]. ينظر من هذا البحث ص،146 زما بعدها.

إذا سيمت بضيق الاكتساب

ولولا أنَّ في خلقي اتِّنادا

تركتك بعدها خلق الإهاب

ولكني رأيت الصَّبر أولى

بمثلي فانصرفت إلى العتاب (339)

وفي العتاب أيضا يقول ابن رشيق في قصيدة نقتطف منها هذه الأبيات (من الطويل):

وقد كنتُ لا آتي إليك مُخاتلاً

لديك ولا أُثني عليك تصنُّعا

ولكن رأيت المدح فيك فيضةً

عليَّ إذا كان المدح تطوُّعا

فقمتُ بما لايخفى عنك مكانه

من القول حتَّى ضاق ممّا توسَّعا

ولو غيرك الموسوم عني بريبة

لأعطيتك منها مُدَّعى القول ما ادَّعى

فلا تتخالجك الظنون فإنَّها

مآثم واترك فِيَّ للصُّنع موضعا

فوالله ما طوَّلت باللَّوم فيكم

لساناً ولا عرَّضت للذمِّ مسمعا (340)

وهي قصيدة تطهر مكانة المعاتب عند الشاعر حتى إنه ليرى مدحه فرضا عليه إن كان عندغيره تطوُّعا،وأنه إنما كان يأتيه حبّاً لا تصنُّعا، ويقسم له بالله أنَّه ما طال لسانُه في لومه ولا عرَّض له بالذّمِّ،ولكنه يرى أن مدح هذا الصديق فيض خير عليه إذاكان المدح منه تطوُّعاً،كما يدعوه إلى ألا تخالجه الظنون به، فليس ذلك من شيمه.

---

339. عبد الرحمن ياغي،حياة القيروان و موقف ابن رشيق منها،مرجع سابق،ص157.

340. ابن رشيق،العمدة،الجزء2، مرجع سابق،ص

الفصل الثاني:

الأجناس النثرية

الخطب والوصايا:

تعتبر الخطابة من أقدم الفنون النثرية التي عرفتها آداب كل الأمم؛ومنها الأمة العربية التي عرفت بفصاحة اللسان والتحكم في البيان،ومنذ العصر الجاهلي اشتهر عديد الخطباء الذين بقيت خطبهم شاهدة على ما بلغوه في مضمار الخطابة والتأثير في المتلقي «وقد استخدموها في منافراتهم و مفاخراتهم بالأحساب والأنساب والمآثر والمناقب،كمنافرة علقمة بن علاثة و عامر بن الطفيل إلى هرِم بن قطبة الفزاري ومنافرة القعقاع بن معبد التميمي وخالد بن مالك النهشلي إلى ربيعة بن حُذار الأسَدي واستخدموها في الحضِّ على القتال وبعث الموجدة في نفوس قبائلهم ودفعها إلى نيران الحرب و تراميهم في أوارها كأنهم الفراش.»[341]

ولم تكن الخطابة مقصورة على الحض على الحروب والقتال والتفاخر والتنافر،بل كانت أيضا لأغراض أخرى « وكما كان يدعو خطباؤهم إلى الحروب وسفك الدماء،كانوا يدعون إلى الصُّلح وإصلاح ذات البين و أن تضع الحربُ أوزارها ...وكانوا يخطبون في وفادتهم على الأمراء،إذْ يقفُ رئيس الوفد بين يدي الأمير من الغساسنة أو المناذرة، فيحييه،متحدِّثاً بلسان قومه ...»[342] وكانت خطبهم متعددة الأغراض فمنها ماكان للنُّصح والإرشاد ومنها ماكان لخطبة النساء وغير ذلك، وتراوحت الخطب بين الطول والقصر بحسب الموضوع ،و ازدهرت في العصر الجاهلي وشاعت بين القبائل، وكان لكل

---

341 . شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي . العصر الجاهلي،دار المعارف،ط24،2002م،مصر،ص 411/410.

342 . نفسه،ص 411.(بتصرف)

قبيلة خطيب أو أكثر ،ومن أشهر خطباء العصر الجاهلي قس بن ساعدة الإيادي وأكتم بن صيفي وغيرهما كثير.[343]

وقد عُرف هذا اللون من النثر وازدهر في عصر النبوة وفي العصور الإسلامية التي تلته،نظرا للحاجة الشديدة إليه،و دوره الفعال في نشر الدعوة،ثم بعد ذلك الأفكار السياسية التي تبنتها الأحزاب المعارضة بعد عهد الخلافة الراشدة وما كان من اختلاف وفتنة بين المسلمين.

يعرف هذا الفن جبور عبدالنور بقوله:«فن التعبير عن الأشياء بحيث أن السامعين يصغون إلى ما يقوله المتكلم في موقف رسمي مختلف عن المجالس المألوفة في الحياة اليومية،وهي تشدُّ عادة الرابط بين أذهان السّامعين وقلوبهم من جهة،والأفكار التي تتناهى إليهم من جهة أخرى.»[344]

وما عرف في تلك الفترة كان من خطب الفاتحين الأوائل؛وفي الصفحات السابقة من البحث إشارة إلى ما بقي من تلك الخطب مثل خطبة الفاتح العظيم عقبة بن نافع الفهري التي ألقاها بتاهرت في فترة الفتح،و ننقل منها هنا جزءً، يقول فيه :«أيُّها النّاس!إن أشرافكم وخياركم،الذي رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه،بايعوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بيعة الرضوان على [قتال]من كفر بالله إلى يوم القيامة،وهم أشرافكم والسّابقون منكم إلى البيعة باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة. وأنتم اليوم في دار

---

[343] . ينظر:المرجع السابق، ص 413 وما بعدها.

[344]. جبور عبد النور،المعجم الأدبي،دار العلم للملايين،ط2، 1984م،لبنان، ص 103.

غربة [وإنّما بايعتم رب العالمين وقد نظر إليكم في مكانكم هذا،ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه.فأبشروا ! فكلَّما كثُر العدوُّ كان أخزى لهم وأذلُّ، إن شاء اللهُ تعالى.و ربُّكم – عزَّ و جلَّ– لا يُسْلِمكم فالقوهم بقلوبٍ صادقةٍ، فإنَّ الله – عزَّ و جلَّ– جعلكم [أولي] بأسه الذي لا يُردُّ عن القوم المجرمين،فقاتِلوا عدُوَّكم على بركة الله و عونه »[345] و أيضاً الخطبة التي تُنْسبُ إلى القائد موسى بن نصير،ومما جاء فيها:

«أيُّها الناس إنما كان قبلي على إفريقيا أحد الرجلين:مسالمٌ يُحِبُّ العافية ويرضى بالدُّون من العطيَّة ويكره أن يُكلم ويحبُّ أن يسْلم أو رجلٌ قليل المعرفة راض بالهون.وليس أخو الحرب إلاَّ من اكتحل بالسَّهر وأحسن النَّطر وخاض الغمر وسَمَتْ به هِمَّتُه ولم يَرْض بالدُّون من المغْنم لينجو ويسلم.»[346]

ثُمَّ يستطرد – بأسلوب مسجوعٍ – موضِّحا صفات ذلك المحارب وما ينبغي أن يكون عليه من توكُّل على الله،وحزمٍ وعزمٍ،وتزَيُّد في العمل واستشارة أهل الرَّأي،واللُّجوء إلى التَّجربة والخبرة،وبيان ما يكون عليه عند الطفر،وما يلجأُ إليه عند النَّكبة...إلى غير ذلك من الصفات التي يرى نفسه أنه لن يتركها حتى يفتح الله البلاد على المسلمين أو يحكم له وهو خير الحاكمين،حيث يقول: دون أن يكلِّم أو يكلَّم،ويبلغ النَّفس عذرها في غير خرق يريدُه، و لا عنف ثقاسيه،مُتوكِّلاً في حزمه،جازماً في عزمه، متزايداً في عمله مُستشيراً لأهل الرَّأي في إحكام رأيه،مُتحنِّكاً بتجاربه،ليس بالمتجاسر إقحاماً و لا بالمتخاذل إحجاماً، إنْ ظفر لم

---

345. المالكي،رياض النفوس،ج 1،مرجع سابق،ص 37.

346. العربي دحو،الأدب العربي في المغرب العربي،مرجع سابق،ص 267.(نقلا عن حسن حسني عبد الوهاب،مجمل تاريخ الأدب التونسي.)

يزِدْهُ الظفرُ إلاَّ حذراً، و إنْ نُكب أظهرَ جلادةً وصبراً راجياً من الله حسن العاقبة...

إنَّ كلَّ من كان قبلي كان يَعْمَدُ إلى العدُوِّ الأقصى،و يتركُ عدُوّاً منه أدنى ينْتهِزُ منه الفرصة ويدلُّ منه على العورة،و يكون عوْناً عليه عند النَّكبة،و أيِّم الله لا أريمُ هذه القلاع والجبال المُمْتنعة حتَّى يضعَ اللهُ أرفعها، ويُذِلَّ أمنعها، و يفتحَها على المسلمين، بعضها أو جميعها، أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين.» [347]

ومقارنةً بينها وبين ما قاله سيدنا عقبة بن نافع في الخطبة المذكورة آنفاً يقول أحدهم:« وهذه الخطبة أرقى معاني وأبلغ أسلوباً من خطبة سيدنا عقبة،و تتميَّز بدقّة التعبير و باستقصاء المعنى من جميع أطرافه،وبالتأنُّق في الازدواج والسَّجع والموازنة كقوله: متوكِّلا في حزمه ،جازما في عزمه،متزايداً في أعماله ...و هكذا بقية عباراته الجميلة السهلة.

وكان لهذين الخطيبين وأمثالهما ممَّن استقرَّ بشمال إفريقية أو الأندلس تأثير كبيرٌ على انتشار اللُّغة العربية والعلوم الدِّينية ونشأة الأدب الإفريقي والجزائري المغربي.»[348]

وما قيل عن الخطبة يمكن أن يقال عن الوصايا،فإنه لم تحتفظ لنا الكتب بكل ما قيل في هذا اللون النثري سوى وصية عقبة لبنيه بالقيروان،و قد تعدَّد مفهوم الوصية واشترك فيه الدين والأدب؛ففي اللغة الوصية هي:مصدر من الفعل وصَّى،يوصِّي،وصّى فلانُ:ترك وصيَّةً،و وصّى أقاربه بولده:عهِد إليهم فيه و كلَّفهم به.وقد عرف هذا اللونُ من النثر في

---

[347] . المرجع السابق،ص 267.

[348]. رابح بونار،المغرب العربي تاريخه وثقافته،مرجع سابق،ص 49.

الأدب العربي منذ العصر الجاهلي،وقد كانت الوصايا«تصدر في الغالب عن زعماء القبيلة و حكمائها،فيفرغون فيها خلاصة تجاربهم ونتاج عقولهم،ليتخذ منها أفراد القبيلة نبراساً يهتدون به في سلمهم وحربهم،وكثيرا ما كان يُوجِّهُ الرَّجلُ وصيَّته إلى أبنائه وأحفاده لينتفعوا بها.»[349]

و قد جاء في هذه الوصيّة: «إني بعت نفسي من الله،وما أدري ما يأتي عليّ في سفري،يا بني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها إياكم أن تملأوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن،فإن القرآن دليل على الله عز وجل،وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب ويدلُّكم على مكارم الأخلاق ثُمَّ انتهوا عمّا وراءه.وأوصيكم ألاَّ تداينوا ولو لبستم العباءة فإنّ الدَّيْن ذلٌّ بالنّهار و همٌّ باللّيل .فدعوه تسْلمْ لكم أقداركم وأعراضكم، وتبْقَ لكم الحرمةُ في النّاس ما بقيتم ،ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين،فيجهلوكم دين الله ويفرّقوا بينكم وبين الله تعالى،و لا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط فهو أسلم لكم،ومن احتاط سلِمَ ونجا فيمن نجا» ثمَّ قال«وعليكم سلام الله،وأراكم لا تروني بعد يومكم هذا» ثمّ قال «اللهم تقبل نفسي في رضاك،واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك.»[350]

وقد جاءت ألفاظ الخطبة والوصية سهلة بسيطة لا تكلف ولا تصنع فيها تشتمل على ما أراد عقبة بن نافع . رضي الله عنه . إيصاله للمتلقين سواء من عامة المسلمين كما في الخطبة أو أبنائه كما في الوصية،كما أنَّ الخطيب لم يخل باستعمال السجع لتكون لخطبته

---

[349]. زكريا عبد الرحمن صيام،دراسات في أدب العصر الجاهلي وصدر الإسلام،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،دط،1984م،ص 185.

[350] . العربي دحو،الأدب العربي في المغرب العربي،مرجع سابق ص 34/ 35.

موسيقى تجذب إليها الأسماع إلا ما جاء عرضاً دون قصد استعماله،«وكأنَّ هذه الوصيَّة دستور أدبي أوَّلي أشار به سيِّدُنا عقبة على أبنائه وكل رعاياه كي تفصح ألسنتهم،وتستقيم أخلاقهم،وتخلص أعراضهم من كل شين،ولكنَّها من النّاحية الأدبية الخالصة ساذجة في معانيها متوسِّطة في أسلوبها.»[351]

ولا شكَّ أن الفترات اللاحقة للفتح قد عرفت هذا اللون من النثر—الخطابة— خاصة وأن الظروف السياسية التي مرَّ بها المغرب الأوسط يستدعي اللجوء إلى مثل هذا الفن؛ فقد شهدت هذه الفترة تأسيس ونشوء دول بهذه البقعة من العالم الإسلامي،إلا أن الخطابة تعتمد أكثر ما تعتمد الارتجال وتكون وليدة اللحظة والظرف الذي يفرضها،ومادامت تلك الفترة لم تكن فترة تدوين وتسجيل كالعهود التي تلتها فقد ضاع كل ما قيل من خطب وربما حتى ما كُتب منها و من وصايا،فلم تحتفظ لنا الكتب ببعضها حتى نقف على ما جاء فيها من موضوعات شغلت الناس في تلك العهود السابقة، وما تناولته من قضايا سواءً ما كانت تخصُّ سياسة الملك في تلك الدول المتعاقبة على حكم بلاد المغرب الأوسط،أومن قضايا خاصة بالذين تركوا الوصايا.

وبما أن الدول المتعاقبة على المغرب الأوسط نشأت تدريجيا،فكان لابُد لها من خطباء مؤثرين ذوي شخصيات قوية تستطيع الإقناع بما تريد تمريره من أفكار،فقد كان أئمة بني رستم رجال دين — إن صح هذا المصطلح في حقهم — يقفون على المنابر للخطبة موجهين الرعية وناصحين لها ومبينين لها سياسة الدولة الرستمية، وقد روي «أن عبد الرحمن

[351]. رابح بونار،المغرب العربي تاريخه وثقافته،مرجع سابق،ص 48.

بن رستم كان له ديوان خطب نفيس ذكر الورجلاني أنه رآه،وله رسائل متعددة وجوابات كثيرة..»[352]

وهذا مما لا شك في وجوده،نظراً لأهمية الخطابة في استمالة القلوب والعقول،من أجل نشر الأفكار،والدفاع عنها بالحجة البالغة والكلمة المؤثِّرة، وجدير بالذكر هنا أن أئمة بني رستم كلهم عُرفوا ببلاغتهم وفصاحتهم وتعاطيهم العلم بدءً بالمؤسس عبد الرحمن بن رستم وحتى آخر أئمتهم. « والمشهور أن لهؤلاء الأئمة كلهم دواوين خطب للجمع والأعياد إذْ كانوا يخطبون بأنفسهم ولا يعيدون خطبة خطبوا بها قط.وكلَّما بحثنا لم نعثُرْ على شيءٍ منها.»[353]

يؤَكِّدُ هذا الكلام ما ذهب إليه ابن الصغير المالكي المعروف بمؤرخ الدولة الرستمية حيث نجده يقول: « حضرت لهم خطباء كثيرة [*] أولهم ابن أبي دريس،والثاني أحمد التيه والثالث أبو العباس بن فتحون،والرابع عثمان بن الصفار،والخامس أحمد بن منصور، فسمعت أحمد التيه يقرأ بعد فراغ إلى أن بلغ ﴿ تنزيلا ممن خلق الأرض والسماوت العلى الرحمن على العرش استوى ﴾ فحرَّف المعنى عن موضعه أراد أن يقيم أصله وجعله باباً من الحلول على العرش. وكل من رأيت من خطبائهم على منابرهم فليس يستمعون إلا خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب،خلا خطبة التحكيم فإنهم كانوا إذا فرغوا من الخطبة الأولى قاموا إلى الثانية وحكَّموا،وسوف أذكر خطبة التحكيم فيما يلي هذا الكلام.فلم يزالوا كذلك

---

[352]. محمد عيسى الحريري،الدولة الرُّستمية بالمغرب الإسلامي(حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس)،مرجع سابق،ص 237.

[353] . الباروني،الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية،مرجع سابق،ص379.

إلى أن ولي الخطابة رجلٌ منهم يقال له أحمد بن منصور،وسمعته يخطب بهذه الخطبة ثُمَّ يخطبُ بعدها بخطبة التَّحكيم،فلقيتُه وعاتبته،وقلت له إن خطبتك التي سمعت منك اليوم ليست من خطب أسلافك،فقال حملني عليها عثمان بن أحمد بن يحياج،وكان مقدَّماً عندهم و لا يكادون يخالفونه فيما استحسن لهم،فخطبت بها لأنه استحسنها لي.»[354]

ونراه بعد ذلك ينقل لنا ما سماه خطبة التحكيم،و هي خطبتا جمعة طويلتان من أربع صفحات تقريبا نقتطف منهما مايلي: « الحمد لله الذي ابتدأ الخلق بنعمائه،وتغمَّدهم جميعاً بحسن آلائه،فوفَّق كل امرئ منهم في صبائه، على طلب ما يحتاج إليه من غذائه،وسخَّر له من يكلؤه إلى وقت استغنائه ثمَّ احتجَّ على من بلغ منهم بالآيات و حذَر إليهم بإنبائه وأعر إليهم بإبلائه ... واخترعها من غير نظير، لم يرفعها بأعمدة تُدرك بالمعاينة،ولم يستعن عليها بأحدٍ استكباراً عن الشركة والمعاونة،وزيَّنها للناظرين،و جعل فيها رجوماً للشياطين فتبارك الله أحسن الخالقين ... أحمده حمداً يبلغ رضاه ويحسن آلاه وأستعينه على ما استحفظنا من ودائعه و حفظنا ما استودعنا من شرائعه وأومن به إيمان من أخلص له عبادته واستشعر طاعته،وأتوكَّلُ عليه توكُّل من انقطع إليهثقةً به ورغبةً فيما لديه وأشهد ألا إلا الله وحده لا شريك له شهادةَ معترف له بالرُّبوبية والتَّوحيد مقرّاً له بالعظمة والتمجيد خائفاً من إنجاز ما قدَّم إليه من الوعيد وأشهدُ أن محمَّداً عبدهُ ورسوله اصطفاه لنفسه وليّاً وارتضاه لخلْقه نبيّاً ...» ثُمَّ جلس ثُمَّ قام وقال:« الحمد لله نستعينه ونستغفره ونؤمن به و نستهديه ونستنصره ونبرأُ من الحول والقوة إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا

354 . ابن الصغير،أخبار الأئمة الرستميين،مرجع سابق،ص 106.

وسيئات أعمالنا منْ يهدِ اللهُ فهو المهتدي ومن يُضللْ فلا هادي له ونشهدُ ألا إله إلاَّ الله وحدهُ لا شريك له و أنَّ محمداً عبدُهُ ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كله ولو كره المشركون ...لا حكم إلا لله اتِّباعاً لكلام الله و سُنَّة نبيِّه علي السلام خِلافاً لأهل البدع، لا حكم إلا لله خَلْعاً و نبْذاً و فراقاً لجميع أعداء الله،لا حكم إلا لله ولو كره الجبّارون الحاكمون بغير ما أنزل الله وأشهدُ أنَّ من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون والظَّالمون والفاسقون.اللَّهم صلِّ على محمّد وآل محمد وارحم محمدا وآل محمد وبارك على محمدٍ وآل محمد كما صلَّيت وباركت ورحمت على إبراهيم وعل آل إبراهيم إنَّك حميدٌ مجيدٌ.اللَّهُمَّ صلِّ على العصبتين المباركتين من المهاجرين والأنصار و التَّابعين لهم بإحسان،اللهم وارحم الشُّراة في سبيلك أهل الفضل في الإسلام اللهم صلِّ على الخليفتين المباركين بعد نبيك محمد أبي بكر وعمر إمامي الهدى بما عملا به من كتابك وما أثراه من سنة نبيك اللهم وأصلح الأمير يوسف بن محمد،أصلحه وأصلح على يديه و وفِّقْه للخير...وأعنه عليه وافتح له من عندك أعواناً وأنصاراً على طاعتك اللهم أعزِزْ به الإسلام وأهله وأذِلَّ به الكفر وأهله،وانصره نصراً عزيزاً،و افتح له فتحاً يسيراً وهَبْ له من عندك سلطاناً نصيرا،كفى بك وليّاً وكفى بك نصيراً .اللَّهُمَّ اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان و لاتجعلْ في قلوبنا غِلاًّ للذين آمنوا ربَّنا إنَّك رؤوفٌ رحيمٌ.ثمَّ قرأ، قل هو الله أحد ثمَّ نزل.»[355]

وهي خطبة كما يلاحظ كثيرة السجع،وهي نموذج عن خطب الجمع التي كانت

[355] . ابن الصغير،أخبار الأئمة الرّستميين،مرجع سابق، ص 110/107

تلقى في مساجد الدولة الرستمية،موضوعها هو التحكيم؛ وهو أمر معروف في مذهب الإباضية وموقفهم من الإمام علي – كرَّم الله وجهه – بعد معركة صفين وحادثة التحكيم مع معاوية بن أبي سفيان.

وما قيل عن قلة خطب بني رستم أصحاب تيهرت التي بقيت قد ينطبق تماما على بني الأغلب الذين اشتهر ولاتهم بالشجاعة والفصاحة خاصة إبراهيم بن الأغلب المؤسس،إلا أن الخطب و التي تخضع غالبا للارتجال وليس للتدوين فإنها لم تحفظ وتتداول لتكون شاهدا على عصرها بل كانت وليدة تلك اللحظة ثم ماتت بعدها.

ولكن العهد الفاطمي ربما كان أكثر شهرة بخطابته وخطبائه،فقد كان لابد لنشر دعوتهم الإسماعيلية من خطباء مفوهين حتى يتمكنوا من إقناع بعض الناس بأفكارهم ومعتقداتهم التي حاولوا نشرها تارة بحد السيف وتارة بالإقناع . وقد «كانت الخطابة الدينية هي السائدة في العصر،ومعظمها في مناسبات يوم الجمعة،والعيدين،وقد يخطب الخلفاء الأئمة الفاطميون في مناسبات أخرى كما فعل المعز لدين الله الفاطمي عند وفاة أبيه المنصور.وكان قد كتم خبر وفاته.»[356]

ومما قاله في تلك الخطبة – خطبة العيد – بعد البسملة والاستعانة بالله«الله أكبر،الله أكبر،لا إله إلا الله،والله أكبر،الأعزُّ الأقدر،الخالق المدبِّر،،ذو الكبرياء والجبروت،والعِزَّة والملكوت،الأحد، الصَّمد،الفرد المنفرد،الأعلى القاهر، الباطن الظّاهر، الأوَّل

[356]. محمد زغلول سلام،الأدب في العصر الفاطمي،مرجع سابق،ص 224.

الآخر...»[357]

وهي عبارة عن خطبتين طويلتين،مليئتين بالأسجاع الكثيرة والفواصل المتنوعة،تظهر فيهما ثقافة الخطيب الدينية وإلمامه بأمور الدين،يبين للناس صفات الله وقوته وقدرته،وعجز الإنسان وضعفه وفقره،ويُبيِّن للمتلقين أسباب خلقهم و وجوب طاعتهم لله،و تذكيرهم بما رزقهم من بهيمة الأنعام لنحرها في يوم الحج الأكبر اقتداءً بالسنة النوبية الشريفة...وقد خصَّ الخطبة الثانية بالحديث عن وفاة والده المنصور راثيا مترحِّماً داعياً له بالرحمة والمغفرة والرضوان من الله عزَّ وجلَّ والتعرض للحديث عن أبيه الفقيد وصفاته، وآلام الفراق والفقد واحتساب الأجر والصبر على قضاء الله فالموت حق على كل حيٍّ، و لأحقية الفاطميين في الحكم لانتسابهم إلى آل البيت،وعلى العموم فإن الخطبتين طويلتان تضمنتا الحديث عن كثير من الأمور مثل الوعظ والتطرق إلى مسألة الإيمان والتوحيد والخلافة وطاعة الرسول – صلى الله عليه وسلم– وطاعة أولي الأمر كما تطرق إلى قضية خلافته لوالده،و«الملاحظ أنَّ الخطبة من حيث البناء الفني مسجوعة،لكنَّها لا تلتزم السَّجع بل يأتي السَّجعُ خلالها لتأكيد بعض المعاني والتركيز عليها لدى السَّامع حتَّى يردف تردُّد الصَّوت،تَكرار المعنى بصورٍ مختلفة من اللّفظ.

[357]. نفسه،ص 224.

والفقرات متراوحة بين الطول والقصر،فهي تقصر حين يريد التَّأثير في السَّامع بنبضٍ سريع الإيقاع متتابع السَّجعات،وتطول الفقرات حين يريد الشَّرح والبطء والتَّراخي في عرض الموضوع أو المعنى الذي يتناوله.»[358]

والخطبة بوجه عام يغلب عليها الطابع الديني،فقد كانت بمناسبة عيد الأضحى،رغم أنها تعرضت إلى وفاة الخليفة المنصور الذي أخَّر ولدُهُ إعلان خبر وفاته حتى ذلك اليوم.

إلاَّ أن الوصايا لم أعثر لها في الفترات التي تناولها البحث بالدراسة على أثر،وقد يعود ذلك لكونها شخصية وغالباً ما تتعلَّق بأمور خاصة كالميراث أو غيره مما يتعلَّقُ بالحياة الخاصة للأفراد.

أدب الرسائل:

بعد فترة الفتح فقد عرفت بلاد المغرب الأوسط تأسيس دول ودويلات،عرفت فيها أيضا ألوان من النثر الفني كالخطابة وأدب الرسائل؛ومن هذه الدول الدولة الرُّستمية التي كانت أولى هذه الدول تأسيساً بأرض المغرب الأوسط،وقد جاء في صفحات هذا البحث الحديث عمَّا كان من اهتمام هذه الدولة بالأدب والعلم عموماً،وقد شهدت نبوغ كثير من الرجال في مختلف المجالات العلمية والأدبية،وخلَّف كتابها وأدباؤها ما يدل على باعهم في

[358]. محمد زغلول سلام،الأدب في العصر الفاطمي(الكتابة والكتاب)،مرجع سابق، ص 230.

ميدان الأدب؛ومن ضمن ما بقي مما أبدعه رجالها مجموعة من الرسائل الديوانية التي كتبها أئمة هذه الدولة إلى عمالهم أو مخالفيهم موجهين ناصحين أو محذرين متوعدين.

ومن الرسائل التي بقيت واحتفظت لنا بها بعض الكتب،تلك الرسائل التي بعث بها أحد أئمة الدولة الرُّستمية (أفلح بن عبد الوهاب) إلى أحد معارضيه(نفاث بن نصر) يحذره من مغبة ما يقوم به قائلا:«... وقد كتبت إليك غير كتاب أنصح لك فيه وأدعوك إلى رشدك وفي كل ذلك لا يبلغني من عمالنا فيك إلا ما أكره وما لا أرضاه لدين ولا دنيا حتى حررت كتاباً منشوراً إلى عمالنا أمرتهم فيه بخلع كل من خالف سيرة المسلمين وابتدع غير طريقتهم وسار بغير سيرتهم،وبنفيه وهجره وإقصائه ،فكتبت إلي كتاباً كأنك تسخط ذلك،أترى أني أوازر من ابتدع في ديننا (كلا) ما كنت بالذي يفعل ذلك،ولا أوازر من يسعى في خلافنا ما كنّا على الهدى.

ثُمَّ قلت إنا أمرنا في كتابنا بالبراءة منك،فإنْ كنت كما كتب به إلينا عمالنا،فأنت محقوق بالبراءة ومُقْصى من جماعتنا لأنَّنا ما كتبنا كتابنا ذلك إ على أنَّ كلَّ من ابتدع في ديننا خلاف أسلافنا، و زعم أنَّ عمالنا أساقفة،وأنَّهم لا طاعة لهم في حال كتمانهم،فهو محقوق بالبراءة ومقصى من جماعة المسلمين، فإن كنت منهم فأنت الذي أبحت لنا البراءة منك وأحللت بنفسك ما لابُدّ لنا أن نفعله بك وبغيرك،وإنْ لم تكن كذلك فأظهر الانتفاء من ذلك،و كذِّب عن نفسك ما قيل عنك لتكون عندنا بالحالة التي تستحِقُّقها و

تستوجبها.»[359]

ونلمس في هذه الرسالة ومثيلاتها ذلك الحزم الذي تعامل به أئمة بني رستم مع معارضيهم وسعيهم لتثبيت أركان دولتهم الفتية في تلك المرحلة،كما أنّ في الرسالة إشارة إلى أن هذه الرسالة ليست الأولى التي يوجهها الإمام أفلح بن عبد الوهاب إلى نفَّاث هذا ليعيده إلى رشده حتى لا تحدث فتنة داخل الدولة الرستمية، والرسالة في عمومها تشتمل على ردٍّ مُفصل تناول كل ما تحدث عنه نفاث بن نصر في كتابه إلى الإمام و رد الإمام على كل جزءٍ منه،ومن الطريف أن «أول ظهور للأدب العربي في الجزائر يوافق ظهور هذه الدولة العجيبة التي قلَّما شهد التاريخ مثلها نظاماً وتدبيرا.فالطريف أن يكون أول تعبير أدبي يصدر من أفواه الملوك الرُّستميين،فهذا عبدالوهاب بن رستم ثاني الأمراء الرُّستميين يؤلف الكتب في تفسير القرآن ويبرع في الخطابة ورسائل إخوانيات.وهو الذي جمع حوله العقول الثّائرة من مشارقة ومغاربة.وتلاه ابنه أفلح و هو شاعر الرستميين وقد بلغ حبُّه للعلم مبلغاً عظيماً»[360]

غير أننا للأسف لا نعثر على ما خلفه أدباء تلك الفترة في هذا الضَّرب من النثر سواءً من أئمة الدولة الرُّستمية .— وإن وجدت بعض الرسائل وأغلبها رسائل ديوانية تتعلَّق بسياسة الحكم — أو غيرهم من الأدباء،إلا أنَّه ومما لا شك فيه أن هذا النوع من النثر عُرف في تلك الفترة كما عُرِف قبلها وبعدها ولكن الحوادث والظروف التي عرفتها نهاية تلك الدولة أتتْ على جُلِّ ما أُلف وكُتب من نثر أو شعر أو فكر.

---

[359]. الباروني،الأزهار الرياضية في ملوك و أئمة الإباضية(القسم الثاني)، دار البعث للطباعة والنشر،ط 3، 1423هـ/2002م،الجزائر،ص 268/267.

[360]. عبد الرحمن الحاج صالح،الأدب العربي القديم في الجزائر، مجلة آفاق،مرجع سابق،ص 26.

وفي الحقيقة إن ما قيل عن هذا الجنس الأدبي في فترة الدولة الرُّستمية قد ينسحبُ على كل الفترات التالية لها،وذلك لتشابه الظروف التي مرَّتْ بها كل الدول المتعاقبة على حكم المغرب الأوسط.ففي فترة الأغالبة الذين امتدَّ نفوذهم إلى الأجزاء الشرقية من المغرب الأوسط،عُرفتْ المكاتبات بين أمراء هذه الدولة وغيرهم من الملوك والسلاطين والأمراء وقادة الجند،إلا أن تلك الرسائل لم يصلنا منها شيءٌ إلا أن هناك إشارات في الكتب التاريخية تدُلُّ على وجود تلك الرسائل ومنها ما قام به من مراسلات أميرها ومؤسسها الأول إبراهيم بن الأغلب «ومن حكمة إبراهيم السياسية أنَّه لما بلغه أن إدريس الأصغر بعد أنْ أكثر جمعَهُ في المغرب أصبح يطمع في إفريقية وأنَّ مولاه راشد يقوم له بدعاية واسعة النطاق مطابقة لمنازع البربر و أهوائهم،فأبى أن يجهز عليه وأعمل الحيلة لصرفه عن بلاده.فكاتب القائم بأمره من المغاربة واسمه بهلول بن عبد الواحد وأهدى إليه ولو يزل يلاينه ويستدرجه حتّى فارق إدريس وانضمَّ إليه و تفرَّقتْ الجموع عن إدريس،فكتب إلى إبراهيم يستعطفه ويستجديه الرِّضى الكفَّ عنه،وهو يناشده في ذلك قرابته من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأمسك عنه رحمةً به وكتب إليه:إنِّي أتركك ما تركت الفساد والشَّغب في بلادي.»[361]

والرسالة على قصرها وقلَّة ما جاء فيها من كلمات توحي بما كانت تضطرب به الحياة في ذلك العهد من صراعات، إلا أنهُ « ومهما يكن من أمر فالرِّسالة الأدبية قد عُرفت بإفريقية واستخدمها الأدباء والفقهاء وسلكوا فيها مسالك من سبقهم إليها فنمَّقوها بالشِّعر

[361]. عبد العزيز الثعالبي،تاريخ شمال إفريقيا من الفتح إلى نهاية الدولة الأغلبية،جمع وتحقيق أحمد بن ميلاد ومحمد إدريس، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ط2، 1410هـ/1990م،ص 205 / 206.

والأمثال والنَّوادر والشَّواهد من القرآن والحديث،ولو لم تتضمَّنْ الرِّسالةُ مرسِلاً ومُرسَلاً إليه ونصّاً يجمعُ بينهما،ولو لم تُراعَ فيها بعض القواعد الفنيَّةِ في البدْءِ والختام لَصَعُبَ على القارئ تحديد ''هويَّتها'' لأنَّها جماعُ جملةٍ من الأجناس الأدبية القائمة بذاتها.

ولئن طغى الجانبُ الدِّيني على الشعر في العصر الأغلبي فإنَّ الرِّسالة الأدبية قد تفتَّحتْ على جميع المواضيع فكان منها ما هو في التَّهديد والوعيد(رسالة خريش الكندي إلى إبراهيم بن الأغلب وجواب إبراهيم عليها) ومنها ما هو في الاستعطاف والاستعفاء(رسالة محمد البريدي المعاصر لأبي يسير الشيباني وصاحب ديوان الإنشاء إلى الأمير إبراهيم الثَّاني الذي حبسه)،ومنها ما هو في الصداقة(رسالة يحي بن عمر إلى صديقه حمديس القطان يواسيه في مرضٍ ألمَّ به)ومنها ما هو في القضاء(رسالتان لعبد الله بن طالب القاضي إلى محمد بن قمُّود قاضي طرابلس وإلى ابن ثمود قاضي قابس)ومنها ما هو في ''أدب الدنيا والدين''(رسالة محمد بن سحنون إلى صديقه علي بن مسلم البكري)ومنها ما هو في العتاب(رسالة أحمد بن أبي الأسود النَّحوي الشَّهير إلى ابن الزيدي ومنها ما هو في أدوات الكتابة والإنشاء(رسالة الشيباني الموسومة بالرِّسالة العذراء إلى صديقه ابن المدبّر).

فهذه مضامين شتَّى تعدَّدت مناحي القول فيها بعد أن أخذتْ المعاني تخطو نحو معالجة شؤون الحياة الإسلامية في المجتمع الجديد الآخذ في التطوُّر والاتِّساع،وإنَّ لجوء الفقهاء والأمراء و كُتَّاب الدَّواوين إلى الرِّسالة الأدبية في بعض وجوه التَّعامل قد أعطى تطوراً ملحوظاً في فن الرِّسالة حتَّى اتَّسعتْ مجالاتها وتنوَّعت مواضيعها وحسُنتْ أساليبها وتمَكَّنَ نسيجها.»[362]

وقد أخذت في التطور وظهر عليها ما قد نسميه نوعاً من التجديد في بنائية هذه

[362]. محمد المختار العبيدي،الحياة الأدبية بالقيروان في عهد الأغالبة، مركز الدراسات الإسلامية ،القيروان،دار سحنون للنشر والتوزيع،تونس،ط1، 1414هـ/1994م، ص 436/435.

الرسائل خاصة ما تعلَّق بالمقدمة والخاتمة،ذلك أنَّ«أول ما يلاحظُ في هذه الرَّسائل هو بدءُ ظهور نوع من التَّقنين لنظام الاستهلال والختام في الرِّسالة:''من إبراهيم بن الأغلب إلى خريش رأس الضلال أمّا بعد...''أو ''من خريش القائم بالعدل إلى إبراهيم بن الأغلب،أمّا بعد...'' كما نلاحظُ ميل الكُتّاب إلى البساطة و السُّهولة والإيجاز في التَّعبير عن المضامين،وعزوف عن اصطناع أساليب الزَّخارف إلاَّ نادراً و ودون قصد ولا إيثار كما أنَّنا نجدُ فيها من المعاني البعيدة والألفاظ الدقيقة والشَّواهد المختارة اختياراً موفَّقاً ما يجعلها نصوصاً صالحة لتعليم فنِّ الإنشاء الأدبي.»[363]

ومن هنا ندرك أن الكتابة سواء الديوانية أو الإخوانية كانت موجودة في عهد الدولة الأغلبية، إلا أن يد الزمان أو يد الإنسان أو هما معا امتدّتا إليها ولم تبقِيا منها شيئا إلا ما ذكر عرضا في طيات الكتب التي أرَّختْ لتلك الفترة من الزمن.

كما شهد العهد الأغلبي الكثير من المناظرات التي كانت تعقد في المساجد والأسواق وبلاط الخلفاء والأمراء،تدور موضوعاتها حول المسائل النَّحوية والدِّفاع عن المذاهب الفقهية،تُظهر قدرة أولئك المناظرين وعُلُوِّ كعبهم فيما يتحدَّثون فيه،وقد قدَّمت خدمة كبيرة للأدب[364]

أما في عهد العبيديين فإن الكتابة الديوانية أو الإخوانية كان لها وجود،كما ظهر نوع آخر من الرسائل شبيه بالرسائل الديوانية يسمى السجلات« وتُعدُّ السجلات الفاطمية

---

[363]. نفسه،ص 436.

[364]. ينظر لتفصيل أكثر: المرجع السابق،ص 438 وما بعدها.

نوعاً من الرسائل الديوانية التي يعالج فيها الخلفاء بعض الأمور الإدارية الخاصة بالدَّولة عامة أو رجالها كتقليد ولايةٍ أو حُسْبة أو نقابة أشراف وما إلى ذلك أصدره وكان يتولَّى صياغة هذه السجلات كبير الكُتّاب في ديوان الإنشاء غالباً.فمن أمثلة ذلك ما أصدره الحاكم بمناسبة منعه سبَّ السَّلف من الصَّحابة وبخاصة أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – بعدما شاع ذلك من بعض العوام في العاصمة.»[365]

و في كل هذا دلالة واضحة على مكانة المكاتبات في تثبيت دعائم الدول،لما كان لها من تأثير في سياسة الملك،وسنِّ القوانين وتطبيقها وتوجيه الرعية،وهي في هذا شبيهة بالمراسيم التي تصدر عن الحكومات في عصرنا الحالي.

وكما عرفت الكتابة الديوانية،عرفت أيضا المراسلات الإخوانية التي كانت موضوعاتها كثيرة ومتعددة؛ بمناسبة مولود أو زواج أو عودة من السفر أو نيل رتبة أو منصب إلى غير ذلك من المناسبات المختلفة« ومن أمثلة الرسائل الإخوانية في العهد الفاطمي ما ذكره المسبحي للكاتب الحسين بن أحمد المعروف بابن الخياط كتب بها إلى صديق لله من تنيس [وهي جزيرة مصرية تقع في محافظة بورسعيد]ومما جاء فيها:بسم الله الرحمن الرحيم كتبتُ إليك عن سلامة،وأمْرٍ أشيم برقَه،و أتوكَّفُ وذْقه،وحالٍ سارٍ مبداها،ومرجُوٍّ منتهاها.والحمد لله،وإيَّاه أسألُ حسن التوفيق والتَّسديد و وصلت إليها غداة يوم الأربعاء، مترفهاً متودِّعاً،ولله الشكر والطَّول، وبه القوة والحّول. وجرت خطوب في إحداري آلت إلى

[365]. محمد زغلول سلام،الأدب في العصر الفاطمي(الكتابة والكُتَّاب)،مرجع سابق،ص 232.

سلامتي ومساري ،أحببتُ وقوفك عليها، و سكونك إليها....»[366]

والرِّسالة طويلة نسبياً،يتحدث فيها الكاتب عن سفره – بأسلوب جميل وعبارة راقية – ويخبره أنه وصل يوم الأربعاء وأقام في دار الصناعة،ثمَّ استقر به المقام في السفينة بدءً من يوم السبت ليبحر في رحلة بحرية يصف ما جرى فيها من أحداث وأهوال في البحر،وما أصابه فيها والركاب من جزع وفزع،فعجلوا إلى الدُّعاء يتضرَّعون إلى الله عزَّ و جلَّ ليرفع عنهم ما هم فيه،وأخيراً يخبره عن زوال تلك الأهوال و وصوله بأمان وسلام.

و هو كما يظهر في رسالته «يعتمد السجع في فقرات متفاوتة بين الطول والقصر،تتناسبُ مع المعنى،ونبضه،وما يلزمه من الجرس الخافت أو الضجيج،أو الهمس الناعم الرشيق، ويزاوج كثيراً بين المعنى و أخيه وقريبه، أو يقابل بين المتضادات فيلجأ لفن الطباق و المقابلات. وقد يستخدمُ إذا لزم الحال أو اقتضاه المقام.» [367]

والرسالة تعطينا صورة عن وجود المكاتبات بين الأصدقاء، والكتاب والأدباء والعلماء في تلك الفترة،كما تخبرنا ضمنيا عن وجود وسائل النقل البحري للعامة من الناس،وكذا توفر أماكن للإقامة أثناء السفر.وإجمالاً فإنَّ «الأدب الفاطمي بشتى صوره النثرية والشعرية صورةٌ لتلك الحيوات السياسية والاجتماعية والسياسية والفكرية والفنيَّة، تتجلَّى فيه عناصرها جميعاً.»[368]

---

[366]. نفسه،ص 237/236.

[367] . المرجع السابق، ص 239/238.

[368]. نفسه،ص 224.

وفي عهد الدولة الحمادية نجد ما يدل على اشتهار فن أدب الرسائل و وجود كتاب كانت مهمتهم الكتابة وتدوين الرسائل و من أولئك الكتاب أشرنا سابقا إلى أحدهم هو أبو القاسم عبد الرحمان الكاتب المعروف بابن العالمي،كما جاء في البحث نموذج من كتاباته[369]

وهي رسالة يتحدّثُ فيها ابن العالمي على لسان الخليفة لأحد عماله يثبت له ما كان لسلفه من أواصر ومودة مادام على الولاء له.

وكذلك كاتب آخر من كتاب الدولة الحمادية سبقت الإشارة إليه وهو ابن دفرير كاتب الخليفة يحي بن العزيز الحمادي،وذكر له نموذج من رسائله السلطانية التي كتبها باسم الخليفة الذي فرُّ من بجاية أمام عسكر عبد المؤمن مستنجداً ببعض أمراء العرب في تلك الفترة؛ وهي الفترة الأخيرة من وجود هذه الدولة التي كان لها شأن عظيم بالمغرب الأوسط،إلا أنها سقطت على يد الموحدين الذين دخلوا عاصمتها بجاية في منتصف القرن الثاني عشر ميلادي الموافق لمنتصف الرن السادس الهجري بالتقريب.و مجمل القول إن الأجناس النثرية التي أمكنني الوقوف عليها قليلة جدّاً،مقارنة بغيرها، و هذا قد يعود إلى خصوصية هذه الأجناس واعتمادها الارتجال، فالرسائل غالباً ما تكون بين الأهل والأحباب والأصدقاء ولذلك يضيع أغلبها في ظل الظروف التي شهدتها تلك الدول،وكذلك الأمر بالنسبة إلى الوصايا،أمَّا الخطب فهي ارتجالية ابنة اللحظة التي قيلت فيها، فإن لم تُدوَّن فلا محّالة تنسى.

[369]. **ينظر ص 165 من هذا البحث.**

خاتمة

خاتمة:

البحث في الحركة الأدبية التي شهدتها بلاد المغرب الأوسط مازال أرضاً بكراً يحتاج منا إلى كبير اجتهاد وعمل للوقوف على بعض ما تمَّ نظمه ونثره من شعر وفنون نثر متعددة لإخراجها إلى الوجود وبيان أن لهذا القطر كما لإخوانه من الأقطار الأخرى حركة فكرية وأدبية وعلمية في عديد المجالات والتخصصات كان لها أثر و مساهمة في الحضارة العربية الإسلامية خاصَّة،و الحضارة الإنسانية عامَّةً، و لكن ما يؤسف له أنهُ حتى الكتب التي أرَّخت للأدب العربي لم تألُ جهداً في الحديث عن هذا الأدب الذي كانت دول المغرب العربي والغرب الإسلامي عموما داراً له،فلا نكاد نعثر إلا على بعض الفقرات والصفحات القليلة في حق هذا الجزء من العالم العربي والإسلامي.وقد شهدت الحركة الأدبية في المغرب الأوسط فترات ضعف وأخرى للازدهار كما يصنفها ''رابح بونار'' في كتابه الموسوم بـ:المغرب العربي تاريخه وثقافته.

و في نهاية هذا البحث الذي حاولت فيه الحديث عن الحركة الأدبية في المغرب الأوسط – الجزائر– من الفتح الإسلامي لهذا القطر من الوطن العربي والإسلامي إلى غاية سقوط دولة بني حماد مرورًا بالدول التي نشأت بهذا القطر من العالم العربي والإسلامي،نستخلص بعض الملاحظات والنتائج حول الفترة عموما والحركة الأدبية فيها على الخصوص منها:

- تبدو الحركة الأدبية في المغرب الأوسط على امتداد الفترة المدروسة محتشمة وقليلة الإنتاج،مقارنة بمثيلتيها في الأندلس والمشرق.
- طُرِقت في الشعر الجزائري القديم كل الأغراض،وكان وجودها بشكل متفاوت بين الشعراء وبين الفترات والعهود المختلفة التي مرت بها بلاد المغرب الأوسط.

- عدم تدوين كل ما أنتج في تلك الفترة ،وضياع الكثير مما دوِّن فوَّت علينا أخذ صورة كاملة عن مدى ما وصل إليه أدباء تلك الفترة،إلا أن ذلك لا ينقص من قيمة ما أبدع هؤلاء،فهم وإن لم يتفوقوا على ما في الأندلس غربا و ما في المشرق العربي شرقاً فإنهم لا يقِلُّون عنهم إبداعاً.
- تناول أدباء المغرب عموما وأدباء المغرب الأوسط الموضوعات التي تناولها زملاؤهم شرقا وغربا،وإن كان المغرب الإسلامي (المغرب والأندلس) قد أبدع فن الموشحات التي لم تعرف قبل ذلك.
- يلاحظ غياب المدح في أئمة الدولة الرُّستمية،وكثرته في خلفاء الدولة الفاطمية،وربما يعود ذلك إلى فقدان جل ما أنتج في فترة بني رستم نتيجة ما أصاب مكتبتها المعصومة.
- تميَّز الرثاء في عهد الدولة الأغلبية أن كان في حق العلماء والفقهاء،وغاب في حق الخلفاء و الوزراء والأمراء.
- انتشر فن رثاء المدن وتطوَّر على يد شعراء المغرب،ومنها انتقل إلى الأندلس فقد قلَّد ابنَ رشيق أبو البقاء الرندي في رثائيته المعروفة.
- ضاعت جلُّ الخطب التي قيلت في العهود المتلاحقة التي شهدها المغرب الأوسط،وقد يعود ذلك لما تمتاز به الخطب من ارتجالية.
- غلب على شعر الزهد الذي ميَّز عهد الأغالبة أنَّ شعراءه كانوا من الفقهاء والصالحين.
- يبدو الهجاء قليلا في الفترة التي غطَّاها البحث،ويستشفُّ منه ترفع الشعراء عن الهجاء،كما يطبعه الطابع المذهبي،خاصة بين السُّنَّة والشِّيعة.
- يقلُّ بشكل لافتٍ شعر الغزل والخمر والمجون في فترات عديدة في الدول المتعاقبة على المغرب الأوسط و يكاد ينعدم في فترات أخرى.

- كان المغرب الأوسط ملاذاً لكثير من الهاربين من الأحداث التي كانت الخلافة الإسلامية مسرحاً لها في العهدين الأموي والعباسي.
- شهد المغرب الأوسط هجرة و نزوح عدد لا بأس به من علمائه وأدبائه إلى المشرق وإلى الأندلس من أمثال بكر بن حماد،و أسرة آل الطبني وغيرهم.
- كما شهد أيضا هجرة معاكسة،حيث قصده العديد من الأدباء والعلماء من أمثال ابن هانئ الأندلسي،وابن حمديس الصقلي وغيرهما.
- شهدت بعض العهود في المغرب الأوسط انتشار التسامح المذهبي بين مختلف المذاهب مثل العهد الرستمي.
- وشهدت بعض الفترات صراعا مذهبيا خاصة في الفترة الفاطمية بين السُّنَّة والشِّيعة،و كان فيها فرض للمذهب الإسماعيلي بالقوة على النّاس.
- كان للصراع المذهبي بين السُّنَّة والشيعة انعكاس إيجابي على الإنتاج الأدبي فقد شهدت تلك الفترة هجاءً عرف بالهجاء المذهبي.

- القرآن الكريم برواية ورش عن نافع.

فهرس المصادر والمراجع

1/ أبي زرع(ابن)،الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس،دار الطباعة المدرسية،دط،1833م.

2/ الأبار (ابن)،الحلّة السيّراء،الجزء الأول،تحقيق حسين مؤنس،دار المعارف،مصر،ط2، 1985م.

3 /الصغير(ابن) المالكي،أخبار الأئمة الرّستميين،تح وتعليق محمد ناصر وإبراهيم بحاز،دت ،د ط، ص .

4/ الكتاني(ابن)،التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ج1،تح إحسان عباس،دار الثقافة بيروت، دت ،دط.

5 / بسام(ابن)،الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،القسم الأول، المجلد الأول، تح إحسان عباس،دار الثقافة، بيروت لبنان،د ط، 1418هـ/1997م.

6/ تغرى بردى(ابن)،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة،الجزء الثاني،دار الكتب المصرية القاهرة،ط1، 1349هـ/1930م،.

7/ حماد (ابن)،الصنهاجي،أخبار بني عبيد وسيرتهم،تحقيق ودراسة التهامي نقرة و عبد الحليم عويس،دار الصحوة للنشر والتوزيع،مصر،د ت.

8/ حمديس(ابن)،،الديوان،تعليق يوسف عيد،دار الفكر العربي،لبنان،ط 1، 2005م ص470.

9/ خاقان(ابن)،،مطمح الأنفس ومسرح التأنّس،تح محمد علي شوابكة،دار عمار مؤسسة الرسالة،ط1، 1403هـ/1983م،لبنان.

10/ خلدون(ابن)،،تاريخ ابن خلدون،الجزء الثالث دار الفكر ،بيروت لبنان،1431هـ/2000م.

11/ خلدون،(ابن)،تاريخ ابن خلدون،الجزء السادس،دار الفكرللطباعة و النشر والتوزيع،د ط، 1431هـ/2000م.

12/خلكان(ابن)، ابن خلكان،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،مج 6،تحقيق إحسان عباس،دار صادر للطباعة،بيروت،1397هـ/1977م.

13/ دحية(ابن)،المطرب من أشعار أهل المغرب،تحقيق إبراهيم الأبياري و حامد عبد المجيد،دار العلم للجميع،بيروت لبنان، دت، د ط.

14/ رشيق(ابن)،الديوان،جمع وترتيب عبدالرحمن ياغي،دار القلم بيروت،د ط،1409هـ/1989م.

15/ رشيق(ابن)،العمدة في محاسن الشعر ،وآدابه،ونقده،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد،الجزء الأول،دار الجيل للنشر والتوزيع،بيروت لبنان،ط1401،5هـ/1981م.

16/رشيق(ابن)،العمدة في محاسن الشعر،وآدابه،ونقده،الجزء2،تح محمد محي الدين عبد الحميد،دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة،دمشق سوريا،دط5، 1401هـ/1981م.

17/ رشيق(ابن)،،قراضة الذهب في نقد أشعار العرب،تحقيق الشاذلي بويحي،دط،الشركة التونسية للتوزيع،1972م.

18/ سعيد(ابن)، المغربي الأندلسي،المغرب في حلى المغرب،الجزء الأول،تح شوقي ضيف،دار المعارف،القاهرة،ط4، 1955م.

19/ شاكر(ابن)،فوات الوفيات والدليل عليها،المجلد الرابع، تحقيق إحسان عباس،دار الثقافة بيروت،دط،1973م.

20/ عذارى(ابن)،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،الجزء الأول،تحقيق ومراجعة ج.س كولان

وإ.ليفي بروفنسال،دار الثقافة بيروت لبنان،ط1400،3هـ 1980م.

21/ هانئ (ابن)،الأندلسي،الديوان،المطبعة اللبنانية،بيروت،د ط، 1883.

22/ وردان(ابن)،تاريخ مملكة الأغالبة، تحقيق وتقديم محمد زينهم محمد عزب،مكتبة مدبولي القاهرة،ط1408،1هـ 1988م.

23/ يسام(ابن)،الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،القسم الرابع،المجلد الأول، تح إحسان عباس،دار الثقافة للنشر والطباعة والتوزيع،بيروت لبنان،ط1399،1هـ/1979م.

24/ القاسم أبو محمد كرُّو،دراسات في الأدب والنَّقد،منشورات دار المعارف للطباعة والنشر،سوسة/تونس،د ط، 1990م.

25/أحمد بن محمد أبورزاق،الأدب في عصر دولة بني حماد،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،دت،د ط.

26/ الأصفهاني،خريدة القصر وجريدة العصر(قسم شعراء المغرب)،تح آذرتاش آذرنوش،تنقيح وزيادة محمد المرزوقي و محمد العروسي والجيلاني بن الحاج يحي،الدار التونسية للنشر،تونس،ط2 ،1966م.

27/ الباروني،الأزهار الرياضية في ملوك و أئمة الإباضية(القسم الثاني)، دار البعث للطباعة والنشر،ط 3، 1423هـ/2002م،الجزائر.

28/ بشير رمضان التليسي،الاتجاهات الثقافية في الغرب الإسلامي(خلال القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي)،دار المدار الإسلامي،ط1 ،2003م.

29/ البكري،المسالك والممالك،المجلد الثاني،دار الكتب العلمية،بيروت لبنان،ط1424،1هـ/2003م.

30/جبور عبدالنور،المعجم الأدبي،دار العلم للملايين،ط2، 1984م،لبنان.

31/ جودت عبد الكريم يوسف،العلاقات الخارجية للدولة الرّستمية،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،1984م.

32/ الحبيب الجنحاني،نظرة تقييمية لدراسات تاريخية حديثة عن حركات الخوارج في المغرب العربي في العصر الأوسط،مجلة الأصالة،العددان 14و15،السنة الثالثة،1393هـ 1973م،الجزائر.

33/ حسن محمد الربابعة،من أدب مصر والشام في العصر الفاطمي،مؤسسة رام للتكنولوجيا والكمبيوتر،الأردن،ط1، 2006م.

34/ حسين شعيب،طارق بن زياد فاتح الأندلس،دار الفكر العربي، بيروت لبنان،ط1،2004م.

35/ حسين مؤنس،فتح العرب للمغرب،مكتبة الثقافة الدينية،د ط، دت .

36/ الحصري،زهر الآداب وثمر الألباب،تح محمد محي الدين عبد الحميد،ج1،دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت لبنان،ط4،د ت.

37/ الحميدي،جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس،تح بشار عواد معروف و محمد بشار عواد،دار الغرب الإسلامي،ط1،1429هـ/2008م،تونس.

38/ الدرجيني،كتاب طبقات مشائخ المغرب،الجزء2،تحقيق إبراهيم طلاّي،مطبعة البعث قسنطينة الجزائر، دت.

39/ رابح بونار،المغرب العربي تاريخه وثقافته،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،ط 2، د ت.

40/ رشيدبورويبة،الدولةالحماديةتاريخهاوحضارتها،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1397هـ/1977م.

41/ زكريا عبد الرحمن صيام،دراسات في أدب العصر الجاهلي وصدر الإسلام،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،دط،1984م.

42/سليمان داود بن يوسف،محاضرات الفكر الإسلامي الحادي عشر،ورجلان،1397هـ/1977م،منشورات وزارة الشؤون الدّينية،المجلد الأول.

43/ سليمان عشراتي،الشّخصية الجزائرية(بانوراما المشهد الحضاري لميلاد الدّولة الحمّادية)،الجزء الثّاني،دار الغرب للنّشر والتّوزيع،دت،د ط.

44/ السيد عبد العزيز سالم،تاريخ المغرب الكبير،المجلد الثاني،دار النهضة العربية،د ط ،بيروت،1981م.

45/ الشهرستاني،الملل والنحل، تح أمير علي مهنا و علي حسن فاعور، الجزء الأول،دار المعرفة بيروت لبنان،ط14143،3هـ/1993م.

46/ شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات (الجزائر المغرب الأقصى موريتانيا السودان)،دار المعارف ،القاهرة ،ط1995،1م.

47/ شوقي ضيف،تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الأول– ،ط16، دار المعارف ،القاهرة، 2004م.

48/ طه خليفة الحجازي،أدب القيروان في عهد الأغالبة والفاطميين،المكتب الجامعي الحديث،الإسكندرية،2012م.

49/ عبد الحليم عويس،دولة بني حماد صفحة رائعة من التاريخ الجزائري،دار الصحوة، القاهرة،ط2، 1411هـ 1991م .

50/ عبد الحميد حاجيات،تطور الحياة الفكرية بالجزائر في عهد بني حماد،مجلة التاريخ ،المركز الوطني للدراسات التاريخية،العددان 24و25 ،87 . 1988م.

51/ عبد الرحمن الحاج صالح، الأدب العربي القديم في الجزائر،مجلة آفاق،السنة الأولى،العدد

الأول،يناير فبراير مارس 1963م.

52/ عبد الرحمن ياغي،حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها،دار الثقافة،بيروت . لبنان.

53/ عبد العزيز الثعالبي،تاريخ شمال إفريقيا من الفتح إلى نهاية الدولة الأغلبية،جمع وتحقيق أحمد بن ميلاد ومحمد إدريس، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، ط2، 1410هـ/1990م.

54/ عبد العزيز فيلالي،دراسات في تاريخ الجزائر والغرب الإسلامي،دارالهدى،الجزائر،2012.

55/ عبد العزيز نبوي، محاضرات في الشعر المغربي القديم،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،د ط،1983م.

56/ عبد الفتاح مقلد الغنيمي،موسوعة المغرب العربي،المجلد2، الجزء4، مكتبة مدبولي القاهرة،ط1، 1414هـ/1994م.

57/ عبد الفتاح مقلد الغنيمي،موسوعة تاريخ المغرب العربي،المجلد الثاني،الجزء الثالث،مكتبة مدبولي ،القاهرة،ط1،1414هـ/1994م.

58/ عثمان سعدي،الجزائر في التاريخ، دار الأمة للطباعة والنشر و التوزيع،الطبعة الأولى،الجزائر،2011م.

59/ عرب دعكور،الدولة الفاطمية التاريخ السياسي والحضاري،دار المواسم للطباعة والنشر،ط1425،1هـ /2004م 239.

60/ العربي دحو،الأدب العربي في المغرب العربي،دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة،د ط، 2007م.

61/ علاوة عمارة،دراسات في العصر الوسيط في الجزائر والغرب الإسلامي،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،2008م.

62/ علي إبراهيم كردي،بكر بن حمّاد التّاهرتي حياته وشعره،الهيئة العامة السورية للكتاب،وزارة الثقافة،دمشق، د ط، 2011م.

63/ علي البوجديدي،من نفائس المكتبة البارونيةبجربة:القصيدة الرائية في أدب العلم والمتعلم للإمام أفلح بن عبد الوهاب بن عبدالرحمان بن رستم الفارسي(توفي 258هـ):دراسة وتعليق،مجلة الحياة الثقافية،وزارة الثقافة تونس،العدد 240،أفريل 2013م.

64/ علي جفال،الخوارج تاريخهم وأدبهم،دار الكتب العلمية،بيروت لبنان،ط1411،1هـ/1990م.

65/ عمورة عمار،موجز تاريخ الجزائر،دار ريحانة للنشر والتوزيع،ط2002،1م،الجزائر.

66/ القرطاجني ،رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة،مطبعة السعادة،مصر،دط،د ت.

67/ لسان الدين بن الخطيب،أعمال الأعلام،القسم الثالث،تح أحمد المختار العبادي و محمد إبراهيم الكتاني،دار الكتاب،الدار البيضاء المغرب،د ط، 1964م.

68/ المالكي،رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم،تح بشير البكّوش،الجزء الأول،ط1414،2هـ ـ 1994م،دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان.

69/ مبارك بن محمد الميلي،تاريخ الجزائر في القديم والحديث،الجزء الأول،المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر،د ط، د ت.

70/ مجموعة من المؤلفين،تاريخ الجزائر الوسيط من خلال المصادر،منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نفمبر 1954م،الجزائر،د ط، 2007م.

71/ مجموعة من المؤلفيين،معجم أعلام الإباضية من القرن الأول الهجري إلى العصرالحاضر،قسم المغرب الإسلامي،الجزء الثاني،دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان،ط1421،2هـ/2000م.

م72/ حمد الطمار،الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر.

73/ محمد الطمار،المغرب الأوسط في ظل صنهاجة،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،دط،2010م.

74/ محمد الطّمار،تاريخ الأدب الجزائري،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،د ط، 2006م.

75/ محمد المختار العبيدي،الحياة الأدبية بالقيروان في عهد الأغالبة، مركز الدراسات الإسلامية ،القيروان،دار سحنون للنشر والتوزيع،تونس،ط1، 1414هـ/1994م.

76/ محمد اليعلاوي،ابن هانئ المغربي الأندلسي شاعر الدولة الفاطمية(320/931 -362 /973،دار الغرب الإسلامي لبنان،د ط، 1405هـ/1985م.

77/ محمد اليعلاوي،الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي(296–365هـ) ،دار الغرب الإسلامي،ط1986،1م.

78/ محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان،إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر،المجلد الأول، مطبعة داود بريكسي،ط2،الجزائر،1426هـ،2006م.

79/ محمد توفيق النيفر،الحياة الأدبية بإفريقية في العهد الفاطمي(296هـ – 362هـ)،ج 1،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقيروان،مركز النّشر الجامعي،مارس 2004م

80/ محمد حسن العيدروس،المغرب العربي و حكم الدولة الفاطمية نصوص وثائقية تاريخية،دار الكتاب،القاهرة، ط1، 1432هـ 2011م.

81/ محمد رضا الشبيبي،أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية،دار اِقرأْ،ط2، 1404هـ/1984م.

82/ محمد سلام زغلول،الأدب في العصر الفاطمي(الكتابة والكُتّاب)، مُنشأة المعارف ،الإسكندرية،د ط، 1988م.

83/ محمد طه الجابري،مرحلة التشيع في المغرب العربي وأثرها في الحياة الأدبية، دار النَّهضة العربية للطباعة والنشر،بيروت،ط1، 1403هـ/1983م.

84/ محمد عيسى الحريري،الدولة الرُّستمية بالمغرب الإسلامي(حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس)دار القلم للنشر والتوزيع،الكويت،ط3، 1408هـ 1987م.

85/ محمود إسماعيل عبد الرزاق،الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري،دار الثقافة،المغرب،ط1 ،1406هـ/1985م.

86/ مصطفى أبو ضيف أحمد عمر،القبائل العربية في المغرب في عصري الموحدين وبني مرين،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1982م.

87/ المقري،نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،المجلد الثاني،تحقيق إحسان عباس،دار صادر،بيروت،1408هـ 1988م.

88/ مهنا بن راشد بن حمد السّعدي،الشيخ عمروس ومنهجه الفقهي والعقائدي من خلال كتاب أصول الدّينونة الصّافية،مطابع النَّهضة،(مكتبة الجيل الواعد)،ط1424،1هـ/2004م.

89/ مؤلف مجهول،مفاخر البربر،تح عبد القادر بوباية،دار أبي رقراق للطباعة والنشر،ط1، 2005م.

90/ ياقوت الحموي،معجم البلدان،المجلد الثاني،دار صادر بيروت، 1397هـ 1977م.

91/ يحي بوعزيز،أعلام الفكر والثّقافة في الجزائر المحروسة،الجزء الأول،دار الغرب الإسلامي،ط1995،1م.

مجلات ودوريا ت:

1/ تالية سعدو، الحركة الفكرية بالدولة الرستمية وإسهام المرأة الإباضية فيها،مجلة عصور الجديدة،العدد الأول،2011م،الجزائر.

2/ الحبيب الجنحاني،نظرة تقييمية لدراسات تاريخية حديثة عن حركات الخوارج في المغرب العربي في العصر الأوسط،مجلة الأصالة،العددان 14و15،السنة الثالثة،1393هـ 1973م،الجزائر.

3/ عبد الحميد حاجيات،تطور الحياة الفكرية بالجزائر في عهد بني حماد، مجلة التاريخ ،المركز الوطني للدراسات التاريخية،العددان 24و25 ،87 . 1988م.

4/ عبد الرحمن الحاج صالح، الأدب العربي القديم في الجزائر،مجلة آفاق،السنة الأولى،العدد الأول،يناير فبراير مارس 1963م.

5/ عبدالقادر بوعقادة،التجول المذهبي في العهد الصنهاجي الحمادي الزيري وأثره على بلاد المغرب الأوسط،آفاق الثقافة والتراث،دبي ،الإمارات،السنة التاسعة عشرة،العدد 74،رجب1432هـ/يونيو(حزيران)2011م.

6/ علي البوجديدي،من نفائس المكتبة البارونيةبجربة:القصيدة الرائية في أدب العلم والمتعلم للإمام أفلح بن عبد الوهاب بن عبدالرحمان بن رستم الفارسي(توفي 258هـ):دراسة وتعليق،مجلة الحياة الثقافية،وزارة الثقافة تونس،العدد 240،أفريل 2013م.

- الرسائل والبحوث الجامعية:
- عبد الله خنشالي،أثر النّزعات المذهبية و الرّوحية في الشعر المغربي(من ق 2 إلى ق 4هـ)،أطروحة دكتوراه في الأدب العربي القديم،جامعة الحاج لخضر ،،باتنة،2008. 2009م.

مقدمة

أ – ز

الباب الأول:السياقات التاريخية 09

الفصل الأول: الجوانب الاجتماعية و السياسية 50/10

الفصل الثاني: الجوانب الثقافية 99/51

الباب الثاني: الحركةالأدبية وأعلامها 100

الفصل الأول: تطور الحركة الأدبية وأعلامها من الفتح إلى سقوط الدولةالرستمية 132/ 101

الفصل الثاني :

الفصل الثالث:تطور الحركة الأدبية وأعلامها في العهدين الفاطمي و الحمادي 167/133

الباب الثالث: الأجناس الأدبية 166

توطئة **169**

الفصل الثاني:الأغراض الشعرية 226/170

غرض المدح 169

شعر الوصف 184

الهجاء 194

شعر الغزل 202

الرثاء 203

الزهد 213

أغراض أخرى 219

خاتمة 244

فهرس المصادر والمراجع 253

فهرس الموضوعات 266